زهير الجزائري

النجف
الذاكرة والمدينة

مكتبة الفكر الجديد

من كتب
عبير الربيعي

النجف، الذاكرة والمدينة

من كتب
عبير الربيعي

مذكرات

المؤلف: زهير الجزائري
عنوان الكتاب: النجف، الذاكرة والمدينة
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٥

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لا يجوز نشر أي جزء، من هذا الكتاب أو تخزين اي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على اي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

زهير الجزائري

النجف، الذاكرة والمدينة

مكتبة
الفكر
الجديد

غادرت النجف في العشرين من عمري، وغادرت العراق بعد أربعة عشر عاماً، متنقلاً بين خمسة منافٍ و٤٢ بيتاً و٧ أماكن عمل و٣ زوجات. بدّلت حياتي وشكلي ولهجتي ولغتي مرات، وكنتُ خلال تنقلي في المنافي أستبدل مع الغرف حياة بحياة وأزيح المدن تباعاً من ذاكرتي، لأهيّئ نفسي للمدينة الجديدة.

مع امرأتي نمرّ بنا المدن ونحن نمرّ بها في الطريق إلى سانتا مونيكا. تنبهني إلى كرة من النار تسقط فوق المحيط الهادئ، أو وادٍ سقط تحتنا فجأة أو مدينة قفزت فوق تل... أتلفت ولا أرى من جمال المدن ما يميزها عن البقية. المدن، وأنا أدخلها وأغادرها، هي ذاتها. التنقل الدائم بين المدن والمنافي سلّحني بنوع من الاسترخاء والتبطّر. لا تهمني المدن التي تركتها، ولا المدن التي أنا فيها، أو التي سأذهب إليها. فالمدن رغم اختلاف التفاصيل هي ذاتها، وأنا حيث ما حللتُ هو ذاك الواحد الذي نمرّ به المدن وناسها كأشياء عابرة، كما يرى المسافر في قطار الليل

مكتبة الفكر الجديد

أضواء المدن التي يمر بمحطاتها، وكما يرى في انعكاس الزجاج مسافرين يصعدون وينزلون، لا ينطبعون في ذاكرته. هذا التنقل والاسترخاء علمني كيف أعرف الذات الخفية للأمكنة التي أزورها دون أن يبهرني المظهر.

بعد أربعة عقود أترك مدنَ المنفى ورائي وأزيحها من ذاكرتي، وأعود للمدينة الأولى، قابضاً بأعصابي على مقعد السيارة، وبذاكرتي على تلك المدينة، لأراها بعين الحاضر.

أدخل وجلاً من ثلاثة مخاوف بانتظاري: النسيان، اللوم والموت. لن يعرفني الناس في المدينة بعد هذا الغياب، فقد هجر المدينة أبناؤها القدامى إلى بغداد، مغادرين مدينة الكلام إلى مدينة النقود، وسيلومني الباقون لأنني تركتهم في أيام الفجيعة وأعود متأخراً، حين لم يبق غير الرماد والجنائز.

أعبرُ الفرات وبساتينه دون أن أرى شيئاً لأن عيني تترقبان مثل كل زائر لمعة القباب الذهبية. قبل أن أراها أطرح السؤال العصي: لَمَ هناك وليس هنا؟

يطرح النجفيون السؤال دون أن يتذمروا من موقع مدينتهم في الصحراء الملحية على مسافة سبعة أميال من الماء والخضرة، إنما يحيلون الأمر إلى حكمة الإمام الذي لكز ناقته حين حنت في منطقة (الحنانة)، لكزها لتستمر وعيناه ترنوان لبقعة أخرى بين التلال.

ولا يطرح الزوار هذا السؤال وهم يتوافدون من إيران وجبل عامل في لبنان ومن الأحساء والقطيف، من الهند وباكستان وحتى من جمهوريات آسيا الوسطى. يكفيهم أن الإمام علي اختارها لتضم جسده. منائرها الذهبية تخطف أنظار القادمين إليها.

يأتي البدو قاطعين الصحارى فتدهشهم الحاضرة الذهبية العجيبة،

مكتبة الفكر الجديد

يدورون حول المدينة التي تنكرهم وجمالهم، ومع ذلك لا تفارقهم الدهشة، وهم يرون أهلة المنائر تعيد بريق الشمس، ويذهبون إلى (المناخة) ولا يملكون ما يبيعونه في مدينة الملح غيرَ الملح.

معدان الجنوب وفلاحوه سيأتون للتبرك بشباك الأمير. تمسك أيديهم بنعومة الشباك وبرودة فضته، ويستحيل اللمس نظراً وسمعاً، بل إن أيديهم التي كانت مجرد أدوات للاستعمال، مثل المسحاة والمنجل، ستتخلى عن وظائفها العملية وتصبح آذاناً وقلوباً متوسلة الغائب الحاضر من أجل خلاصهم من مرض أو لوثة أو كارثة حلت بهم. وحين لا تجدي الشفاعة سيبقون ليجاوروا قبورهم القادمة في وادي السلام وقد تجاوزوا الخمسين بالكاد.

وسيأتي الزوار الفقراء الإيرانيون، وقد جمعوا ما ادخروه من قوت يومهم. بعضهم قطع الجبال والصحاري مشياً على الأقدام، ليصل إلى الضريح، فتسيل دموعهم وهم يقبّلون الباب. وربما يموتون في الطريق قبل أن يروا لمعة القباب.

الهنود الذين فقروا بعد تراجع مملكة (أوذة) وتحولوا إلى حدادي سكاكين ودراويش وحواة ثعابين. أمي كانت تخيفني منهم لأنهم يخطفون الأطفال ويأكلون قلوبهم...

يرى الزائر القباب الذهبية، والأبواب الفضية المطعمة بآيات من ذهب، وستغشي بصره أنوار المرقد وقد عكستها مقرنصات من مرايا متناظرة، كل نجمة تعكس المشهد كاملاً في رؤوسها الستة... الشموع والبخور، وتمتمات المصلين والداعين بالفرج والشفاء، كل قبلاتهم وتضرعاتهم المسموعة أو المهموسة، وما توحي به من وراء الحواس ستمسّ قلب الزائر الخاشع، وتأخذ حواسه وبصيرته فلا يرى المدينة الأخرى التي تختفي وراء هذه المدينة المقدّسة. لن يرى الأسواق التي

مكتبة الفكر الجديد

تكدّست أمام دكاكينها الخضار التالفة، ولا الدم السائح والمتخثر في دكاكين القصابين، لن يرى الأزقة الضيقة ولا الخرائب التي تفصل بين بيوت المدينة المتداعية ولا أكوام المزابل فيها.. ستبعدهم أصوات مرتّلي الأدعية وتوسلات الممسكين بشباك الضريح عن سماع الأحاديث الرخيصة والفاحشة، وعن أحاديث السياسة السرية في مقاهي المدينة، ومعارك الجنّازين حول حصتهم من دفن الموتى... لن يروا أو يسمعوا كل ذلك ليبقوا في فضاء المقدس من المدينة. وسيتقبلون خدع الباعة والمؤجرين، ويتغافلون عنها باعتبارها ضريبة الوصول إلى المراد وبعضاً من عناء الحصول على شفاعة الزيارة.

كل هذا الخليط العجيب تجمّع حول الصحن، قبلة الشيعة والمسلمين حيثما كانوا. كنت أراهم في الظهيرات الحارة متكدسين جنب بعضهم البعض، وقد افترشوا المرمر في أروقة الضريح، يتقاسمون الخبز والماء، دون أن يعرفوا لغات بعضهم.

أعجب كيف أن هذه المدينة شكّلتني و لم تشكّلني على لهفة زوارها المؤمنين! كيف أن قدسيتها لم تمنع تشكل جيل من أبنائها العلمانيين.

مكتبة الفكر الجديد

الأســـلاف والآبـــاء

سأبدأ سيرتي في هذه المدينة من جدنا الشيخ أحمد الذي ورث عن أجداده مهنة الأهوار، وهي صيد السمك بالفالة. نحيلاً كان بالضرورة من كثرة الوقوف والتجذيف بالمردي. ومثل أجداده شوته شمس الجنوب، لكن على خلافهم كان كثيرَ التأمل، يدور بمشحوفه بين غابات القصب ساه عمّا حوله. ففي أكواخهم النائية على الحافة الجنوبية من هور الحمارّ كان يزورهم أحد «الموامنة» ليرشدهم إلى الدين .. على يديه تعلم أحمد أن يفك الحروف التي بدت له أول الأمر كديدان على الورق. ومنه عرف أن الصلاة ليست مجرد فريضة عمياء يتعلمها الأبناء من آبائهم، إنما هي علاقة بين خالق ومخلوق وهي علاقة معرفة:

– إنس جوعك وعطشك حين تبدأ الركوع بين يديه، ولا تر مما حولك إلا ما يوحي بوجوده. لا تشبّهه بمن حولك، وتوسله دون أن تطلب شيئاً...!

داخ أحمد الشاب تائهاً وهو يدفع المشحوف على سطح الماء وأصوات الخليقة الأولى توشوش حوله كأنه أول المخلوقات منتظراً معجزة لا يعرفها.

ذات يوم قال أحمد لوالده إنه كره الحياة هنا، كره صيد السمك بالفالة وانتظار نضوج الرز في القصب، كره ركود الجاموس الطويل في الماء... إنه ذاهب إلى النجف للدراسة هناك. وعلى خلاف رغبة والده

مكتبة الفكر الجديد

غادر جنة الأهوار إلى مدينة الملح طلباً للعلم. منه ورثنا المهنتين المتعبتين؛ الترحّل والثقافة.

أحفاده الثلاثة (عبد الكريم، محمد جواد وعبد اللطيف) جمعوا عناصر الطبيعة الثلاثة: الماء والنار والذهب. محمد جواد هو النار بين الثلاثة، حدته في الموقف والمزاج انعكست على وجه نحيل متوتر وعينين جاحظتين. لم يكتف محمد جواد بالتحريض ضد الإنكليز بالشعر أو من المنبر، إنما شارك في تكوين أول خليّة للعمل المسلح ضدهم.

يقابله ويعاكسه شقيقه الشيخ عبد الكريم، السمح الوجه، الهادئ الصوت والموقف، والذي رأى أن إعلان الثورة على الإنكليز، رغم مشاركته في قيادتها، سابق لأوانه بسبب عدم تكافؤ القوى واختلاف المواقف بين شيوخ العشائر، ومنهم مقلده الشيخ خزعل. وعلى خلاف مجايليه رأى أن الصراع على قيادة الدولة «ليس طائفياً» إنما هو «صراع من أجل البقاء».

جدي والد أمي الشيخ عبد اللطيف يستشهد بالإمام الصادق ليجمع بين الدنيا والآخرة فوسّع أملاكه، معتمداً على دعم أمير المحمرة الشيخ خزعل الذي سعى لأن يترشح ملكاً على العراق بدعم بعض علماء النجف ومنهم أجدادي. تزوج الشيخ عبد اللطيف من أربع نساء وكان له منهن ١٢ ولداً وبنتاً بينهم أمي.

جدتي لأمي (شريعة) كانت ثالث زوجاته، وهي البغدادية الوحيدة والعلوية بين زوجاته الأربع، من السادة الأعرجية المتنقلين بين الكرادة والكاظمية، يمطّون حروف العلة وينغمونها خلال الحديث. سافر جدي إلى الكاظمية ليخطب شريعة من والدها لأحد معارفه، فسحره جمالها ورقتها، لذلك بدّل رسالته وخطبها لنفسه. لم تكن شريعة راضية بهذه

مكتبة الفكر الجديد

الشيخان عبد اللطيف وعبد الكريم
والحفيد علي.

القسمة، لكنها في أية حال قسمة الله، لذلك تقبلتها مذعنة. لم تكن العلوية طيعة في الفراش، على العكس كانت تقرأ القرآن بصوت عالٍ عن ظهر قلب حين يدعوها الشيخ إلى فراشه. مع ذلك ولدت له ثلاثة أولاد وبنتاً وحيدة هي أمي. سماها جدي (أميرة)، وهو اسم غريب على ذلك الزمان، وكانوا يسمونها في البيت (بنت البغدادية).

لم تدخل أمي المدرسة ولا حلقة الملة، إنما تعلمت القراءة والكتابة وهي تشارك إخوتها حلّ واجباتهم على ضوء الفانوس. قالت لي لاحقاً «إنها كانت تتمدّد معهم على الأرض وتدقق في الحروف على الورق وتسأل حينما تستعصي عليها الكلمات عن الفرق بين الصاد والضاد وبين السين والشين وهل تنطق ألف الجماعة؟ بالكاد يجيبها إخوتها المنشغلون عنها بدروسهم. بإصرارها صارت تساعدهم في كتابة واجباتهم بتطوع وحماسة. هكذا قرأت أمي روايات جرجي زيدان والمنفلوطي وسحرت نساء أقاربنا بحكايات مختلفة عن قصص القرآن والأولياء وآل البيت.

مكتبة
الفكر
الجديد

قبل أن يبلغ والدي الخامسة والعشرين من عمره كان معلماً فقيراً ويتيماً، لكنه كان شديد الاهتمام بأناقته وبآلة العود التي يضعها عند قلبه وهو يعزف المقامات وأغاني عبد الوهاب مغمضاً عينيه. التقى ابنة عمّه البغدادية التي كانت آنذاك في الخامسة عشرة من عمرها. من بين بنات عمه الخمس اختارها هي. شعرها الأسود الكثيف المتموج المنسدل على كتفها، نظرتها وهي تتحدث إليه لم تكن خائفة أو منكسرة. وعلى خلاف أخواتها غير الشقيقات كانت أقرب إلى البغداديات منها إلى النجفيات في طراز ملابسها واستقامة قوامها. لم تكن والدتي ترتدي النقاب حين تخرج إلى الشارع أو السوق، إنما تلم عباءتها حول وجهها وترفع رأسها قليلاً غير وجلة من وجود رجال في هذه الدنيا. و لم ترتد عباءتين مثل بقية أخواتها، إنما تكتفي بعباءة واحدة تغطي ثوباً منقوشاً بورد ناعم وحذاءً بغدادياً يختلف عن المدس النجفية. عرف والدي الأفندي اليتيم أن هذه الصبية البغدادية المغتربة عن مدينتها أقرب إليه من كل بنات عمه. حين زارها في غرفة أمها جال بنظره في الغرفة التي تفوح منها رائحة البلاط المغسول، نظر إلى الشراشف المطرزة وسأل غير قادر على أن يجد مدخلاً آخر للحديث:

من رتّب الغرفة بهذا الشكل الجميل؟

فأجابته جدتي:

-أميرة.

مشيرة إلى أمي الجالسة في طرف الغرفة بكبرياء واحتشام. في الحال قرّر والدي لنفسه «أريد هذه الصبية وبيتاً كهذا البيت». أشفقت جدتي (شريعه) على هذا الشاب النحيل الذي لا أب له ولا أم، ومع ذلك قدّرت أنه «سيصب كل عاطفته على ابنتها المدللة، وسيحب عائلته وأولاده لأنه هو نفسه حُرم من حنان الوالدين». استقبلت أمي هذا

مكتبة الفكر الجديد

القرار برضا لأنها أرادت أفندياً متعلماً لا يجبرها على أن تلبس أو تفعل ما لا تريده. تقدم والدي لخطبة ابنة عمّه أميرة وتم زواجهما بسرعة. وبعد أقل من عام ولدت لهما طفلة.

كعادته أراد والدي أن يكسر تقليد الأسماء الدينية المتداولة (أسماء، مناهل، مناسك، فاطمة، وزهرة) فسمّاها (آمال). أحبت أمي هذا الاسم الرومانسي الموحي بأيام قادمة حلوة.... لم تدم الـ(آمال) أكثر من أيام، فقد ذهبت أمي إلى «قراية» عمتي في البيت المجاور. تركت الطفلة التي لم تبلغ الشهر من عمرها، بعد رضاعتها، في غرفة بالطابق العلوي ونزلت لتنضم لشدة الكحيلات وسط حلقة اللطم. صبايا الجيران تسللن من الدرج الخلفي ليتفرجن على اللطم من سياج الطابق العلوي. عمتي صعدت غاضبة لتطردهن. خلال هروب الصبايا داست أقدامهن العجولة على (آمال) أمي وأبي. وسط حلقة اللطم سمعت أمي صرخة الطفلة في الطابق العلوي وكأنها آتية من داخلها، صعدت ركضاً إلى الطابع العلوي قبل أن تلفظ شهقاتها المحرقة، فوجدت الطفلة جثة هامدة!

لم تشفَ أمي أبداً من تلك الصرخة ومن هاجس السوء الذي يداهمها في أهدأ الساعات وأكثرها متعة. ولفترة طويلة بعد ولادتي، يصاب والدي في عزّ ساعات متعته بلحظات اكتئاب، فينقبض وجهه فجأة متذكراً صورة الطفلة بلحمها اللين وقد داستها الأقدام. وحين يسأله الأصدقاء يجيب:

-ابنتي توجعني!

بعد أقل من عام من زواجهما نفي والدي المعلم، بسبب نشاطه المعارض، إلى سدة الهندية. هناك في المنفى ولدت أنا، زهير ابن علي الجزائري، في ليلة شتائية قبل نهاية العام بأيام. فتحت عيني على شعر

مكتبة الفكر الجديد

أسود طويل منسكب عليّ بحنان، هو شعر أمي وبجانبها وجه نحيل بنظارتين وشارب هتلري هو والدي.

مشيت أولى خطواتي في بيت بني بالطابوق، خُصّص لموظفي الدولة وسط صفوف من بيوت الطين. في هذا البيت حلمت بأني أطير على علو منخفض قريباً من يدي والدي المبسوطتين لكي تتلقياني إذا سقطت.

من ذلك البيت وتلك المدينة (سدة الهندية) التي ولدت فيها أتذكر بالكاد، كما حلم غائم، باحةً يسرح فيها الدجاج وسكة حديد مترية أمام بيتنا لا يمر عليها القطار. أتذكر ذلك البيت كما ضوء قطار لمع في الظلمة ثم اختفى و لم يصل القطار على تلك السكة المهملة. حين قلت لوالدي بأنني أتذكر قال بجزم:

مستحيل! كان عمرك آنذاك ثلاث سنوات فقط!

ثم بتحد قال:

– صفه!

– ندخل البيت من دكة بدرجة واحدة وباب تقشر دهانه المصفر، وبعد الباب ممرّ، على جانبيه غرفتان متقابلتان....

– أسكت، أسكت! من وصفه لك؟

– هل هناك كوز ماء وناقوط في زاوية المدخل؟

– كسره أحد العابرين...

– ...ونخلة قصيرة وسط باحة البيت؟

– نعم برحية.

قال والدي بجزم وهو يعدل نظارته من عجب ما يسمع.

مكتبة الفكر الجديد

أتذكر تماماً كما لو كنت أراها الآن من وراء الشواش جارتنا أم فخرية التي تحلب كل صباح اللبن الرائب والبيض الملطخ بدم الدجاجة التي باضته قبل دقائق.

– مستحيل مستحيل

لو كنت أجرؤ لفاجأته بأن أمي صرخت وبكت في باحة ذاك البيت لأنها رأته يغازل ابنتها الشابة فخرية...

لكنني لم أغامر لأنني لست متأكداً من أنني رأيت كل ذلك فعلاً أم راودني في حلم. فمنذ طفولتي وقبل أن أصبح روائياً تختلط عندي الأحلام بالواقع اختلاطاً لا فكاك منه، وأحياناً تفوقه صلابة ولوناً.

المنظر المدوخ للماء وهو يتدفق مدوياً من تحت أبواب السدة الحديدية جاء لاحقاً بعد أن رأيته خلال سفرة مدرسية. أمي أخبرتني بأنها نظرت إلى دفق الماء هذا وهي تحملني و لم أتجاوز الأربعين يوماً من عمري. طوال طريق العودة بقيت تبكي: ماذا لو سقط الرضيع من يدها إلى ذلك الماء؟! وبالكاد أقنعها والدي وهو يضحك بأنه مازال هنا نائماً بين أيدينا يتنفس ببطء ويتمطق بقايا الحليب. ومع ذلك بقي الاثنان ذاهلين خوفاً من قدر آخر بعد ما حصل لآمال.

مكتبة الفكر الجديد

أنا وابن عمي علي في المدينة ...
وفي الريف.

مكتبة
الفكر
الجديد

الصحن والمحلات الأربع

الصحن تحيطه المحلات الأربع

حين عاد والدي من منفاه إلى النجف، كنت قد تجاوزت الثالثة من عمري. آنذاك كانت محلات النجف الأربع (العمارة، الحويش، البراق والمشراق) تحيط بالصحن العلوي باعتباره مركز المدينة الروحي والمعماري، ويشكل الدلالة والمعنى للمدينة وهوية ناسها (النجفيين). التصقت بيوت النجفيين بجدران الصحن، وقد صممت كل طرق المدينة لمشاة يتجهون إلى هذا المركز الروحي. بين الصحن والنجفيين المحيطين به تبادل تاريخي ويومي للمعاني. تبعاً لذلك بدأ الناس، وقد غيّروا المكان من قبر إلى مدينة، يولّدون الأساطير عن المكان ومركزه الصحن.

كنت صغيراً وأنا أسمع عن الأسد الذي يأتي ليلة كل جمعة ويقف

مكتبة الفكر الجديد

على تل في البرية ينظر إلى المنائر بخشوع، يرفع يده اليمنى ليحيي (الأمير) ثم يعود إلى غاباته. ويحيل النجفيون إلى معجزات الأمام، كون الأفاعي في النجف، على كثرتها، بطل سمها لأن الإمام طلسمها، حمايةً لزواره الذين ينامون على أرض الضريح. ومن المعجزات التي يتحدث عنها النجفيون انحراف ضوء الشمس عند الشروق ليسقط أولاً على شباك الضريح...

جالساً عند إيوان ظليل داخل الصحن كنت أراقب الحَمَام في ظهيرة حارة وهو يحطّ فوق رفوف الصحن. التفتَ إلي ابن عمي أسعد وسألني:

– لَم يترك الحمام بساتين الكوفة وطين فراتها البارد ويأتي إلى مدينة أقرب في حرها إلى جهنم؟

– ....؟

– مثله مثل الناس يأتي لزيارة الإمام وتبيض الأناث في الصحن لتبارك أولادها.

في ظهيرة حارة أدخل الصحن متتبعاً شاباً جاء من الجنوب العميق حاملاً شقيقه على يديه. أقترب منه لأرى هذا المشلول المنتفخ والمزرق الوجه تتوسطه عينان جامدتان على اللاشيء وأقول لنفسي «لم لا يموت؟» مع ذلك يلقيه شقيقه على مرمر الصحن متضرعاً نحو المنائر الذهبيه تاركاً دموعه حتى شاربيه:

جبته يمك يا بو اليمه. أنت الأول والأخير.

يزحف المشلول، كمن يسبح في ماء، ساحباً أرض الصحن الحارة تحت جثته. ألوذ بالضريح من حرّ الظهيرة فأرى الشاب رُبط على الشباك فيما يشبه الغيبوبة، وإلى جانبه واحد من خدم العتبة، يقرأ في أذنه «بسم الله وما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ... ما جئتم به من

مكتبة الفكر الجديد

سحر إن الله سيبطله»... في النهاية سيرتعش جسد المربوط من نوبة صرع، ويقال آنذاك إن الإمام مسّ رأسه ففارقه الجن الذي كان يسكنه.

الصحن هو مركز للوعظ والإرشاد الديني. خطباء المنبر يعرفون دواخل مستمعيهم ويعرفون ما يريدونه، فيحركون عواطفهم من خلال الجمع بين الحكاية والشعر والغناء، ثم يفجرون البكاء الجماعي في لحظة المقتلة. ويمتلك خطباء المنبر الخبرة والقدرة على تحريض الناس لتأييد أو معارضة أية ظاهرة. وعليهم من جانب آخر أن يتجاوبوا مع معتقدات العوام، مصدر رزقهم، ضد أية ظاهرة إصلاحية. واحد منهم أراد أمام مستمعيه أن يفنّد نظرية دارون:

يقول دارون، الإنكليزي ابن الإنكليزي، إن أصل الإنسان قرد. هل تقبل يا سيد جواد أن يكون أصل جدك قرداً؟

فيردّ السيد بصوت عال ملتفتاً للجمهور:

حاشا.. هذا كفر، فجدي من نسل رسول الله.

وهكذا يرد قارئ المنبر نظرية دارون عن أصل الأنواع إلى أعقابها! ويقول لمستمعيه:

إذا كان هناك واحد أصل أجداده قرود فهو صاحب النظرية نفسه، قرد ابن قرد، حتى سابع ظهر.

قبيل الغروب يتجمع الناس في الصحن خلف مراجعهم لصلاة الجماعة. هنا لا يعود المصلي الواحد واحداً، بين نفسه وربه. تتطلب هذه المواجهة تطهراً وإيماناً صعباً على إنسان محاصر بذنوبه الماضية والقادمة. الصلاة مع الجماعة تضع المصلي داخل كتلة أوسع، خلف شفيع وسيط بينه وبين الجماعة والله.

حول الصحن تتناسل الرموز الدينية بوجود ٢٦ جامعاً و٨٠ مسجداً و١٥ حسينية و٢٨٨ مقبرة خاصة و٥٠ مكتبة خاصة و٦

مكتبة الفكر الجديد

مقامات للأنبياء، فضلاً عن المقبرة الكبيرة في وادي السلام[1].

للصحن أيضاً وظيفة المتنزه لأهل المدينة الذين ضاقوا ببيوتهم. نجلس على بلاط اللواوين لنتملى هذه الحديقة الفيروزية من النقوش والآيات وتتجول عيوننا مع التواء الحروف التي تزين الأفاريز، صاعدة نازلة مع المقرنصات في سقوف اللواوين. نتابع ونحفظ في دواخلنا من دون أن ندري. وفي قرارتنا ندرك أن هذا المكان يمت لنا بمقدار ما يمت للرجل الذي نُجلّه والذي اختار هذا المكان مستقراً لروحه. أسمع التراتيل والأدعية وبسملات الداخلين والخارجين ودون أن أردد معهم أشعر بأن هذا المستقِر في ضريحه يستمع لنا.

وفي الصحن تعقد حلقات الدرس والمناقشة لطلاب الحوزة في الدراسات الدينية. حلقات دائرية من العمائم، كل حلقة التفت حول كتاب. أكثرهم جاءوا من مدن أو دول أخرى للدراسة في (مدينة العلم وعلي بابها).. هنا عاشوا على الكفاف على أمل أن يصيروا مقلدين للمراجع في قراهم ومدنهم النائية.

متدينون أو علمانيون، كنا نرى في هذا الراقد في ضريحه رمزاً لنا جميعاً، ولكن بمعانٍ مختلفة حد التناقض. فالمتدينون يرونه الأجدر بالخلافة ممن بعده، كونه الأقرب للرسول والمنصوص عليه منه ومن القرآن، وهو الذي يعطي وجودهم معنىً ومميزاً عن العامة. أبناء العشائر الذين يقدسون القوة والشجاعة يرونه (داحي باب خيبر) تقييماً لدوره في اقتلاع باب قلعة خيبر التي (عن فتحها عجزت أكف أربعين وأربع) أو (زراك الرخامة) اعتماداً على حكاية عمود المرمر الذي رماه الإمام علي من المدينة ونبت في جامع الكوفة.

والذي العلماني كان يراه رجل مبادئ لا يصلح لإدارة الدولة.

---

(١) الدكتور عبد الستار الجنابي ـ تاريخ النجف الاجتماعي ص ٦٣.

مكتبة الفكر الجديد

الدولة تحتاج لمستبد مثل معاويه يغيّر المبادئ وفق حاجات الحكم كما تغيّر الأفعى جلدها.

وكان يردد دائماً:

-لو عاد حياً لخلّصنا من العمائم التي تتطفل على اسمه.

أساطير النجفيين تتحدث عن النفائس والكنوز المخزونة في سراديب الصحن: زولية كتب عليها القرآن بخيوط من ذهب، سيف كان من نفائس رضا شاه مرصع بالياقوت، جوهرة بحجم حبة الرز خط عليها نهج البلاغة...

خالي سعيد الشيوعي يقول:

لو عاد حياً سيوزع كل هذه الكنوز والذهب الذي يزين ضريحه على الفقراء.

حول الضريح وبين رجال الدين ومن ورائهم العامة يتصارع اتجاهان؛ اتجاه يدعو لتحمل الألم والصبر والبكاء على القبور بانتظار المهدي المخلص، يعارضه اتجاه يدعو إلى الثورة والشهادة أسوة بالإمام

مكتبة الفكر الجديد

علي وابنه الحسين، وفي ضوء ذلك يقسّم رجال الدين الناس إلى (حسني)، مسالم ، يقابله (حسيني) ثائر على الظلم محب للشهادة. الاتجاهان يتصارعان داخل الإنسان الواحد.

أبواب الصحن تنفتح على محلات النجف الأربع القديمة: المشراق والبراق والحويش والعمارة. خلال تنقلي داخل المدينة أدخل الصحن وأخرج منه مرة على الأقل كل يوم. أبطئ خطواتي وأنا أدوس قبور المدفونين تحت الصخر المصقول، أسير بين الحمام الذي يتمشى بهدوء على الأرض، ملتقطاً الحبات التي تساقطت من طعام الفقراء. يسير الحمام أمامي وعينه تتبعني بخوف. وحين أصفق الأرض بقدمي يحلّق من حولي قليلاً فوق الأرض ثم يهبط كما في حلم.

على يميني سقّاء يوزع الماء من جرة يسندها إلى وركه وهو ينادي:

– اشربْ الماء هنيئاً والعن الباغي يزيد!

– اشربْ الماء هنيئاً واذكرْ عطش الرضيع!

ويُنغّم السقّاء قوله برنين الطاسات النحاسية.

في الدخول والخروج أقلّد حركة والدي العلماني وهو يستأذن الإمام علي الدخول بوضع يده على القلب، ثم يستدير إلى الخلف وينحني مسلماً عليه عند الخروج.

مكتبة الفكر الجديد

محـــلّة العمـــــارة

محلة العمارة التي سكنت فيها، هي الأكبر بين المحلات الأربع. تقع جنوب غرب الصحن. ضمت أبرز المراجع الدينية (السيد أبو الحسن، السيد عبد المحسن الحكيم، الشيخ عبد الكريم الجزائري، السيد علي الصدر والسيد محمد حسين الحمامي)، وضمت بيت المرجع الشهيد محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى التي استشهدت معه تحت التعذيب وكانت صديقة عمتي ووالدتي.

في محلة الحويش سكن المراجع السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ

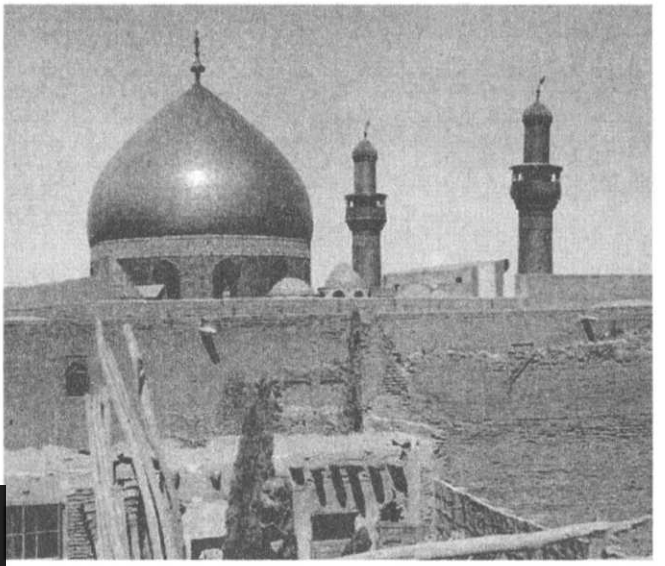

مكتبة الفكر الجديد

محمد طه نجف، والسيد روح الله الخميني. وفي المشراق بيوت المراجع الشيوخ محمد حسين كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحسين الجواهري والد الشاعر محمد مهدي الجواهري والسيد علي بحر العلوم، كما ضمت بيوت سدنة الحضرة العلوية من آل كمونة والخرسان.

لكل هؤلاء ملتقى يومي في الصحن. فقبيل الغروب يدخل المراجع إلى الصحن من أبوابه الأربعة، محاطين بأولادهم ومريديهم وتستقبلهم الصلوات من كل جانب:

- اللهم صلِّ على محمـــــــد وآآآآل محمـــــــد.

يرددها الحاضرون ممـــــدودة وعاليـــة النبرة مع التشديد على الألف الممدودة والميم. ويتزاحم الناس على تقبيل أيديهم الممدودة قليلاً خارج العباءة. أيد رقيقة، ناعمة الملمس، شفافة الجلد، لم تعرف العمل اليدوي. طفلاً ثم صبياً وقبل أن تتفتح مداركي العلمانية كنت أندفع مع المتزاحمين لأقبل أيديهم حتى دون أن أعرفهم، وأشعر بعدها بنوع من الفرح الشفاف لأن باباً صغيراً في الجنة فتح لي.

على بعد خمسة بيوت من بيتنا في العمارة يقع بيت المرجع المصلح السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني. نتوقف عند بابه الخشبي الأسود، الذي تتوسطه أكرة نحاسية بشكل يد قابضة على كرة. في كل مرة يذكرني محدثي:

.. هذا بيت السيد ...

لن يكمل التعريف لأنه يفترض بانه ما من شخص تنطبق عليه هذه الصفة (السيد) غير أبو الحسن. يقولها بصوت هامس كأنه يتحاشى أن يزعج نومة السيد الأبدية أو يقاطع صلاته.

لم أر السيد و لم اعرف ما فعل، لكني تاثرت كثيراً بمأساته حين كان يؤم الجماعة في الصحن فتقدم رجل ملثم وذبح ابنه من الوريد إلى

مكتبة الفكر الجديد

الوريد وهو بجانبه على سجادة الصلاة. لم أعرف أبداً هوية القاتل ولا سبب الجريمة، لكني عرفت أن السيد لم ينقطع عن الصلاة، إنما حول عينيه باتجاه القتيل وهو يحوقل بصوت مسموع:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

تقبلتُ مهابة السيد ودخلتُ في فضائها من خلال أحاديث الآخرين. فقد كان الناس في النجف يقيسون التواريخ على وفاته:

– في العام الذي توفي فيه السيد شهدت المدينة أول زلزال...

– بعد وفاته فقدت النجف مرجعيتها.

– صارت الكلمة للعوام ...

– ولد بعد عام من مقتل ابن السيد.

أنا ولدت قبل وفاته بعامين، لكنني رأيت السيد وعشت معه صبر أيوب وهو يرى مذبح ابنه ورأيت الدم على أوراقي وسرت مع مشيعيه صامتاً مختنقاً...! عشت كل ذلك من خلال أحاديث الآخرين.

غامر السيد بسمعته القيادية حين خالف (بدع العوام) وأفتى بتحريم ضرب الرؤوس بالسيوف والتسوط ولطم الصدور في عاشوراء. بسبب فتاواه الجريئة هيج قرّاء المنبر العوام ضده فقسموا الشيعة إلى (أمويين وعلويين) حسب موقفهم من الشعائر الحسينية.

لم أعِ وأنا طفل الأثر الذي تركه أبو الحسن عند علماء النجف الذين انقسموا بين مجاراة عادات العوام وبدعهم وبين الذين يريدون الإصلاح وتخليص الدين مما سمّوه بدع الجهل. وعادة يصطدم المصلحون بقرّاء المنبر الشعبويين ذوي الألسن السليطة والقدرة السحرية على التأثير في الجمهور. وكثيراً ما يتراجع المصلحون عن فتاواهم حين تهيج العامة ضدهم. مع ذلك كنت أسمع بعضاً من أتباع السيد أبو الحسن يقولون

مكتبة الفكر الجديد

بأن المجتهد ينبغي أن لا يجاري العوام حتى لو سبب له ذلك خسارة الزعامة وتنكيل العوام.

من العمارة إلى بيت جدي في المشراق كنت أذهب وجلاً، فبين المحلّتين حرب داحس والغبراء. الحرب كانت يومية بين القبور بالمقاليع. كل تكتيكات الحروب التقليدية كالكر والفر والخدعة والمباغتة تستخدم فيها مع فارق أن كل واحد يعرف خصومه بالاسم والعائلة والعشيرة. في كل يوم يخرج من الحراب مصابون جدد يذهبون إلى المدارس في اليوم التالي فيضاف إلى جراحهم عقاب المعلمين الذين يعرفون من ضمادات الرأس أنهم شاركوا في (الحراب). مع ذلك بين الطرفين المتحاربين اتفاق ضمني على إيقاف اللعبة ويفر الجميع حين تأتي سيارات الشرطة.

خصومي في المشراق، وأنا قادم من محلة العمارة، يقطعون طريقي إلى بيت جدي لذلك كنت أذهب في الظهيرة الحارة لأتجنب لقياهم ...

إلى الغرب من محلتنا تقع الدرعية التي تطل على بحر الملح وبساتين الشوافع. جوّها يختلف كثيراً عن بيئة النجف المحيطة بالصحن، ويقترب من البادية. هناك تجد لابسي العقل الغليظة وحاملي البنادق

مكتبة الفكر الجديد

والمسدسات. ربما كان منهم (عبود) الذي غنته سليمة مراد:

عبود إجه من النجف شايل مكنزيه.

أبناء العشائر المسلحة التي تسكن الثلمة والدرعية، حوّلوا فتاوى المراجع، وهي كلمات، إلى رصاص خلال حصار النجف وثورة العشرين، ففي بديهياتهم أن هناك أناساً للقول وآخرين للفعل، وأن الطاعة والتنفيذ حرفتهم وفضيلتهم. حين يتهيّأون للجهاد تصبح كلماتهم قصيرة وحادة، هي ملحق للأفعال في شكل هوسات يتحرك الجسد فيها لولبياً وعمودياً، بعدها تتهيأ الأجساد للرصاص، قاتلة أو قتيلة، من أبناء العشائر جثث الذين علقهم الإنكليز تحذيراً للباقين. بعد فشل الثورتين لم تجد العشيرتان ما تقاتلانه، فتقاتلتا فيما بينهما.

هنا في الدرعية يتجاور الأعداء من عشيرتي ألبو كلل والبو عامر، وما بينهما من ثارات قديمة. مدرستنا (السلام) تقع بين المقبرة وساحة الحرب بينهما. ومعنا في المدرسة، وربما في الصف الواحد أبناء من العشيرتين. كل طرف ينظر للآخر بتوتر: «سأكبر بعد سنوات وآنذاك ستنطبق علينا شريعة الثأر فتكون قاتلي أو قتيلي». أحمد هندي، الأسمر النحيل، الطويل القامة، يسير في ساحة المدرسة مائلاً في مشيته إلى اليمين ويدخل الصف ويده في جيبه على قبضة المسدس. يقابله بنفس التأهب والسلاح واحد من البو عامر مربوع القامة، لا أتذكر اسمه، يطقطق رقبته بصوت عالٍ كلما مر استخفافاً بخصمه. اثنان من زملائي في المدرسة قتلا في سلسلة الثارات. ففي سوق العمارة على مسافة خطوات من بيتنا قتل زميلي في الصف أكرم هندي أبو كلل بطعنة سكين في رقبته. القاتل كان شاباً من البو عامر. شقيقه أحمد هندي قتل شيخ البو عامر مهدي العبد في ٧ آب ١٩٦٢ ثأراً لأخيه وأعدم لاحقاً.

مكتبة الفكر الجديد

قبل مقتله اعتاد مهدي العبد أن يخترق زقاقنا برفقة حراس مدججين بالرصاص في طريقه إلى الصحن. وكنا نوقف اللعب وننزاح جانباً لكي يمر بعقاله الغليظ وشاربيه الكثين، وهو مطرق بمهابة، لكن عينيه تزوغان جانباً عند كل منعطف كأنه يبحث عن قاتله.

بين فترة وأخرى تشتعل الدرعية بالرصاص. آنذاك يتقافز أبناء العشيرتين من سياج المدرسة إلى ساحة الحرب فيخرجنا المعلمون من صفوفنا على عجل إلى بيوتنا عبر الممرات والأزقة لأن المدرسة تصبح في مرمى النار. آنذاك يخفت صوت الزعامات الدينية المهدئة وتطغى لعلعة الرصاص وتتحكم الزعامات العشائرية بمصائر الناس وقد احتل المسلحون سطوح البيوت. سراقاً كانوا أو قطاع طرق أو مهربين أو قتلة ثأر، لا يهم، كانت طاعة المراجع الدينية بالنسبة لأبناء العشائر وسيلتهم الوحيدة للحصول على شفاعة مغفرة الرب. حين تضج المدينة بالموتى ويستنجد الأحياء يرسل علماء الدين وكلاءهم فيأتي الشيوخ إلى دواوينهم طيّعين، يقبلون بعضهم ورائحة البارود ما تزال عالقة بملابسهم في هدنة موقتة تباركها المراجع قبل أن يندلع القتال مرة أخرى.

المهنة السائدة بين الاثنين هي تهريب السكائر والسلاح من السعودية عبر البادية. في الليل المتأخر، أو ساعات الفجر الأولى أسمع قرع حوافر البغال في الأزقة وصوت المهربين العجول الغاضب وهم يدفعون البغال التي حشرت أحمالها بين الجدران يريدون تفريغ البضائع في مخابئها السرية قبل أن يكشفهم ضوء النهار. المنافسة على ممرات التهريب كانت سبباً في قتال العشيرتين.

سلاح المهربين يفوق سلاح الشرطة التي تطاردهم. مسدسات، بنادق، رشاشات متوسطة لاستخدامها في حال اعترضت الشرطة بضاعتهم. الويل لموظف الجمارك الذي يرفض الرشوة ويعترض

مكتبة الفكر الجديد

طريقهم. أحد أقاربنا (كاظم) كان واحداً من سلسلة موظفي الجمارك الذين اغتيلوا على أيديهم.. حالما جلس على كرسي الحلاق في دورة الصحن، تسلل من خلفه صبي لم تنبت شواربه بعد. انتظر حتى كبلوه بصدريته البيضاء، أزاح الصبي الحلاق جانباً ووضع فوهة المسدس على صدغه وأطلق الرصاصة بينما كان كاظم يرى في المرآة وجه قاتله ووجهه المفزوع قبل أن تطلق الرصاصة!

حين تخرّجت من مدرسة السلام الابتدائية ودخلت ثانوية الخورنق انحسر دور العشائر لصالح الأحزاب. العديد من الأبناء غادروا عشائرهم وثاراتها وانضووا إلى عشائر أخرى هي الأحزاب، فصار مهدي العبد شيخ ألبو عامر، قبل مقتله، وجهاً بارزاً في حركة السلم التي يقودها الشيوعيون، بينما انضم الرياضي مثقال أبو كلل إلى الجهاز الصدامي في حركة القوميين العرب. البعض الآخر تركوا بنادقهم ومهنة التهريب الخطرة بعد أن تزوجوا وصار لهم أبناء وبحثوا عن مهن أخرى. شعبان ترك مسدسه ليعمل في مقهى والده نصيف أبو كلل في مدخل سوق العمارة. الرياضي المربوع القامة مثقال أبو كلل صار بطل العراق في ركضة الـ ٢٠٠ متر والقفز بالزانة، وأخذ في نظر الجيل الشاب بريق شيخ العشيرة عطية أبو كلل. شبان العشائر العاطلون صاروا يبحثون عن دكاكين الكسبة، ومنهم إيرانيون، ليتكاتبوا معهم في حماية العشيرة، على أن يساهم المتكاتب الجديد في دفع دية من قتلوهم بالوهم.

مكتبة الفكر الجديد

عقد السلام

سأمشي في هذا الزقاق الذي يحمل (سلام) العشائر في الدرعية

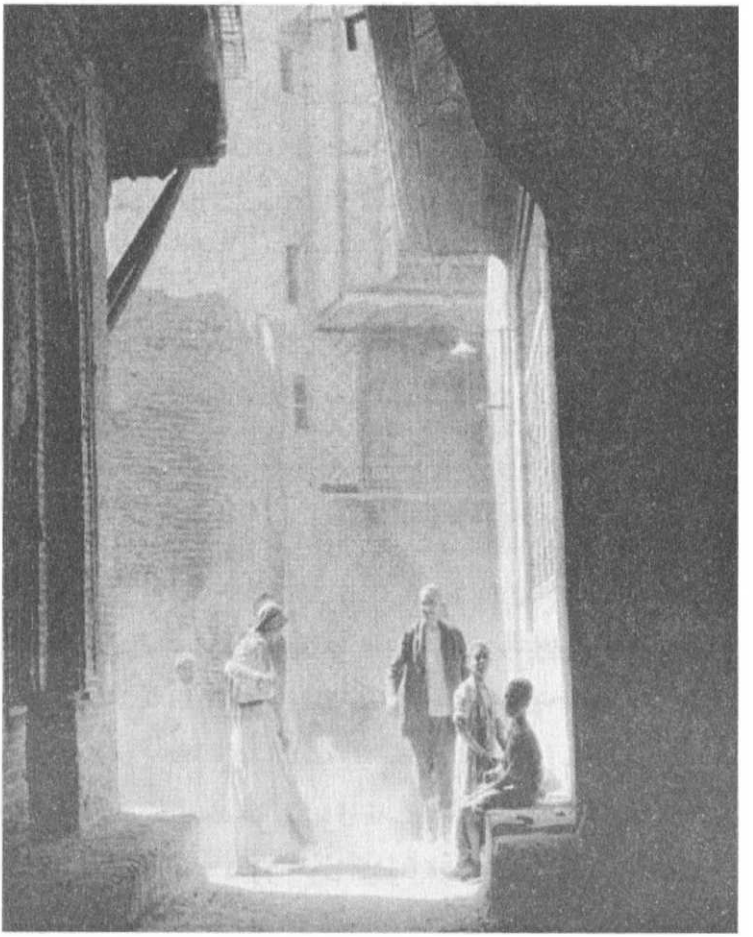

مكتبة الفكر الجديد

إلى ضريح الإمام، أمشي بخطوات وئيدة، راجعاً بالزمن إلى نهاية الخمسينات، وأختار للتجوال منتصف آب وقد خفت حدة الحرارة، وأحدد ساعة التجوال قبيل الغروب حين تكسر الجدران العالية حرارة الشمس، وتبقي الضوء رقيقاً، يدل العين على مكمن القصص والمعاني.

أرسم الزقاق على لوح ذاكرتي بيتاً بيتاً، كائناً، كائناً، وأضع الأسماء على مسمياتها ... ثم فجأة أمسحه بممحاة الحاضر.

في المنفى تحولت في هذا الزقاق مراراً بذاكرتي، وفجأة تقطعني ثلمة في الذاكرة، مكان أدرك أنه موجود، لكن تفاصيله غائمة، وكذلك اسمه. سيتطلب الأمر أياماً تستعصي عليَّ علامة أو ملمحاً مفقوداً، ويصبح الغائب أشد لجاجة من الحاضر في الذاكرة: ما هو؟ ما اسمه؟ أرمم الثلم كما الرفاء مستعيناً بذاكرة أخرى.

يسألني الآخرون:

– ما لك مشغول بهذا الماضي العتيق؟

– أشعر بأنني أعيد امتلاكه حين أحدد المكان وأسمّيه.

سأذهب للزقاق من باب القبلة كما يفعل والدي، مودعاً الأمير، ملقياً قطعة نقد لشحادة لم أر وجهها أبداً، تردد بلا توقف لازمتها:

عطايا قليلة تدفع بلايا كثيرة.

كم من السنوات قضتها في هذا الموقع بالتحديد وتحت عباءة تغطي ذلها؟ لا أعرف وجهها، لكنني أميّز كيف يتحدب ظهرها من الشيخوخة والذل.

على يميني عند مدخل السوق قاسم الحلاق، الشيوعي، الستاليني الشارب والعقيدة .. يدور حول الزبون دون أن يكف عن الحديث في السياسة الملغزة. ستتوقف حركاته الزائدة حين يراني وتزوغ عيناه عن

مكتبة الفكر الجديد

رأس الزبون وحركة الشارع خلفه، حركة تدل على قلق كامن فيه. سأحييه وأحدد معه موعداً للحلاقة.

إلى اليسار مقهى نصيف أبو كلل .. سأنحني قليلاً لأحيي الشيوخ بشواربهم الكثة وعقلهم الغليظة وأجسادهم المربوعة والمسدسات على جنبهم للحماية من ثارات ألبو عامر... في أول السوق لفتة البغدادي، النظيف، النحيل الطويل، بعقاله الرفيع، وأدبه النجفي الجم، يستطيع أن يمسك دزينة صحون بيد واحدة ذات أربعة أصابع فقط.

في نهاية السوق حسين أبو الثلج. أقف كما والدي عنده في الطريق من المدرسة للبيت ليشتري اللبن الرائب. مرة تعارك اثنان أمام دكانه فرمى أحدهما الآخر بنعاله .. طار النعال من فوق رأس المتعارك الآخر فسقط داخل اللبن. بغمضة عين التقط حسين النعال من اللبن مسحه بدشداشته في غفلة عمن حوله وأعاده للمتعارك بعد أن هدأ العراك صاح ثانية:

لبن بارد!

أنا الوحيد الذي عرف أين سقط النعال ولذلك لم أشرب لبنه فيما بعد أبداً.

بعد السوق وفي عطفة بعد جبوري الخباز يأتي بيت (علوان طار). ما من أحد جرب الطيران هرباً من ملل المدينة مثل علوان. فمه المفتوح دائماً وشفته السفلى، وقد تدلّت، لا تدل أبداً على شخصية الحالم بالطيران. لا تمر الطائرات في سماء المدينة، ولم تكن في المدينة بناية تعلو فوق المنائر، لذلك قبلنا النظر إلى مدينتنا من قاعها رافعين رؤوسنا نحو الأعلى لنرى ما فوقنا. ليس بيننا من رأى المدينة من فوق غير الله وطيوره. لم يتقبل علوان هذه البديهة، كان ينظر للحداءات دائرة فوق المقبرة. تنزلق دائرياً دون أن تتعب أجنحتها. راقبها طويلاً يريد أن

مكتبة الفكر الجديد

يعرف سر طيرانها. جرب الطيران من سطح بيتهم، جربه بجناحين من الكتان، ثم بجناحين من فير ومطاط، ثم بريش لصق على مطاط .. حرك جناحيه مستهلكاً كل طاقة يديه واقفاً على حافة السطح فوق بيتونة الفراش، شابحاً بعينيه نحو فضاء يتجاوز حدود هذه المدينة المملة، حرك جناحيه، حركهما بسرعة أكثر، ثم أكثر .. أكثر أكثر أكثر. توهم كما في الحلم أنه فارق الأرض... صحا في النهاية على أنه هنا على سطح بيتونة الفراش، وفي هذه المدينة و لم يرتفع قط فوق منائرها الذهبية.

ذات يوم جاءنا علوان مشدود اليد والساق، مائلاً من وجع كسور أضلاعه، فقد جرب الطيران بمظلتين. هذه المرة فارقت قدميه السطح الصلب لبيتونة الفراش، لكنه سقط على الخربة التي يخزن فيها جبوري الخباز حطب التنور وأنقذ بالكاد.

حين رأيناه في اليوم التالي ورأسه ويده اليمنى ملفوفان بالضمادات سألناه هل سيكف عن محاولاته؟

فأجابنا بهدوء:

المشكلة أنني لم أعرف أهمية الذيل في توازن الطير.

صرنا نلقبه (علوان طار) كناية عن طيران العقل بدلاً من طيران الجسد، و لم يعرف أحد إذا ما استمر علوان في محاولاته، أم اكتفى مثلنا بالطيران في الحلم فتجره الأرض قريباً إليها.

في أول شارع السلام من جهة سوق العمارة يقع بيت السيد حسن زيني. يتميز عن بقية البيوت بارتفاعه ثلاث درجات عن مستوى الشارع دليلاً على غنى مالكه. سأبدأ منه وأدخل البيت وجلاً لأنهم طلبوني للمثول بين يدي ساحر سيكشف للسيد من الذي سرق الخزنة في خانه. أنا وصبي آخر من بيت الخليلي جلسنا على الأرض قبالة

مكتبة الفكر الجديد

الساحر الذي يرتدي على جسمه النحيل ثوباً أبيض ويضع على رأسه طاقية بيضاء زخرفت حوافها بكلمات غير مفهومة. أمامه على الأرض طاسة نحاسية فيها ماء تطفو عليه بضع وريقات نباتية. سألنا الساحر حالما جلسنا إن كنا طاهرين. لم أفهم معنى الطهارة التي يعنيها فهمس في أذني:

هل خرج هواء من دبرك وأنت في الطريق لهذا البيت؟

نفيت فزعاً بهزة من رأسي. وضع على رأسي طاقية بيضاء تحتها وريقة مكتوب عليها رموز غامضة وسكب قليلاً من الماء على مرآة بيني وبينه ثم قال لنا:

– عما قليل سيظهر لكم ملك الجان.. سيغضب إذا كذبتما عليه و لم تكونا طاهرين في حضرته.

...–

– هل رأيته؟

... –

– هل رأيته؟ أنظر جيداً وسلم عليه!

الصبي الآخر قال إنه رآه:

– نعم، ها هو ملك الجان!

أما أنا فلم أر غير وجهي الشاحب في المرآة.

– قل له يا ميمون بن نوح؟ ياااا ميمـــون بن نـــــوح؟

لم أرَ ميمـــون بن نـــــوح، إنما وجهي في المرآة وقد ازداد شحوباً وزاد الفزع في عيني وأنا أرى وجهي «لم أره؟» رأيت عيني الساحر خلف المرآة مثل مجمرتين وفمه فاغر مثل فتحة بئر مظلمة... نظرت حولي فرأيت السيد حسن زيني جالساً إلى يساري بتوتر يحدق بي بانتظار كلماتي الآتية وخلفه بناته المذعورات ...

مكتبة الفكر الجديد

لا أدري كيف استدرجت وبدأت أتحدث عن ملثمين عبروا سطح الخان ودخلوا في الظلمة غرفة مغلقة وفتحوا الخزينة بمفاتيح يحملونها معهم... لم أرهم و لم أسمع كلمات ميمون بن نوح، مع ذلك كذبت من خوفي.

أنا والصبي الآخر تناوبنا على تبادل الرؤى عمّا لم نره أصلاً:

– نعم معه مفاتيح ...

– مفتاح كبير من حديد...

– قولوا لميمون بن نوح أن يكشف عن وجوههم!

– وجهه أسمر وله شاربان...

– نعم! عينان سوداوان!

–في الخزينة نقود...

– نعم! وذهب أيضاً ...

– هذا ما قاله ميمون بن نوح...

– هو الذي قال ذلك.. ميمـــون بن نـــــوح.

– اسأله، اسأله: يا ميمون بن نوح.. هل لك أن تسميهم واحداً واحداً؟

رأيت صاحب البيت وقد أمسك دفتراً ليسجل ما أقوله والساحر يحرك يده أمام وجهي....

– يا برقان صاحب العجائب!

آخر ما تذكرته هو أني طلبت ماءً وغبت عن الوعي.

تركت البيت بعد هذه الواقعة، و لم أدخله بعد ذلك، و لم أقف عند عتباته العالية. والدتي لم تزر صديقاتها فيه بعد ما فعلوه بابنها الذي عاد إلى البيت مخطوف الوجه والعقل.

مكتبة الفكر الجديد

إذا تركت ورائي ذاك البيت، بما فيه من ملوك الجن وميمون بن نوح وبرقان وأهل البيت المشدوهين، سأبدأ بعيادة (مرزا جميل) على يساري. في داخل البيت وفي غرفة الضيوف على يسار المدخل جلس المرزا، بعمامته ونظارته، عطوفاً على مرضاه الذين لا يؤمنون بالأطباء. يذهب لمرضاه على ظهر أتانه حين يعجزون عن الوصول إليه. من ممارساته الطويلة وقراءاته عرف مراجعيه وأمراضهم المزمنة والعارضة واستخدم البنسلين بدل الأدعية في علاجهم. لا يدّعي ميرزا جميل المعجزات ولا السحر، فمن عادته أن يحيل المريض إلى اختصاصيين في بغداد إن تعذر عليه تشخيص المرض، وفي أحيان أخرى يحيل المريض إلى رحمة ربه. وقد جمع (المرزا) بين إيمانين متناقضين، إيمانه بتقدم الطب وبما يحققه من معجزات، مع إيمانه العميق بالقدر ولسان حاله يردد بيتاً لابن الرومي:

والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة الأقدار

كنت أرى مريضاً شاحباً ممدداً عند دكة البيت يحمله أهله بنحيب مخنوق إلى الحضرة العلوية طلباً لشفاعة أخيرة قبل أن يلاقي حتفه. قبل قليل أشاح المرزا بوجهه عنه وعن مرافقيه معلناً بكلمات مخنوقة يأسه من شفائه.

مع الجمع بين العلم والقدر جمع المرزا بين إحساسه بمصائب من يعالجهم وروح النكتة. هربت أتانة منه لتدخل واحدة من المدارس الدينية لتشرب الماء من حوض الوضوء. جاء راعي المدرسة الدينية إلى المرزا ليشكوه أتانه، فيجيبه المرزا بمزاجه الساخر الهادئ:

لقد أعجزتني هذه الأتان .. بذلت المستحيل لأعلمها الطب، لكنها تصرّ على الدراسة في مدرستكم.

حين أستعيد وجه مرزا جميل لا يصلني مزاجه الساخر، إنما قامة

مكتبة الفكر الجديد

منحنية يكللها وجه حزين يعكس خيبة العلم أمام آلام الإنسان.

قبيل وفاته تخرّج ابنه خليل جميل، وصار طبيب الفقراء في المدينة وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ومرشحاً عن الحزب في انتخابات ١٩٥٤، لكنه سجن قبل أن يفوز.

بعد عيادة المرزا باب حديدي تعلوه كتابة بالقاشاني الأزرق (مقبرة الجزائري). في السرداب الواقع تحت الباحة دفن أجدادي الثلاثة (عبد الكريم، محمد جواد وعبد اللطيف) وزوجاتهم. مع جثمان جدتي شريعة دخلت وراء الدفان من خلال كسرة في الجدار. ليس للموت غير رائحة سرداب مهجور ووخمة ثقيلة. لأول وهلة دوختني أرواحهم اللائبة من ضيق المكان وطول الزمن. أيقظها من غفوتها الطويلة خيط موجع من الضوء تسرب عبر كسرة في الجدار وداهم عريهم. حين اعتادت عيني ظلمة القبر، رأيت على الضوء المربك هياكل أجدادي وقد تمددوا على الأرض جنب بعضهم. آنذاك أدركت إلى أي مدى انحنت قاماتهم قبل أن يموتوا. هياكلهم مكشوفة وقد تقابلت وجوههم كأن كل واحد يروي للآخر خاتمة حكاية الحياة. ما استطعت، وأنا أراهم بهذا الوضوح، أن أتخيل أرواحهم تطوف في الجنة. الموت كان عضوياً لا يقبل النقض أو التوهم، فقد جفّ ماء الحياة الذي يكون ٨٠ في المئة من جسد الإنسان و لم تبق منهم غير كومة من عظام. الجمجمة هي الشيء الوحيد الذي يعطي لبقايا الجسد بقايا معنى.

بعد المقبرة تتفرع من (الشارع) أزقة ودهاليز لا تتسع لأكثر من عابر واحد، فإذا تصادف اثنان سيلتصق أحدهما بالجدار ليمر الأكبر عمراً أو الأعلى منزلة. لو تتبعنا أثان المرزا سنمرّ بالدهليز النازل تحت الأرض والذي يضم عشر عوائل من آل الحكيم. يختنق أولادهم من ضيق البيوت وفقرها فيخرجون ليقفوا عند مدخل الدهليز. بعضهم صار شيوعياً في الخمسينات كما هو الأمر مع الكثير من أبناء العوائل

مكتبة الفكر الجديد

الدينية في النجف. وأنا أكتب الآن أستعيد وقفتهم عند مدخل الزقاق مثل حزمة من أعمار مختلفة يوحدهم الفقر. يخيل لي من وقفتهم كما لو كانوا ينتظرون خبراً فاجعاً سيأتيهم من جنوب المدينة أو غربها.. يتطلعون بفضول إلى القادمين من السوق أو الذاهبين إلى الصحن. أشكالهم متشابهة كإخوة وأولاد عم .. قامات متوسطة وصدور مربوعة فوقها رؤوس مدورة يعلوها شعر قصير وتتوسطها عيون نشيطة شديدة الفضول. أرى الآن هذه الحزمة تقطع الزقاق، ولا أتصور وأنا أكتب بأن معظم أصدقائي من آل الحكيم أُعدموا في عهد البعث.

مكتبة الفكر الجديد

الشيـــــــــــخان

قبل أن تختفي صورة هيكله العظمي سأصل الدهليز المؤدي إلى بيت جدي الشيخ محمد جواد بن الشيخ علي بن الشيخ كاظم بن الشيخ جعفر بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد المتوفي سنة ١١٥١ هجرية صاحب (آيات الأحكام) ابن الشيخ إسماعيل الأسدي الجزائري ... نادراً ما يدخل الشيخ محمد جواد بيته من بابه الأمامي. فقد اعتاد بعد دروس النحو والفقه في مدرسته الأحمدية أن يمر من (شارع الجزائري) ويدخل من باب بيت شقيقه عبد الكريم ماراً بالبراني. لديه دائماً فكرة تعذّبه تأخذ شكل احتجاج عصبي. سيستفز

عبد الكريم

محمد جواد

مكتبة الفكر الجديد

هدوء شقيقه بإلقاء الفكرة في أقصى تطرفها وينتظر منه جواباً. أجاب شقيقه أو اكتفى بالصمت سينتهي الحديث غالباً بالشجار:

– سيهجرك طلابك إذا حاسبتهم حساب ابن هشام وتضلعه في النحو.

– كيف سيشرحون كتاب الله إذا لم يعرفوا نطق القاف وهو أول حرف فيه؟

في البراني يجلس الشيخ عبد الكريم طوال يومه متربعاً على بساط يستقبل مستخيريه ومستشيريه من مواطنين جاءوا يطلبون فتواه، شيوخ عشائر يطلبون وساطته في منازعاتهم، سياسيون يريدون مشورته أو تأييده. يسمع الشيخ وكأنه نائم على صوت محدثه. حريص على تدقيق الكلمات وما يختفي خلفها من معان. بينه وبين محدثيه محمل خشبي فوقه صندوق من الخشب المغلف بالقطيفة الخضراء. في داخل الصندوق نسخة من القرآن حكماً بينه وبين محدثيه وشاهداً على ما يقوله ومرجعاً لضميره. لا يحتاج الشيخ لأن يضع يديه ويقسم حين يعطي وعداً، فقد حفظ كلمات الكتاب عن ظهر قلب وصار جزءاً من ضميره ومرجعاً لما يقوله في نهاية الحديث. بإيجاز وبعد فترة تروٍّ يختار كلماته، والكلمات عليه ثقيلة حادة الحواف، لذلك يختارها بعناية ويحيطها بأطر من الآيات والأحاديث النبوية والمعاني التي تفوقها، وهو دارٍ بأن كلماته ستتحول إلى أفعال.

علاقات الشيخ تتجه عمودياً إلى الله، وهو حكم كامن في ضميره ، لذلك لا يحتاج لأن يرفع رأسه إلى الأعلى نحو السماء، وعلاقاته أفقية مع محدثيه الذين يتوافدون على ديوانه تاركين أحذيتهم عند الباب، وعليهم حين يختلون به أن يتربعوا أمامه ويحنوا قاماتهم لكي يسمعوه كلماتهم ويعيدوها بتدقيق أكثر ويقتربوا كثيراً من أذنيه ثم تتقاطع أنفاسهم في الصمت الذي يسبق إجابته.

مكتبة الفكر الجديد

– باب المغفرة واسع ولا يظلم الله عبده.

– كما تكونوا يولّى عليكم.

كنت أدخل الديوان برفقة والدي فيسألني وهو ممسك بأذني بنوع من المداعبة والابتسامة المثقلة بالتسامح:

أتصلي، أم على سر أبيك؟

واستغرب حين أسمع والدي يبدل لهجته ليتحدث العربية الفصحى بحضوره كما لو أنه يرتدي عمامة من كلمات.

وحين أدخل مع حفيده علي، نكتم أصواتنا ووقع خطواتنا احتراماً لمجلسه. ودائماً كنت أشم رائحة هي مزيج من الخشب والبسط القديمة، أي رائحة الزمن. وأتنفس براحة حين أغادر البيت لرحابة وتلقائية الزقاق.

كلما كبر والدي وكبرت معه، زاد تفاخراً به في أحاديثه. في داخل البيت كنا نسمع صوت والدي وهو يحدث ضيوفه، ثم يرتفع صوته مع نبرة حماس صاعدة حين يصل تلك الجمل الثابتة من الحديث:

تقول المس بيل عن الشيخ في مذكراتها ...

آنذاك نفتح، ونحن داخل البيت، دولاب والدي لنجهّز له صورتين مؤطرتين، واحدة تحتوي على المذكرة التي وقعها علماء وتجار ووجهاء يوكلون الشيخ عبد الكريم واحداً من أربعة قادة لثورتهم، وفي الثانية انزعاج المس بيل من تصلب الشيخ عبد الكريم في المفاوضات. يلتقط والدي الصورتين من أيدينا على عجل ودون أن يلتفت لنا شاكراً يعود لضيوفه ليقرأ ما قالته المس بيل:

كادت الثورة أن تفشل لولا تصلّب الشيخ عبد الكريم الجزائري...

تآلف الشيخان مع إحساس دفين ودائم بالضيم لأن «الأمة

مكتبة الفكر الجديد

الإسلامية» التي ترسّخت صور عظمتها الأولى في أعماق مخيلتهم ما انفكّت تتراجع بلا توقف. عصر الفتوحات الأولى التي وصلت حدود أوروبا والصين انقلبت لأن هذه الأمة صارت تنحسر وتغزى من كل صوب. ففي عصرهما زحف الروس على بعض حدود إيران، واحتل الإيطاليون طرابلس الغرب، وانحسر الإسلام في حروب البلقان ومقدونيا وخاتمتها الحرب العالمية الأولى حيث تقاسم (الغرب الكافر) العالم الإسلامي غنيمة سهلة. حين يسأل الشيخان أو يسألان نفسيهما عن أسباب الانحسار هذا سيكون جوابهما قاطعاً وقصيراً:

الإيمان.

«نحن نعيش إسلاماً بلا مسلمين» هكذا يقول لسان حالهما وأمامهما صور المسلمين الذين حملوا السيف والقرآن أينما ذهبوا. عبد الكريم يرى أن الله أعطى للإنسان الغرائز والعقل. لكن غرائز الإنسان الدنيوية غلابة لإن المسلم ابن بيئته بمقدار ما هو ابن الله. يتطلب فهمه هذا التسامح والصبر. ولذلك يلوم شقيقه النافر:

أنت تطالب الناس بالاستقامة في عالم كل ما فيه أعوج!

يعرف الشيخان أن الفقه ليس سماوياً كما هو القرآن، ولذلك لم ينقطعا عن خلافات عصرهما، وبالتحديد في علاقة الدين بالدولة. فقد تفتحا على الثورتين الدستوريتين في إيران ١٩٠٦ وتركيا ١٩٠٨ وعاشا ذلك الصراع بين المشروطة والمستبدة. الثورات الدستورية فتحت عيونهما على حقوق الشعب الأرضية عند الحكومات إلى جانب حقوقه عند الله، وأولها حقه في أن تكون لهم ذات قومية عربية داخل الاتحاد الإسلامي. هذه الذات القومية تبلورت وسط شعور بالضيم لكون إخوة الدين في الأستانة يعاملونهم كولاية عثمانية تابعة.

النجف كانت حاضنة اللغة العربية في تخاطبها وفي مدارسها الدينية

مكتبة الفكر الجديد

في وقت شمل التتريك كل شؤون الحياة في بغداد: التعليم، تخاطبات الدولة، لغة الدواوين، والحكام العسكريين والمدنيين.

الدين في وعيهما قابل للجدل والإصلاح حسب العصور. ولذلك التقيا مع دعوات الإصلاح الديني لجمال الدين الأفغاني (١٨٤٩-١٨٩٧) الذي لجأ إلى النجف، في منزل السيد محمد سعيد الحبوبي، هارباً من إيران، وخاض جدالات طويلة مع رجال الدين النجفيين ومنهم عبد الكريم، وكانت له مراسلاته معهم. إيمانهما بالثورة الحسينية ضد الطغيان الأموي التقى مع تحذيرات محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) من تحول الدين إلى وسيلة لدعم الطغيان وتحول رجال الدين إلى وعّاظ السلاطين. لكن فكرة المساواة التي أتت بها الثورتان الدستوريتان اصطدمتا بوعي المحافظين والعامة. فالمساواة عنت للسادة مساواتهم مع العوام، ولكبار الملّاك مع (عبيدهم) الفلاحين، ولأهل البلد مع الوافدين، وبين المسلمين وأهل الذمة من الأديان الأخرى، والأهم بين الرجال و(حريمهم). وكما هو الأمر دائماً يلجأ عبد الكريم إلى التقية حين يصطدم بهياج العامة درءاً للفتنة، بينما يذهب محمد جواد في اعتقاده حد الصدام.

هويتهما كعراقيين اقترنت بإحساس دائم بالضيم:

- كونهم جزءاً من إمبراطورية عربية نشرت الإسلام في العالم ثم تداعت فصارت محتلة ممن احتلتهم سابقاً.

- هويتهم العربية مغموطة ومحتقرة من قبل المحتلين العثمانيين الذين يرفضون حقوقهم القومية ويعجزون عن الدفاع عنهم.

- فقهاء كانوا أو شعراء، عوملوا كمثقفين من الدرجة الثانية في محيطهم العربي ومن المراجع الإيرانيين.

- وفي مدينتهم وبين المراجع الأخرى كانوا الأكثر فقراً بيما تتدفق الأموال بلا حساب على مراجع أقل شأناً وغرباء عن البلد.

مكتبة الفكر الجديد

يراكمان هذا الضيم ويستمرئانه بمزيد من المكابدة ويدمدمان خلال الأحاديث القصيرة أو يتبادلان الغضب. وتنضح قصائدهما قبل نفوسهما بهذا الضيم.

هذي حياة الكون كل ضروبها
نكد وكل صروفها آلام[٢]

تقاسم الأخوان المهام بينهما دون أن يتفقا، محمد جواد أخذ على عاتقه تدريس النحو والفقه في المدرسة الأحمدية. طلابه يرتجفون عندما يدخل حلقة الدرس خوفاً من خطأ نحوي، فالخطأ في اللغة العربية، وهي لغة القرآن، يقترب عنده من الكفر. مع ذلك يفاخر طلابه عند التخرج:

تريد أن تجادلني في النحو؟! أنا خريج مدرسة الجزائري.

آنذاك يتوقف الآخر عن الجدل.

على خلاف أقرانه من المراجع العرفانيين الفارسيين، كان عبد الكريم أقرب للأرض منه للسماء. مشغولاً بأحداث عصره السياسية، ولذلك كان مجلسه مصدراً للأخبار السياسية. كثيراً ما ينقطع الزقاق الضيق المؤدي إلى مجلسه بحراس مسلحين لأن شخصيات الدولة أو المعارضة تزورة للاستشارة أو طلباً للدعم. وكان ياسين الهاشمي يستشيره في كل صغيرة وكبيرة. ويسمع منه نفس النصائح:

– الاستقلال ثم الاستقلال ثم الاستقلال!

---

(٢) ديوان الجزائري ص٤٣.

مكتبة الفكر الجديد

– تحديد صلاحيات المستشارين الإنكليز!

قبل أن يتخذ موقفاً أو يصدر فتوى لا يستخير عبد الكريم ربه بمسبحته ولا يرجع إلى كتب الفقه القديمة في الطابق العلوي، ولا يدعي الأعلمية لنفسه، إنما يحاور من حوله من العلماء ومقلديه من شيوخ العشائر والسياسيين وينضج الموقف عنده من خلال الحوار الأرضي.

–لا أفتي في الجهاد ما لم أعلم رأي من أفتيهم.

وأصعب المحاورين عليه هو شقيقه محمد جواد، لذلك يتأنى كثيراً وينحت كلماته بمشقة قبل أن يطرح الرأي عليه.

لا يختلف الأخوانِ في المواقف السياسية وفي الإيمان الديني، فكلاهما شارك في الثورة ضد الإنكليز بفعالية، و لم ينقطعا عن التعبّد وتدريس علوم الدين. الخلاف بينهما هو الفرق بين النار والماء، وقد ترك الاثنان بعضاً من تناقضهما في مزاجنا نحن الأحفاد.

قامة نحيلة مستقيمة لا انحناء فيها. حدة في الموقف والمزاج يعكسهما وجه لا أثر لابتسامة فيه وعينان جاحظتان فيهما مزيج من

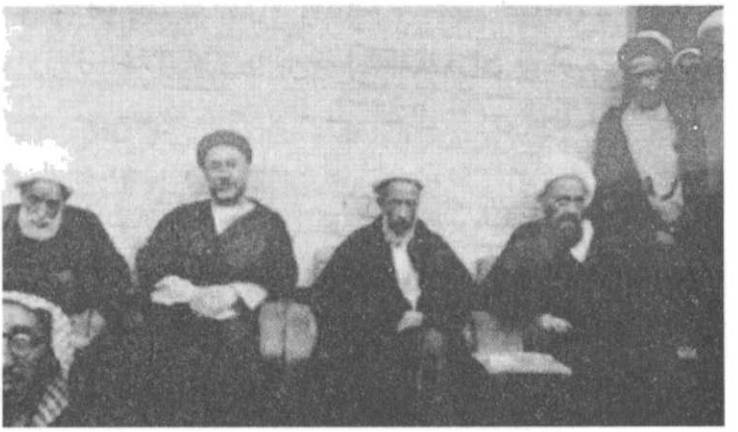

محمد جواد وكاشف الغطاء ورجال دين ووجهاء في اجتماع سياسي في الخمسينات

مكتبة الفكر الجديد

الفزع والغضب. هذه هي النار بين الأخوين. لم يكتف الشيخ محمد جواد بفتاوى الجهاد إنما أراد أن يكون أول جنود الثورة ضد الإنكليز، وربما أول شهدائها. الزمن كان عدوه حتى داخل (جمعية النهضة)، فلم يطق الانتظار حتى تتوسع الدعوة وتنضج الظروف كما يصبّره شقيقه. فكرته هي أن الفعل بذاته ينضج الدعوة والظروف، بينما يستهلك الانتظار إرادة الثوار ويرجّح كفة المساومين فتتحول الرصاصة إلى وردة. لذلك لم ينتظر موافقة الجميع، إنما راح يصنع القنابل في مكتبته فانفجرت الأولى فيه وبترت أصابع يده اليمنى وطشت الدم على أوراق كتبه. ومع مجموعة تشاركه حماسته وجزعه غافلوا الجميع وهاجموا مركز البريطانيين .. ومن هنا بدأ حصار النجف وتعليق جثث الثوار.

حين أخفقت البنادق أمام المدرعات، وحوصرت المدينة أرسل الإنكليز (العدو العنيد) مع ٢٥ كيلوغراماً من السلاسل في يديه ورجليه في رحلة عذاب شمالاً إلى سجون بغداد ومنها سجن (أم العظام)، ثم جنوباً في قعر سفينة حربية إنكليزية إلى سجن الشعيبة ... جنوب الجنوب إلى البصرة في الطريق لإعدامه في جزيرة هنغام بالهند. قبل إعدامه نظّم له الضباط الإنكليز برنامجهم التقليدي من التعذيب والإذلال. خلال خروجه من قاع السفينة مرتين في اليوم يمررونه بين صفين من جنودهم، يضربونه على التوالي .. من اليمين، من اليسار، من اليمين، من .... ويدفعونه إلى الجانبين ويسمعونه أقسى الكلمات ليهينوا الإنسان فيه ويكسروا كبرياءه ويحولوه إلى شيء يتدحرج. في طريقه إلى الإعدام كان يكتب الشعر في ذاكرته ويهمسه لنفسه شاكياً عذابه إلى الله:

خطب ألمّ بموقفي صعب

يربو عليه الهم والكرب

مكتبة الفكر الجديد

خطب يطير له العدا فرحاً
ويغص في أشجانه الصحب

في المحمرة أنقذه أميرها الشيخ خزعل مخبراً أصدقاءه الإنكليز:
هذا أمانتي!
وأنزله من السفينة بينما علقت جثث بقية أعضاء الخلية في خان الشيلان.

بعد عامين عاد محمد جواد من رحلة العذاب ومن منفاه بخطوات قصيرة ومتعثرة كأنه ما زال يجر ٢٥ كيلو غراماً من الحديد. ومع آثار الحديد في رجليه يجرّ فشل ثورة العشرين والمساومات التي تلتها. حين دخل البصرة سمع النقاشات حول الحكومة المنوي تشكيلها حسب وعود الإنكليز، وعرف عن الوفود إلى بغداد لمفاوضة الإنكليز فكتب:

«حول عرش العراق قد كثر القيل والقال وتاهت خواطر وعقول».

أقرأُ الآن ديوان محمد جواد وأحاولُ من خلال قصائده ومن سحنة وجهه أن أصلَ إلى تلك الغصة الدائمة التي تنغّص حياة الثائر وهو يرى الثورة وقد تحولت إلى سياسة ومساومات. لم يسأله أحد حين عاد عمّا حدث له، و لم يتنازل هو لرواية قصة عذابه لأناس لا يملكون شغف الاستماع، انشغلوا عنه بالمساومات من أجل تأسيس الدولة العراقية ومجلسها التأسيسي. هذه الفجوة بينه وبين الآخرين زادته حدة وثباتاً في معتقده، ورأى، عكس أخيه، أن «للحق وجهاً واحداً» لا يقبل التأويل والتنويع والمساومة. لم يتقبل الأمر الواقع لأنه يراه مزيجاً من التآمر والخديعة، وأن الخديعة لمسه شخصياً وتستخف بعذاباته، فازداد عزلة روحية عمن حوله، بما في ذلك شقيقه.

مكتبة الفكر الجديد

رفض الشيخ محمد جواد الاعتراف بتكوين الدولة العراقية وحرم العمل فيها والترشيح لبرلمانها لأن ملكها مستورد من الحجاز وهي مستعبدة للكفار بوجود المستشارين الإنكليز الذين يسيرون الحكومة من الخلف.

على عكسه رأى شقيقه الشيخ عبد الكريم أن الجزع وحده لا يصنع الثورة، إنما إرادة جماعية. وعلى خلاف شقيقه العجول رأى أن إعلان الثورة على الإنكليز هي سلسلة تدرجات تبدأ من المفاوضات مروراً بالمذكرات ثم الاعتصامات وجعل السلاح في آخر الحلول كشرّ لا بد منه. في كل خطوة حرص على استطلاع آراء الآخرين فرادى أو في مؤتمرات قبل أن يتخذ قراره. حزّ في نفسه أن مقلده الشيخ خزعل بقي ساكناً حين اجتاحت القوات الإنكليزية مدينة البصرة «ليست لدينا القدرة على مواجهة الإنكليز».. هكذا رد على رسالته. لاحقاً، حين طلب الصلح رد عليه عبد الكريم «لقد فرّق بيننا الإسلام».

وحين هاجت القبائل الجنوبية على الشيخ خزعل، ومنها عشيرته (بني كعب) أرسل رسالة عتاب للشيخ عبد الكريم تنتهي بهوسة «هيجها عليه صبي عيني». أي أن أعزّ الناس عليّ هيج الناس ضدي.

يستعيذ الشيخ عبد الكريم بربه عشر مرات قبل أن يقدم على خطوة تكلف الموت. أمام عينيه صور العراقيين الذين قتلوا في (سفربرلك) بلا رحمة دفاعاً عن (الإسلام) العثماني وأمامه النهاية التراجيدية لحصار الإنكليز للنجف عام ١٩١٨.. بسبب هذا المزيج الصعب بين رقة الإحساس وصلابة الموقف اختارته العشائر بين الأربعة الذين قادوا الثورة واختارته (المفاوض الصعب) الناطق باسمهم أمام المحتل.

وعلى خلاف مجايليه رأى عبد الكريم أن الصراع على قيادة الدولة «ليس طائفياً» إنما هو «صراع من أجل البقاء»، وأن الشيعة، رغم تحريم

مكتبة الفكر الجديد

مراجعهم، لم يدعوا طريقاً لم يلجأوا إليه لاختطاف الوظائف من أيدي أصحابها:

«يدخلون عليهم من الأبواب والشبابيك ومن ثقوب الحيطان».

رأى عبد الكريم أن وجود المستشارين الإنكليز مقبول بالنسبة لدولة

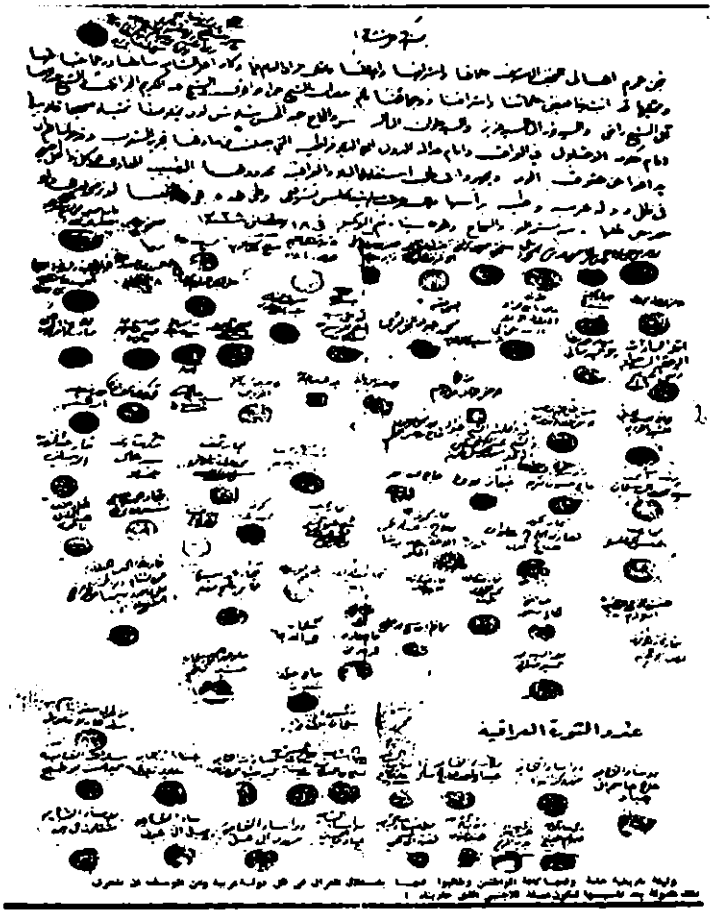

شيوخ عشائر ووجهاء وتجار وقعوا هذه الوثيقة المطابة باستقلال العراق وشكلوا قيادة منها عبد الكريم الجزائري.

مكتبة الفكر الجديد

في طور التكوين، لكن المهم تحديد صلاحياتهم كمستشارين وليس حكاماً[٣].

حين يستعد الشيخ عبد الكريم لخوض مفاوضات مع رجال الدولة الذين يأتون إليه للمشورة والالتماس يتحايل على شقيقه الحاد الطبع بإرساله إلى كربلاء ليتجنب مقاطعاته وصياحه.

في المرات النادرة التي يدخل محمد جواد فيها البيت من دهليزه الأمامي، أراه قادماً من جامع الجزائري بقامته النحيلة، الطويلة المستقيمة، يتلفت حوله باحثاً عن أبواب بيوت مفتوحة ليطرقها بعكازته، شاتماً أهلها لأنهم يتركون الأبواب مفتوحة لعيون الغرباء، باحثاً عن أخطاء الآخرين، وحين لا ينفع الزجر يستخدم عكازته. ألتصق بالحائط حين يمرّ أو أختفي في زقاق فرعي خائفاً من صراخه وعكازته إذا رآني حافياً في الزقاق بدل أن أكون مع المصلين في الجامع.

أتتبّع خطاه وهو يفتح الباب الخشبي طارقاً حجرات الدهليز بعصاه ثم يفتح الباب الداخلي:

يا الله! دستور!

يدخل باحة البيت مبرراً عن خطأ لم يحدث بعد. لن يلتفت يميناً وهو يقطع باحة الدار لأنه يكاد يرى بناته الثلاثة وقد تلفعن عباءاتهن السود وتلملمن في كتلة سوداء صامتة في حضوره.

جاء الغضب!

.. هكذا يقول لسان حالهن. حتى لو نظر الشيخ وهو يصعد الدرجات إلى غرفته، لن يميز بين الصغرى (نجاة) والكبرى (ملوك) لأنه لم ير وجوههن منذ زمن.

---

(٣) القاص والصحفي جعفر الخليلي حضر هذه المحاورة ونقلها في الجزء الأول من كتابه (هكذا عرفتهم) ص٣٦٨-٣٨٠.

مكتبة الفكر الجديد

مثل العديد من أبناء جيله من المجتهدين درس محمد جواد الفلسفة والمنطق في النطاق المحدود والممكن في مدينته. قرأ من أفلاطون وأرسطو ما يناقض إيمانه، وتعمّق في النحو وحرص على أن يدرس هذه العلوم لتلاميذه، ومنهم الشهيد محمد باقر الصدر ومهدي الحكيم، لكنه اعتبر الإيمان أسمى فضائل الإنسان، يفوق العقل ويتفوق به. يراوده الشك أحياناً وهو يقرأ، لكنه لا يقاوم الشك بالتعبد وحده، إنما يذهب ما وراء التعبّد نحو الدين كأفق. لم يكن الشيطان في خياله كائناً آخر، إنما هو داخل الإنسان، يسكنه ويغويه، ولا تمكن هزيمته وطرده مرة واحدة، لأنه هلامي ورجراج، كامن في روح الإنسان، يقاومه المؤمن بالمكابدة المستمرة مع النفس حدّ العذاب .. من هنا تأتي قسوة محمد جواد مع نفسه ومع الآخرين كما يقدّر شقيقه. وترينا مساجلته الشعرية مع إيليا أبو ماضي هذا الإيمان الذي يسبق الحيرة ويغالبها. فقد كان عنوان قصيدة أبو ماضي (لست أدري) وردّ محمد جواد عليها (أنا أدري). في قصيدته يعبر الشاعر المهجري عن حيرته في حقيقة الوجود:

أجديد أم قديم
أنا في هذا الوجود
هل أنا حرّ طليق
أم أسير في القيود
هل أنا قائد نفسي
في حياتي أم مقود
أتمنى انني أدري
ولكن لست أدري

يقرأ محمد جواد قصيدة أبو ماضي وهو منكب عليها في غرفة شحيحة الضوء وعلى فراش بسط على الأرض ثم يسحب نفساً من الحيرة ويرد:

مكتبة الفكر الجديد

أنا في جوهري الفقر
إليه وهو حسبي
أنا في الكون ولكن
أنا سارٍ وهو دربي
وكلانا فيضه والفيض فضل
أنا أدري
أنا من حيث أتيت
جئت محدود الوجود
بحدود أنتجت أشكالها
نظم الحدود
فأنا الممكن والمحتاج
والكون الجديد
كيف جئت الكون
محدوداً وجودي.. أنا أدري

على قلة شعره وانقطاعه التالي للدين والفقه كان الأخ الكبير في شعره أرقّ وأقرب للأرض من أخيه. أكاد أنكر صورة الشيخ المعمم الجالس على الأرض في ديوانه ويده النحيلة على القرآن أمامه، أكاد أنكره وأنا أقرأ غزلياته وخمرياته الرقيقه:

قم للسلافة واتل آية الطرب ورصّع الكأس في درّ من الحبب
وانثر على الأرض درّاً من حباحبها ممزوجة بلعاب الثغر والحبب
وارغد بعيشك ما دامت لذاذته مقرونة بفنون اللهو واللعب
راح إذا شبها الساقي وشعشعها تكاد تحرق كفيه من اللهب
لله ساقٍ سقى في كأس وجنته سلافة عتقت من سالف الحقب
لا تسقني من سوى جريال ريقته (ففي الحمية معنى ليس في العنب)

مكتبة الفكر الجديد

الجزائريـــــــــون

بعد بيت محمد جواد تتوزع بيوت أقاربنا بفروعهم الثلاثة: الأسدي والجزائري واللواني. كثير من التحاسد والقدح والذم، كثير من اللوم والعتاب وشعور دائم بالضيم لأننا دون كل العوائل الدينية الأخرى بقينا فقراء.. نتنازع ما ورثناه من آبائنا، ونتنازع حصصنا من العشائر التي تقلدنا مثل الإخوة الأعداء، ولكن يجمعنا الموت وطقوسه في الجامع وتجمعنا المصائب حين تصيبنا نائبة.

أرى خالي علياً في موقفين متعارضين لا يجمعهما جامع، ولكن يسوّغ الموت تعارضهما. أراه كما في كل يوم بقامته الطويلة وعقاله المائل إلى اليمين يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً وترمش عيناه بتواتر مع زيادة حدته وهو يشكو لأمي دون أن ينظر في وجهها، سعي شقيقه حسن للاستحواذ على أكبر حصة من إرث والده. والتأليب ضد الخصوم أو الحط من شأنهم حرفة بخفية بامتياز، وكلمة (يقال) تستخدم لإحالة العهدة على راوٍ مجهول لتحييد المتكلم باعتباره مجرد ناقل غير مسؤول عمّا يقال عن خصمه.

أرى خالي علياً مرة ثانية وهو يبكي بحرقة في فاتحة شقيقه حسن، وأحتار في معرفة الخالين: أيهما الشاكي وأيهما المشتكى عليه؟

ينتسب الجزائريون إلى قبيلة بني أسد التي دفنت جسد الحسين وافتقدت رأسه. جدهم أسد بن خزيمة جاء من شمال الحجاز. اثنان من أجدادنا هما مسلم بن عوسجة وحبيب ابن مظاهر قتلا مع الحسين في

مكتبة الفكر الجديد

كربلاء. سميه وواحد من أحفاده (حبيب ظاهر الاسدي) كان يعمل سائق سيارة نقل بين النجف وكربلاء. لم يكن حبيب حزبياً و لم يرد أن يكون مجاهداً ولا شهيداً في سبيل عقيدة، لكن مروءته لم تتقبل أن يترك جاره السيد محمد باقر الصدر تحت حصار مشدد. كان يتسوق له وينقل له الطعام دون تردّد. بسبب كسره الحصار أعدمه البعث عام ١٩٨٢ قبل إعدام السيد الصدر.

هاجر أجدادنا من الحجاز ليستقروا جنوب الفرات في النهاية الشرقية من هور الحمار. عاشوا بين القصب في (الجزاير). جنة الأهوار أنستهم رحابة الصحراء التي جاءوا منها. مثل سكان الهور صاروا صيادي سمك أو مزارعين أو مربي جاموس. جدنا أحمد كان أول المهاجرين في عائلتنا وأول من قرأ كتاباً، ثم أول من ألف كتاباً اقترن باسمه (آيات الأحكام). هو الذي فصّح اسم عائلتنا بإحلال الهمزة محل الياء. تأثراً به هاجر جيل من شبان العشيرة وقد مستهم رغبة الهجرة والمعرفة. حين وصل الجزائريون إلى النجف حملوا معهم عصبيتهم القبلية فاختاروا نهج جدهم بعد أن لبسوا عمامته وصلوا الجماعة خلفه في الصحن.

كانت المدينة حين دخلوها موبوءة بالطاعون بحيث لا يلحق الدفانون سيل الموتى. مثل كل الغرباء في مدينة غريبة صلى الجزائريون الأوائل الجماعة معاً رغم التحذيرات من انتقال العدوى. كانوا قدريين يؤمنون بأن لكل واحد قدره وساعته ولا فائدة من مراوغة القدر إذا حانت الساعة. حين بدأ السعال الخانق وحالات القيء تقاطع صلاتهم زادوا استعاذتهم بالله. مع ذلك لم يقاوموا الضعف والدوار الذي اعتراهم. صارت أيديهم ترتجف حين يرفعونها للدعاء وغامت الدنيا عليهم واضطربت مخيلتهم من الكوابيس. سقط اثنان منهم. تلاهما خمسة... خلال أيام مات خمسون من مجموع الستين جزائرياً. أحد القلة من الناجين (محمد صالح)، على فقره، صار المعيل الوحيد لعوائلهم وأيتامهم. من الناجين واليتامى ولدت الأجيال التالية من الجزائريين.

مكتبة الفكر الجديد

ينقسم الناجون من أقاربنا إلى ثلاث مجموعات:

رجال الدين الصغار (الموامنة)

الأفندية من موظفي الحكومة

والشغيلة الأكثر تمسكاً بالعشائرية.

والنجف هي الثلاثة، حائرة بين معمميها وهم يجرونها إلى خصوصيتها المغلقة كمدينة دين، وبين امتدادها القبلي وما يتطلبه من الشجاعة والقوة والثارات، وبين الأفندية الذين يجرونها خارج الخاصتين نحو حداثة بغداد.

إلى مضايف «موامنتنا» يأتي كل عام (بني سلامة) للزيارة في النجف ويقيمون أياماً طويلة. رأيتهم أبسط وأكثر تواضعاً من أولئك الذين هزموا خصوماً أقوياء تخافهم كل القبائل.. ينامون على فرش خشنة حيكت من صوف العنوز، وفي المساء يخرجون للتسامر على السطح

خالي علي الصيد بالمقلوب

مكتبة الفكر الجديد

البيت حول دلال القهوة حيث تبدو مناثر الأمير قريبة كما المراد. هناك يتبادلون القصص والحداء بين فناجين القهوة المرة. ذات يوم انحنى عليّ أحد كهولهم وسألني هامساً:

–هل رأيت والدك وأمك في الفراش؟

حتى هذا اليوم، وأنا أعيد السؤال، لم أعرف لم طرح ذاك السؤال على طفل لم يتجاوز العاشرة!

على فقرهم اعتبر أجدادي، مثل معظم النجفيين، الفقر عورة يجب أن تخفى عن الآخرين. يستدينون من المرابين ويرهنون ذهب زوجاتهم، بل وحتى بعض أثاث بيوتهم ليوفروا المال للولائم. يستعيرون الصحون من معارفهم لكي يبدو حالهم ميسوراً، ولا يهم أن يقتروا من طعامهم ليبذخوا على ضيوفهم. يستعيرون منا المروحة الكهربائية في عز الحر لأن عندهم ضيوفاً ويوصونني مؤكدين «لا تقل أمام الخطار أن المروحة تعود لكم!»، ودائما يفلت لساني.

فقراؤنا من آل اللواني يسكنون دهليزاً واحداً فيه بائع الخضراوات طه وولداه جواد وياسين اللذان تربيا في الشارع كمدافعين عن عصمة زقاقنا، وفي عمر مبكر خرجا للعمل كخبازين في أفران لايملكانها، بينماعمل ابن عمهما عبد الرضا القوي الضخم القامة، سائق شاحنة متفرغاً للتهريب. منذ طفولتي ابتعدت عن صداقة المرفهين وأبناء الموامنة المكبوتين وصادقت الفقراء من أقاربنا لأنهم أكثر حرية وطلاقة ولا يدعون ما هو فوق فقرهم. في الظهيرات الحارة وحالما يغفو والدي أفك يده من حول رقبتي وأتسلل من السرداب البارد إلى أزقة جهنم مع أبناء الواني. لعبتنا الخبيثة هي أن ندق أبواب البيوت بإلحاح حتى نسمع خفقات النعال القادم فنهرب... ذات يوم وقعنا في كمين، فمع دقة الباب الأولى طوقنا أب وأولاده وأشبعونا ضرباً بالنعل حتى ازرقت جلودنا.

مكتبة الفكر الجديد

بين تربية أهلي وبين أصدقاء طفولتي عشت ازدواجية عالمين. تريد أمي أن نتفوق على فقرنا بأن نكون الأنظف بين أقراننا والأفضل منهم في ملابسنا والأكثر أدباً في سلوكنا مع الآخرين، بينما تعلمنا صداقات الشارع أن نكون الأكثر جلافة في التعامل مع من يريدون التطاول علينا وألا نستغني عن سكين أو عصا حين نغادر زقاقنا إلى أزقة معادية، ونمارس أقسى الألعاب ومنها الصراع ونحن نركض على رجل واحدة (أم حجيم) أو المطاردات بين مجموعتين. وهي ألعاب تجعل الحفاظ على نظافة ملابسنا أمراً مستحيلاً.

كنت أعيش ازدواجية أخرى، بين كتب والدي وما تتركه في داخلي من أخيلة وممثلات رومانسية من قصص الحب والهجر، وبين العوالم الخشنة التي تحيط بي حالما أغلق الكتاب وأخرج إلى واقعية الزقاق وما فيه من صبيانيات وبلطجة وسرقات واستهجان لأي ملمح ضعف. أمي تعتقد أن صداقتي لآل اللواني تخرب كل جهودها لتصنع منا دمى نظيفة أنيقة مهذبة شأن كل أولاد الأفندية المتعلمين. بينما ينظر موامنتنا لأقاربهم من آل اللواني كـ (عوام)، تفكيرهم بسيط وألفاظهم بذيئة. لا يذكرونهم كأقارب إلا حين يعتدي أحد عليهم، وآنذاك يتذكرون شهامتهم في الدفاع عن الأقارب.

منذ طفولتي لم أجد فرقاً بين العالمين، فلله (العوام) مثل المتعلمين كثافة مشاعر وأحاسيس. لن أنسى أبداً فرح ياسين وجواد اللواني حين عبّدت باحة بيتهم بالطابوق الفرشي بعد أن كانت طينية مثل الزقاق، استلقى الإخوان مثل علامة زائد على الأرض باسطين أذرعهم وأعينهم إلى السماء في نوع من صلاة شكر، بينما زغردت أمهم (فضة) وهي تتلمس الأرض براحة يدها.

في عمق هذا الدهليز يسكن هادي اللواني أو (الفنان هادي) كما يحب أن نناديه ويوقع أعماله. يقضي هادي شهوراً طويلة في معالجة

مكتبة الفكر الجديد

الطين في باحة البيت الضيقة. كنت أجلس قبالته محدقاً بأصابعه وهي تشكل الطين وتتشكل منه، وأرى كيف تظهر هيئة الإنسان تدريجياً من كتلة الطين المتعرجة. وكان يتحدث بما يشبه الهذيان حين يعمل وفي لسانه عيّ وتأتأة. يصيح بي ويبعدني كلما مددت يدي لأتلمس الطين وهو يطاوع لمسات أصابعه. بين فترة وأخرى يغضب هادي الواني ويبربر «ليس هذا ما أردته!» ويصب غضبه على التمثال فيعجنه بقوة مخرباً ما أنجزه:

– روح، روح .. ليست فيه روح!

لم أفهم آنذاك كيف يمكن إدخال (الروح) لتمثال من الطين.

مرة عدت إلى البيت مع كتلة من الطين لأفعل ما فعله هادي فحذرتني عمتي من أن أقلّد فعل الله لأن تمثال الإنسان سيطالبني يوم القيامة بالروح. في الليل حلمت بهادي يعجنني بغضب صارخاً «روح، روح!!» وفي داخلي صوت مخنوق ومتألم يجيبه «أنا الروح!»

حين اكتمل تمثال البدوي فوق جمله وضعه هادي في قالب من الجبس، وعمل نسخاً عدة منه، وراح يلونها ويبيعها بنفسه على المحال التجارية في السوق الكبير. واحد من حراس الأصول كان يتابعه محذراً البائع والشاري:

هذه أصنام، وقد حرمها الله.

الغريب كما روى هادي لاحقاً أن بدوياً استوقفه في السوق وراح يتلمس التمثال وهو يسمل مأخوذاً أمام هذه المعجزة، ثم اشترى نسخة من التمثال وأخذه على ظهر جمل إلى خيمته في الصحراء.

في عمق الدهليز ونهايته المسكونة بالجن ثمة سرداب مهمل، نمرّ فيه على عجل لأن كف إنسان ملتصقة بالسقف، كف تقلصت أصابعها من ألم شديد. صبي من أهل البيت وشوش في أذني بأن إنساناً حياً مدفون في سقف السرداب، ويسمع أنينه في الليل المتأخر.

مكتبة الفكر الجديد

فوق هذا السرداب مختبر مرعب له شكل القبر ورائحة الجلود المحروقة والموتى. في هذا المختبر يجري أحمد الشيخ شريف تجاربه المستمرة لتحويل النحاس والألمنيوم إلى ذهب. أهل البيت يشكون مما يحصل في هذا المختبر لأن هذا الرجل المسكون بالفقر والأوهام جرّب على صواني الطعام كل محاليله التي أخذت من دهن قطٍّ أحرق وهو حي، أو نباتات تنمو قرب قبور الموتى، أو حتى من عصير الحنظل. حين يطرق أحد باب المختبر يخرج أحمد رأسه من قبره المسخم هلعاً كأنه دوهم في قلب جريمته، ينظر حوله مستغرباً من وجود الضوء والعالم الحي خارج القبر وأخته الكبيرة الصبورة التي جلبت له صينية الطعام .. لا يسمح أحمد لأحد بأن يدخل مختبره ولا لمس الكتب التي يقتبس منها علومه ... إخوته يلومونه على هذا الجهد الضائع ساخرين من كتبه المشحونة بسحر الأبالسة، فيجيبهم وهو يأكل الوجبة الوحيدة بين تجربتين:

– لا أراهن على الكتب ولا قوانين الطبيعة، بل على الصدفة. الصدفة كانت وراء أعظم الاكتشافات ووراء تكون الكوكب الذي نعيش عليه من انفجار كواكب أخرى، إنها أقوى وأمضى من كل العلوم.

لم يسمح حتى لإخوته أن يدخلوا عليه حتى حين انفجر واحد من المحاليل بوجهه و لم يأبه لمن اتهمه بالجنون، فقد أوحى له فقره بأن السخام الذي يغطي صواني الطعام لا بد وأن يكشف ذات يوم عن لمعة الذهب ويودع فقره إلى الأبد.

إلى جانب جامع الجزائري يسكن الرجل الشبح (مهدي الجزائري). بيته مغلق بباب ثقيل يبعث حين يفتح مزيجاً من الحشرجة والصرير.. آنذاك نتوقف عن اللعب ونمد رؤوسنا بفضول لنلمح الأشباح التي توصوص خلف الباب. يقطع الشيخ مهدي فضولنا بأن يخرج مفتاحاً ضخماً مشدوداً بحبل من تحت جبته ويغلق الباب بخمس كرات

مكتبة الفكر الجديد

وبصوت عالٍ. لا يسلم الشيخ مهدي على أحد ولا يزور أو يزوره أحد، ولا حتى شقيقه الذي يسكن على بعد خطوتين منه. وفي الفواتح حين يموت واحد من أقاربنا يدخل الشيخ مهدي الجامع كالغرباء، يسلم ويذهب لزاوية قصية.

عندما يغادر الشيخ مهدي البيت نتزاحم في وضع آذاننا على الباب لنسمع وصوصات الجن في دهليز البيت الطويل المظلم ووشوشاتهم خلف الباب ثم يرفع أحدنا أذنه ليقول:

عطشانون يريدون أن يشربوا دماً.

هذا البيت وما فيه من أشباح ودهاليز غامضة لم أرها أبداً سكنت أحلامي حتى بعد أن غادرنا المحلة. والجن في المدينة يسكن معنا ويتحرك معنا في الأزقة المظلمة وسراديب البيوت والزوايا المهملة. نكاد نراهم بين العين والمخيلة ونسمع حشرجاتهم وصأصأتهم. أهلنا يوصوننا بأن لا نسكب فوح الرز الحار إلا بعد أن يبرد حتى لا نؤذي الجن تحتنا، وأن ننزل سلالم البيت بهدوء حتى لا نعثر بهم، ونسمّي بالرحمن دائماً لنتجنّبهم.

ينقسم الجنّ حولنا، كما الناس، إلى مؤمنين بالله وكتابه، يقابلهم الجن الكفار من أحفاد الشيطان. تشكو عمتي زهرة، وهي تحلف بالعباس أبو فاضل، أن الجن يجرون عباءتها حالما تغلق الباب وتدخل الدهليز رغم أنها سمت بالرحمن ثلاثاً قبل أن تدخل، وتقول، وهي عانس، إنهم ينامون على صدرها فوق اللحاف ويشخرون طوال الليل.

عندما أسالها عن شكل الجن تصفن قليلاً ثم تقول:

وجوههم تشبه العجائز رغم إنهم صغار كالأطفال، ولهم أذناب مشعرة كالجرذان.

أرض النجف غصّت بالموتى وضاقت أرواحهم بالقبور، كما

مكتبة الفكر الجديد

يتداول الناس بهمس هلع، ولذلك تتجول الأرواح وقد تحولت إلى جن. يسكن الجن المقبرة ويأتون منها إلى بيوت الناس إذا ضاقت بهم ظلمة القبور، وأحياناً ممض الموتى وحدتهم فيجذبون أقاربهم الأحياء إلى تحت حين يمرون بالمقبرة ليلاً.

في كل شهر مرة تبدأ في بيت الشيخ مهدي حركة غير مألوفة، ثم يفتح الباب العتيق لتخرج إلى الضوء جوهرته الخبيئة، وهي فرس بيضاء بلون القطن نثرت عليها نجوم ذهبية ناعمة. من تحت عرفها الذهبي تنظر الفرس إلينا وإلى فضاء الشارع بعينين خجولتين مثل مراهقة باكر، ثم تمشي خلف الشيخ مهدي بغنج، ونتابعها نحن مأخوذين بجمالها على أمل أن يسمح لنا الشيخ مهدي بأن نلمسها بأصابعنا.

مع عروسته البيضاء الذهبية نرى الابتسامة النادرة البخيلة للشيخ مهدي ونسمع منه كلاماً أقرب للهمهمة.

بين الشيخ مهدي وبين والدي جفاء لا أعرف سببه، فرغم جيرتنا وقرابتنا لا يسلم أحدهما على الآخر. حين أسأل والدي عمَّ إذا كان للشيخ مهدي زوجة وأولاد يجيبني متهكماً:

نعم له زوجة وأولاد، إنهم فرسه.

قبل أن أصل بيتنا أتوقف وأستدير فأرى الزقاق مسرحاً طولياً بلا مشاهدين، أو مشاهدين عابرين. ممر فيه شخصيات حفظت أدوارها بدقة وبالتالي لتترك فيه بصمتها اليومية.

يبدأ الصباح ببائعات اللبن الرائب. عجيب! الجزء الأعلى من الجسد ثابت حينما يخرجن فجأة من العطفة إلى امتداد الزقاق. ثابت لتحافظ كل واحدة منهن على برج من علب اللبن فوق رأسها. يتحرك الجزء الأسفل خلال سيرهن السريع، من العجيزة إلى أسفل الساقين برشاقة الراقصات والخطوات الثابتة لعارضات الأزياء، يمشين كما القطة

مكتبة الفكر الجديد

خطوة أمام أخرى والعين تترصّد العثرات المحتملة. يد تمسك بقاعدة البرج وترسم اليد الأخرى نصف دائرة في الهواء. سيكبت الرجال، حين تمر هذه الحزمة من بائعات الروبة، رغبتهم خلف ابتسامة رسمتها خفة العرض وسرعة العابرات. لن ترتبك العارضات أمام عيون الرجال النهمة، ولن يتوقفن، فلا تخطر الغواية في بالهن، إنما تأتي عرضاً خلال البحث عن الرزق، إنه هدف هذا العرض العابر للعيون.

بعدهن يأتي جراخ السكاكين، يأتي صوته قبل أن نراه:

إذا سكين، إذا ساطور، إذا مقص...

حاملاً على ظهره عدته، وهي محمل تلتقي أرجله الثلاث عند مبرد على شكل عجلة من حجر خشن. يمسك السكين قبل أن يسنّها ويمرّر حافتها الحادة على راحة يده .. آنذاك نبتعد نحن الأطفال قليلاً إلى الخلف لأن أمهاتنا يحذرننا من الدراويش الّذين يخطفون الأطفال ليأكلوا قلوبهم وهي حارة وما تزال تنبض. يرتدي جراخ السكاكين نظارة سوداء مربوطة حول راسه بخيط، ثم يدير العجلة من خلال دواسة يحركها بقدمه. ما يثير دهشتنا هو الشرر الذي يتطاير من حافة السكين حين تمس العجلة، شرر يتطاير دون أن يخلف شيئاً، حتى ولا رماد. سيمرر الجراخ حافة السكين برقة على طرف أصبعه ثم يسلمنا أياها من جهة المقبض محذراً من الاستهانة بحافتها الحادة. يأخذ الأجرة ويمضي دون أن يأبه بدهشتنا صارخاً:

إذا شيش، منشار، مخيط...

بعده يأتي (خياط الفرفوري) حاملاً تختة من الخشب ومثقباً رفيعاً يديرة بخيط وقوس. فقراء المحلة لا يرمون الصحون إذا كسرت، إنما يحتفظون بالقطع على موعد معه. يمسك خياط قطع الصحن المكسور ويعيد هندسته فيحيل كل قطعة إلى ما يلاقيها، ثم يثقب الحافات

مكتبة الفكر الجديد

المكسورة للصحن وهو منحنٍ حتى يكاد يمس الصحن وجهه. لا يتطلب العمل كبير جهد، مع ذلك يعض خياط الفرفوري شفته السفلى من وطأة الدقة قبل أن يخيط قطع الصحن بسلك دقيق.

المكاري يأتي مع حماره ليبيع طين الرأس الذي تنقعه النساء ويطلين به شعرهن فيمتص الدهون ويصفي جلدة الرأس. بين المكاري وبين حماره علاقة الأب بابنه المشاكس. يطعمه الشعير أو التبن براحة يده إذا زعل الحمار من قسوة والده. يتكلم المكاري طوال اليوم متوسلاً، لائماً أو شاتماً حماره حين يتعثر أو يحرن متلوياً من ضرب الخيزرنة:

ليسيوييين اللللك؟!

يفهم الحمار لهجة المكاري فيهز رأسه موافقاً أو معانداً أو ساكتاً على مضض.

عند عودة التلاميذ من مدارسهم يتدفق سيل من باعة (شعر البنات) و(العلوجه) و(الدوندرمه).. لكل واحد منهم جرسه ونداؤه المنغم في مديح البضاعة:

بائع شعر البنات ينادي بغنج:

سرح يا شعر البنات وين أولي ووين أبات

وينادي بائع الباقلاء:

باكلتنا جديده مكتوبه بالجريده

بينما يضرب بائع الدوندرمة أسطوانة التبريد بالمغرفة:

طيب وبارد أزبري.

يدور بائع العلوج، وهو نوع من العلكة الملونة، صينيته المغطاة بقمع زجاجي:

اخضر، أحمر، اصفر، أزرق، مثل الورد علوووووج.

مكتبة الفكر الجديد

ولكل واحد منهم طريقته في العرض كما سلسلة من الحواة، يبهروننا بصراخهم وحركاتهم الراقصة وحلواهم التي تترك أصباغها حول أفواهنا.

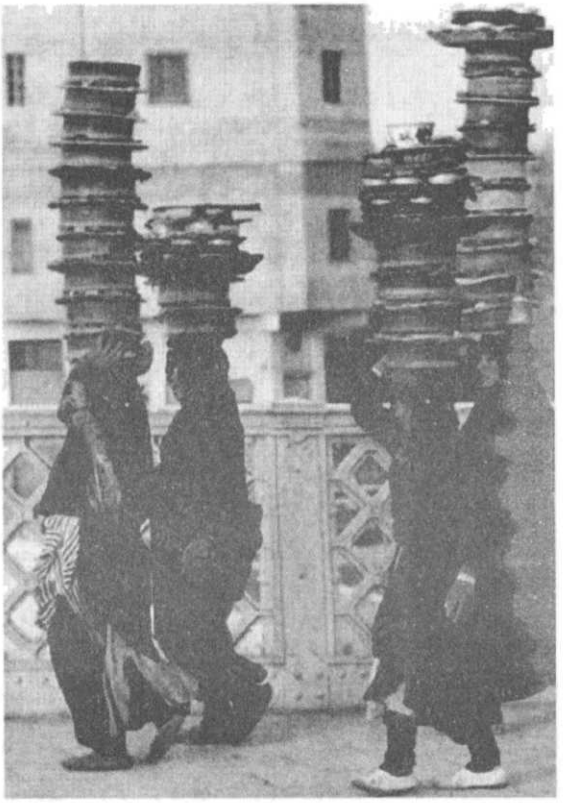

مكتبة الفكر الجديد

بيتنـــــــــا

والدي ووالدتي

يقطع بيتنا امتداد عكد السلام واستقامته منزاحاً قليلاً إلى الجانب الأيسر بشناشيل (أُرسي) في الطابق العلوي تستطلع الزقاق حتى نهايته ونوافذ جانبية نرى منها التفاصيل القريبة. بيت فقير متداع من ثلاث غرف نوم، مساحته مثل كل بيوت المدينة القديمة ضيقة جداً لذلك يرتفع من القاع نحو الأعلى مثل بئر. جدرانه متهالكة رقيقة تهتز مع الريح ويتسرب ماء المطر من شقوق الغرف. حين تشتد الرياح والأمطار

مكتبة الفكر الجديد

يجمعنا والدي في زاوية قرب الغرفة السفلى ونحن نصرخ وعيوننا الفزعة تراقب الجدران الخارجية العالية تهتز وتئنّ وتصر تحت ضغط الرياح الممطرة.

السطح الأعلى مسيج بالزنكو الذي تآكلت سقالاته فيهتز مع أية ريح باعثاً صفيراً حاداً. لقد استقر هذا السياج في مخيلتي. طوال حياتي لم يفارقني الحلم بأني أتكئ على أرض أو سياج عالٍ يميد بي فأبقى معلقاً بلا سقوط ولا ثبات.

في الليل يلغي هذا السياج وجود المدينة تماماً عن عيني، فتدور حولي السماء اللانهائية بنجومها ومجراتها الموغلة في الأبدية. أحس نفسي منقذفاً إلى السديم، ضائعاً بين المجرات، فأتمسك بالأرض التي تسند جسدي، وأشد قبضتي على حافة السرير.

على هذا السطح وتحت سماء مغبرة، حارة، لها لون الجحيم، قضيت ليلة من جنون مطبق، وأنا في العاشرة من عمري، لأحرر (قمرنا) من فم الحوت. طوال ليلة كاملة بقيت أقرع بالعصا تنكة الصفيح بتواتر وأنا لا أكف عن الصراخ والشهيق:

يا حوتة البلاعه هدي كمرنه بساعه

وان جان ما تهدينه أضربج بسجينه!

حياتي كانت معلقة بهذا القمر الشاحب الذي يوشك أن يغرق في الجحيم. فقد قضيت ليالي طويلة أراقبه وأناجيه وأكاد ألمس بأصابعي ملامح وجهه. صار لي وحدي وأنا أراقبه كل يوم من سطح البيت مترقباً اكتماله. أكتفي بنوره الحليبي المزرق حيث لا مصباح كهربائيا في السطح العلوي للبيت، أقرأ الكتب المحببة، وأتطلع إليه بين آونة وأخرى، شاهداً على الوقائع التي تولدها الكتب في مخيلتي السرية .. هذا القمر على وشك أن يبلعه حوت.

مكتبة الفكر الجديد

حاول والدي وأختي أحلام أن يهدئا جنوني، ولكن هيهات فقمرنا الشاحب يستنجد بي بالذات، أنا صديقه الوحيد في هذه الدنيا، يتمسك بصوتي المبحوح:

- ياحوتة البلاعه

هدي كمرنه بساعه!

تكاثرت طبول الجيران وتعددت الأصوات المهددة وهي تساند صوتي، ولكن القمر في كسوفه كان يستنجد بي أنا صديقه الحميم، وهو يغطس في صهرة الجحيم. بحّ صوتي وغرقت في عرق بارد، ولكن في النهاية نجحت في إنقاذ القمر. فقد هرب الحوت الداكن اللون، مدركاً جدية تهديداتي، موغلاً في تلك السماء الجحيمية، تاركا قمرنا الشاحب يتعافى بهدوء، وهو يغمزني بامتنان وبكلمات من نور.

من سطح بيتنا في العمارة عقدت صداقتي الأبدية مع القمر. وكان البطل المحوري في أوائل قصصي (القمر والحوت) لم تنشر و(النجوم الصدئة) نشرت في جريدة (المنار) أواسط الستينات. في القصتين وفي مخيلتي كنت أرى القمر من سطح بيتنا في محلة العمارة ، قريباً مني، وبحميمية، افتقدتها في البيوت العديدة التي عشت فيها لاحقاً.

بعد زخة مطر وريح قوية ستظلم الدنيا نتيجة سحابة تغطي السماء بحبيبات داكنة، ثم يتساقط علينا الجراد الصحراوي الذي ترسله لنا الجزيرة العربية بين عجاجة وأخرى. أسمع صوت تساقطه كمطر من حجارة على باب البيت وزجاج النوافذ وجدران الصفيح في سطح بيتنا. يدق بتوتر مثل إنذارات القيامة. أسمع من يقول:

راحت المحاصيل...

في طريقه إلينا، وقد امتدت سحابته من الجزيرة العربية حتى الشام، لم يترك شيئاً لم يأكله بأسنانه المنشارية، الحقول حتى الجذور، والأشجار

مكتبة الفكر الجديد

حتى اللحاء، بل يقال إنه أكل أبواب البيوت والملابس المنشورة على الحبال. الفلاحون المفجوعون يقولون إنه (جرد) حقولهم وسد سواقي الماء. والباعة يقولون إنه يريد أن يأكل حتى عيونهم ولذلك أغلقوا دكاكينهم ... استعاذ المؤذّنون منه برحمة الرب بعدما توقفت صلاة الجماعة في الصحن ...

حين خفّت العاصفة العمياء تكدس الجراد تلالاً عند سور النجف القديم وفي الروابي والأخاديد (الطارات) بعد أن أنهى بساتين الشوافع، تكدس في سطوح بيوتنا وفي الباحات. خرجنا من تحت السقوف إلى الشوارع وقد غطينا رؤوسنا احتماءً من مطر الجراد الأعمى لنلتقطه وهو ما يزال يرفس بأقدامه المنشارية. كائن عجيب! من الذي وصفه بحق «فيه شبه عشر جبابرة، وهي وجه فرس، وعينا فيل وعنق ثور وصدر أسد وبطن عقرب وجناحا نسر وفخذا جمل ورجلا نعامة وذنب حية»؟ مسلوقاً أو مشوياً سنزيل أجنحته وأطرافه المنشارية وننزع درع صدره ونأكله تلذذاً أو انتقاماً، لكن هيهات نعوض دماره.

أتجرّأ أحياناً وأصعد درجتين في هذا السطح فتنفرش تحتي سطوح المدينة وأسرارها واضحة تحت شمس تعشي البصر. على بعد بيتين رأيت بعينين مندهشتين ومستفهمتين شاباً من جيراننا يسترق النظر تحت شمس جهنمية إلى امرأة تنشر الملابس وهي ما تزال بملابس النوم. استغربت تلك الحركة القبيحة لجسد الشاب وهو يتقلص ويرتعش مع حركة اليد اليمنى، حركة تتسارع، تتسارع ... تت...سااارع، ثم تتباطـــأ، تتباطـــــأ وبعد التواءة متشنجة ارتخى جسده حتى كاد يسقط. حين استقام تلفت باحثاً عمّن رآه في خزيه. المرأة أدركت بعين غريزتها أنها مرصودة فجرت ثوبها إلى تحت. وكأني أنا المذنب أنزلت رأسي خجلاً لأني كنت شاهداً على هذا الفعل القبيح.

قبيل أذان الغروب رأيت واحدة من خالاتي، وحيدة على سطح

مكتبة الفكر الجديد

بيتهم. يلون وجهها ضوء نحاسي بارد، متكئة على الجدار باسترخاء، وهي تبكي وتهتز مع نشيجها، وعيناها ثابتتان فوق المنائر الذهبية، بكت طويلاً وما من أحد بجانبها يكفكف دموعها.

بعد أيام سألتها في خلوة بيني وبينها ...

– لم كنت تبكين؟

– هل رأيتني؟

– نعم.

قلتها باستحياء.

–لا لم يزعجني أحد بالتحديد، إنها دنياي.

وبترت سرها بهذا الجواب القاطع.

وفي الظهيرات الحارة حين ينزل الجميع للنوم في السراديب كنت أراقب من مزغل في الجدار العاشقين إياهما.. الصبي ابن المهرب وصبية الجيران، وقد تسلقت بجهد لتسلمه يديها. لا أدري بأية أحاديث كان يسحرها، وكانت تصغي له بأذن واحدة وأذنها الأخرى مشدودة إلى السلم خوفاً من أن يضبطها واحد من رجال البيت بالجريمة التي تستدعي القتل غسلاً للعار. ذات يوم رأيت أربع أرجل خرجت من بيتونة الفراش ترتعش بحركة غريبة وكدت أشهق محذراً مما لا تحمد عقباه.

لا أراها الآن، لكنها حاضرة بارتجاف في مخيلتي منذ رأيتها في المرة الأولى مقرفصة في السطح تقصع القمل وتبتلعه وهي تتلفت حولها خائفة من أن يراها أهل البيت ويضربوها كما في المرات السابقة. كنت أهيئ ساقي للفرار عندما أقترب من بيت (نجوى المخبلة) خوفاً من أن تقفز عليّ بوجهها الضامر الشبيه بوجه قردة:

مكتبة الفكر الجديد

هي قردة حتى النصف، ونصفها الثاني آدمي. هكذا خلقت (كما أخبرني ياسين) عقاباً لأمها لأنها شتمت، وهي حامل بها، أحد زوار الأمير.

من السطح كنت أراها تنهض وقد تقوست قامتها، تتابع حشرة طيارة، ثم تلتقطها بحركة سريعة وتخفيها بين طيات ثيابها. ذات يوم طارت الحشرة إلى سطح الجيران فطارت المخبولة خلفها دون أن تأبه بالزجاج الذي زرع على طول الجدار الفاصل بين البيتين. نزلت إلى بيت الجيران وهي مدماة، تاركة على كل درجة طبعة دامية من قدميها، وعلى الجدار طبعة من يديها. المرأة التي تغسل الملابس في باحة البيت رفعت رأسها على صوت هرير، وحين أزاحت شعرها عن عينيها رأتها بشكلها المرعب فأغمي عليها ثم أصابتها لوثة. المنظومة الشيطانية عندنا تقول إن بعض الجنون معد، إذ يقفز الجن الذي سكن رأس المصاب متولهاً بأجمل النساء في العشرين من العمر. بعد الحادث كبلت المعتوهة بسلاسل من حديد. في الليل وحين ننام في السطوح يشق عويلها فجأة سكون الليالي الرائقة. عويل طويل ومتواتر، يتكسر، يخفت لأن هناك من يحاول أن يخنق هذا العويل، ثم يفلت ثانية فننهض من نومتنا وقد تهيأت أجسادنا لصدمة فاجعة. يصبح الصوت مثل عواء ذئبة:

ليس هذا صوتها، بل صوت الروح الخبيثة التي سكنت داخلها.

ذات يوم ضاقت بسلاسلها فراحت تبردها بالجدار حتى انفك أسرها، فعبرت جدار بيتين ثم نزلت على الثالث وهو بيت رجل دين ورع، مس رأسها بيده وقرأ لها:

– اللهم أنت الله، أنت الرحمن، أنت الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الأول والآخر الظاهر والباطن الحميد المجيد المبدئ المعيد الودود الشهيد القديم العلي العظيم العليم

مكتبة الفكر الجديد

الصادق الرؤوف الرحيم الشكور الغفور العزيز الحكيم ذو القوة المتين الرقيب الحفيظ ذو الجلال والإكرام العظيم العليم ....

فبدأت تئن كجرو يوشك على النوم. ووضعت رأسها على يده.

اللهم ما قلت من قول أو حلفت من حلف أو نذرت من نذر في يومي هذا وليلتي هذه، فمشيئتك بين يدي ذلك كله، ما شئت فيه كان، وما لم تشأ منه لم يكن، فادفع عني بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم بحق هذه الأسماء عندك صلّ على محمد وآل محمد واغفر لي وارحمني وتب علي وتقبّل مني وأصلح لي شأني ويسّر أموري ووسع عليّ في رزقي وأغنني بكرم وجهك عن جميع خلقك وصن وجهي ويدي ولساني عن مسألة غيرك واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا اقدر وأنت على كل شيء قدير برحمتك يا أرحم الراحمين...

آنذاك غابت الزرقة عن وجهها وحل بياض صاف ونامت ثلاث ليال متتالية وقد هدأت بعد أن فارقتها الروح الخبيثة وأعادها الشيخ إلى أهلها وهي ترسل أنين الخجل من فعلتها. بعد أكثر من أربعين عاماً استعدتها في روايتي (الخائف والمخيف).

على مسافة قليلة يقف دائماً ساكن السطوح منعم المطيرجي الذي تشكو نساء المحلة من «عينه الدبقة»، يشكين دائماً:

– عين على الطيور وأخرى على بيوت الجيران.

على عكسهن لم أر منعم يوماً ينظر إلى ما تحته، رأسه كان مشبوحاً دائماً إلى الأعلى وعيناه تدوران دوماً مع سرب طيوره. يصفر لها ويلوح لها بقماشة بيضاء أو بطير بيده. من مكاني كنت أتابع السرب يمرّ فوقي كأنما يحييني ثم يذهب بعيداً ويعود دائراً حول الرجل الذي يطير بعينيه أمام سربه، ويقود دورانه ومكان استراحته. مع منعم كنت أراقب سرب

مكتبة الفكر الجديد

الطيور وتدور عيناي معها في تلك السماء الصافية، ومثلها أرى المدينة تحتي بمحلاتها الأربع تتوسطها المنائر الذهبية وتتمدد شرقها وشمالها كتائب الموتى وهم يحاصرون مدينة الأحياء وأرانا، نحن ساكني السطوح، شابحين، وعيوننا تتابع دورتها.

حين أنظر للزقاق يبدو الناس والأشياء غريبة من الأعلى .. يخرج طلال العكايشي مع بندقيته البرنو فجأة من تحت شناشيل بيتنا كأنه خرج من بابنا. في نقطة تحت البيت مباشرة يتوقف وينفخ في صفارته ليقول «إني هنا!» تختفي كل الأشباح المتسللة من السراديب إلى مخيلتنا حين نسمع صافرته في منتصف الليل. حين كبر طلال وكبرت معه صرت أستغرب وجوده الغريب وسط الزقاق. يقف طويلاً تحت شناشيل بيتنا، يحدق طويلاً أمامه فلا يرى شيئاً في الظلمة، ثم يختفي هو نفسه في زاوية مظلمة ويسكن كأنه يتنصت على صوت غريب. أتنصّت أنا معه على خفقات الريح وأنفاس الليل، يخرج من الظلمة بعد فترة كمون ويمشي وئيداً ثم يتوقف، وينظر مائلاً برأسه نحو اليسار. ماذا سمع وماذا رأى؟ ربما كنت أنا الذي أراقبه من فوق.

قبل النوم نبقى أنا وأختي الكبيرة أحلام نراقب من وراء الشناشيل امتداد الزقاق حيث سيأتي والدي في آخر الليل من نهاية الزقاق، طويلاً أنيقاً تاركاً ظله أمامه. من طريقة مشيته، وهو يحاول جاهداً الحفاظ على استقامة خط السير، نقدر كمية العرق التي شربها... حين نسمع صوت المفتاح المرتبك بالباب نغمض عيوننا متصنعين النوم ونفتحها على قبلاته.

من السطح أنظر إلى تحت، إلى بيتنا فيبدو لي عميقاً مثل بئر. في الحلم يفلت جسدي وأهوي إلى تحت نحو الجن المتدفق من السرداب، يريد أن يمسك بي. أحرك جناحي بصعوبة، مع ذلك أنزل إلى علو منخفض مفزوعاً لأني قريب من منالهم.

مكتبة الفكر الجديد

هذا البيت الأول لم يغادرني رغم كل البيوت التي تنقلت فيها خلال منافيَ العديدة.

ورث والدي هذا البيت من أجداده الذين اكتسحهم الطاعون و لم يرث منهم شيئاً غيره، لا مكتباتهم ولا عمائمهم. ومع جيش من القطط السائبة تشاركنا بيتنا الخياطة المحترفة عمتي زهوري ومعها دائماً شابات يسعين لتعلم المهنة على يديها. لا تتبادل أمي وعمتي زهوري النظرات ولا دمدمات التحية، لكنهما تتبادلان الكراهية والترصد. كلما نزلت إلى الطابق الأسفل باكياً تستدرجني عمتي إلى غرفتها. وفي هذه الغرفة في الغالب شابة جميلة جاءت لتقيس بدلة عرسها القريب. تمسح عمتي دموعي وتعطيني قطعة حلوى ثم تبدأ نفس الأسئلة التقليدية:

– ضربتك أمك؟

...–

– هل يعرف أبوك بما فعلته؟

...–

ثم تهمس في أذني:

–أخبره حالما يعود!

وكانت تستدرجني إلى غرفتها لتسمع مني بعض أسرار العلاقة بين والدي ووالدتي، وتعطيني مقابل الوشايات قطعة حلوى.

حالما أصعد للطابق الأعلى تجر أمي أذني بقسوة:

– ماذا سألتك ؟

...–

– ماذا قلت لها؟

مكتبة الفكر الجديد

...-

- لمَ أعطتك الحلوى؟

...-

- لمَ أخذتها؟

والدي ووالدتي على أجدادهما، مثل الماء والنار. فقد ولد علي هادي الجزائري يتيماً. مات والده مسلولاً قبل ولادته بأشهر وماتت أمه بعد الوالد بعامين، وربما تسرب لها السل عبر قبلة. ومات أخوه الكبير محمد علي بعد ولادته بأعوام قليلة، و لم تبق له من عائلته غير أخته زهوري. عاش والدي يتيماً مقطوعاً، لكن اليتم لم يطبعه بالمأساة، إنما برحابة الحرية. فلم يجبره أحد على لبس العمامة كما هو الأمر مع بقية أقرانه ومجايليه، إنما ارتدى الزي الإفرنجي ودرس في المدارس الحكومية وصار يقضي أوقاته في نادي الموظفين بدلاً من الجامع. و لم تكن العمامة، خاصة إذا فرضت قسراً، محببة لدي العديد من أبناء جيله من المعممين، لأنها «منعت فسقي ورزقي» حسب شاعر نجفي. لم يكن والدي الأول ولا الأخير الذي استبدل العمامة بزي الأفندية، فقد سبقه ورافقه جيل من المتمردين الذين خالفوا فتاوى المراجع بأن دخلوا وظائف الدولة التي حرمت على الشيعة واستبدلوا العمامة بالملابس الإفرنجية، فشكلوا أول جيل من الأفندية، منهم الخليليان جعفر وعباس والشيخ كاظم الدجيلي والسيد محمود الحبوبي ومحمد مهدي الجواهري. قبلهم نزع العمامة الرصافي والزهاوي أيام الثورة الدستورية في الأستانة.

لم يكتف والدي بإنكار العمامة والابتعاد عن الدراسة الدينية، بل درس الموسيقى (العود) والمسرح في المدارس الحكومية إلى جانب اللغة العربية. ضمن تمرده على المؤسسة الدينية أدخل والدي إلى بيتنا واحداً من أوائل الراديوات في المدينة. أتذكره (فليبس) بإطار خشبي وعين

مكتبة الفكر الجديد

سحرية خضراء. والدتي خاطت له شرشفاً أبيض طرزته بالزهور وجملة «من شر حاسد إذا حسد».

الراديو قسم علماء الدين؛ بين من حللوا الاستماع إليه، وبين من حرموه ومنهم جدي الشيخ محمد جواد، الذي لام والدي بشدة واتهمه بتحويل بيتنا إلى (ملهى) بإدخال الراديو. الذين حرموه رأوا في الراديو منافساً لقراء المنبر في جذب الجمهور المستمع وتوزيع الولاء، ويقدم للجيل الشاب وخاصة النساء، الأغاني (المفسدة) بدلاً من احاديث الجوامع. مقابل ذلك أفتى علماء آخرون بأن الإسلام يجيز كل ما ليس فيه ضرر للنفس وللآخرين، واعتبروا الراديو والموسيقى مشمولين بما يجيزه الإسلام.

خوفاً من تهديد الآباء والإخوة تتسلل النساء من جيراننا وأقاربنا إلى بيتنا ليسمعن أغاني (حضيري أبو عزيز) يوم الجمعة من كل أسبوع، وتمثيلية عبد الله العزاوي يوم الاثنين. يستمعن وهن ملفعات بعباءاتهن، وقد غطين وجوههن في حضرة هذا الغريب، الذي يغني ويتحدث دون أن يرى! يسألن وهن يسمعن صوت الرجل الغريب يتحدث أو يغني وفي خيالهن رجل المنبر:

– أين يجلس هذا الرجل؟

تغمز أمي وتبتسم ثم تنحني لتمسك يد الدولاب الذي يجلس عليه الراديو:

– إنه متخفٍ هنا داخل الدولاب (ثم تفتح باب الدولاب قليلاً) هل تردن رؤيته؟

–... ؟؟؟

من الراديو صار والدي يتابع أخبار العالم ومنها إذاعة «البي بي سي»، ويبدأ حديثه عنها:

مكتبة الفكر الجديد

– يقول أبو لندن ...

صار الراديو مركزاً لتلقي المعلومات عن أحداث العالم حال حصولها، في حين كان أجدادنا يتابعون أخبار العالم من خلال الجنازين الذين يجلبون الموتى إلى النجف على وجه السرعة لدفنهم في وادي السلام قبل أن تتعفن تحت الشمس.

بلا عائلة، أي بلا مشاكل عائلية، يشيع والدي الخفة والمرح مدافعاً عن أسوأ ما نفعل. لا أتذكر أنني رأيت والدي عصبياً. رأيته ساخراً، محمراً بعد كؤوسه الأربعة، نصف مغمض، يأكل ويتجرع كأسه بأناة. أسترجع الآن المشهد كاملاً:

والدي جالس على الأريكة وقد انتفخت عباءته الصوفية من زحمة أجساد أولاده. ومن تحت رأسه اصطفت ثلاثة رؤوس. تحتها ستُّ أيدٍ تتزاحم لتغرف من صينية المزة. حين ينهي ربع العرق يفيض والدي بالحب وينفتح لطلباتنا... يستمرئ والدي السعادة ويتهرب من المشاكل، تاركاً المسؤولية على أمي المنذورة للمشاكل.

حمل أخي صبيح هذا الإرث من طبع والدي بجدارة. فحين تسوء الأمور حد حافة الموت أذهب إلى بيت صبيح لأسمع منه:

– لا لا، لا تقلق أبداً.. انتظر بضعة أيام وستنفرج الأمور.

عاش صبيح مع مدفع ١٣٠ ملم في كل جبهات الحروب العراقية وفي أطول خدمة عسكرية دامت ١١ عاماً. وبسبب المدفع يشكو من ضعف السمع ، لكنه يعلق ساخراً:

– خاصة الأخبار السيئة.

مكتبة الفكر الجديد

صبيح ومدفعه

يصرف صبيح كل ماعنده اليوم وليس غداً، فقد علمته الخدمة العسكرية في الحروب أن غداً ليس قريباً لناظره. مثل والدي يستمرئ صبيح السعادة تاركاً الهموم على مسؤولية زوجته.

عكس والدي اليتيم، ولدت أميرة عبد اللطيف في بيت، تعيش وتتجاور فيه أربع زوجات و١٢ ولداً وبنتاً، في عراك على أبسط الأشياء، من استعمال الحمام أو نشر الملابس حتى تسلسل ليلة الزوجة عند الزوج. هذا البيت المشحون بالتوترات ترك أثره في مزاج أمي، ومنها في بيتنا. أكاد أراها الآن منكبة تنظف أرض البيت وتشحن نفسها بالغضب والشماتة بالنفس. حين تتوقف عن كدها اليومي تتقلص في جلستها وتتقلص ملامح وجهها من غضب مكبوت تغذيه المكابرة. تقسو أمي على نفسها وعلى الآخرين. ما من وسيلة

مكتبة الفكر الجديد

لإخفاء المصائب عنها، فلديها عين ترى المأساة قبل أن تحدث. الحروب ضاعفت حساسيتها تجاه المآسي القادمة.

في كل شهر لنا يوم فزع، حين يذهب والدي مع نفس الشلة إلى الصحراء لصيد الغزال. كلما تأخرت عودته تتصاعد هواجسنا: «تاهوا في الصحراء، نفد ماؤهم، ستأكلهم الذئاب ...». لا أتذكر أبداً أن أمي قالت كلمة ودّ لوالدي، لكن حبها يتكشف هنا عند الخوف من الفقدان. فكلما طال غيابه تدور في البيت لائبة من الخوف عليه وتنقل قلقها إلينا.

– لم يتعود المبيت في الصحراء أكثر من ليلة واحدة.

– و لم يخبرنا بذلك قبل سفره.

بعد قلق ممض يأتي أطفال المحلة قبله مبشرين:

– عاد والدكم ومعه ستة غزلان.

تكبت أمي استبشارها بعودته وتسمعه أقسى الألفاظ:

– ليتك ما عدت ودفنت هناك حتى تتوب!

لحظات الصفاء والهدوء نادرة في حياة أمي لأن روح المناكدة لم تفارق علاقتها بوالدي. حين يعود من سهرته تعيره بمصاحبة الأغنياء على حساب كرامته، وحين يتألق بعد الربعية تهاجم (سفاهته). وبدوره يسخر منها لافتاً انتباهنا:

– انظروا إلى وجهها، ألا ترون عاشوراء؟!

خلال منفاي الطويل تغيرت المعادلة، كما أخبرتني شقيقاتي، فطوال مرضهما صار والدي حامل النار بينما تسكب أمي الماء. بسبب الخوف من الوحدة والموت صار لجوجاً كثير الطلبات لايكف عن مناداة الآخرين ولومهم، بينما استسلمت أمي لقدرها بصمت.

مكتبة الفكر الجديد

أقرب الناس لأمي وأكثرهم شبهاً بها هي أختي ذكرى. لديها نفس الميل لتتبع أخبار السوء، نفس الإحساس العميق بمصائب الآخرين، والميل الدرامي لمشاركتهم في المآسي، يصاحبه إحساس دائم بالضيم، نفس العصبية الدائمة التي تدفعها للصراخ لأبسط الأشياء. علاقتها مع زوجها حين يشرب تكرار لما يحدث بين أمي وأبي. ولذكرى نفس الذكاء اللماح في معرفة خفايا الآخرين، واتخاذ مواقف متطرفة لا وسط فيها بين الحب والكراهية.

أما أنا فخليط من الماء والنار؛ يسيل الماء في روحي، لكن نار أمي تندفع فجأة حين لا تفيد الكلمات العاقلة. فوراتي المفاجئة سببت لي المرضين القاتلين، السكر وضغط الدم. من سيئات والدي تعلمت ألا أهتم بالبيت، تاركاً مسؤولياته على الزوجة وعشت في رحيل دائم. ومن والدتي أخذت الحساسية التي نغصت حياتي، فعلى إيقاع هواجسها السوداوية أستيقظ كثيراً في منتصف الليل متوقعاً أسوأ الأشياء. ظلمة الليل وغياب الواقع يكبر الهواجس فأتصبب عرقاً ويدق قلبي بقوة كأنني سأموت الآن تحت ثقل هواجس سيبددها النهار والحياة اليومية العادية.

مع فقر حالنا وشحة دخل والدي لم يتوقف والدي عن الإنجاب أبداً. لا يسأل والدي كيف تدبر الحال وكيف سيعيش المولود الجديد؟ في هذه القضية فقط كان والدي متديناً، يزرع البذرة ويترك الأمور لتدبير الرب، وكانت أمي خصبة حتى خلنا أنها تلد مثل الأرانب كل ستة أشهر. ومن الأحداث المألوفة أن ننزل من غرف النوم لنسمع صوت جوقة من النساء:

– علي، علي، علي ... علي علي علي ... **علي علي علي** ...

ثم نسمع صرخة الطفل فنعرف إننا زدنا واحداً..!

مكتبة الفكر الجديد

ذات يوم نزلنا أنا وأخي صبيح ووجدنا في باحة البيت تحت الشمس الحارة كائناً غريباً يشبه الأرنب مسلوخاً وملقياً في صينية الطعام. أردنا أن نلمسه فصرخ حشد من النساء:

– حرااااااام!

لقد أسقطت أمي طفلاً في الشهر الخامس. حملناه أنا وصبيح على تختة المطبخ مقلدين الجنازة ونحن ننهر الناس لينزاحوا عن طريقنا:

– لا إله إلا الله! لا إله إلا الله!

خلفنا كانت تركض إحدى خالاتي وهي تصرخ محذرة من غضبة الرب، فما نحمله ليس دمية، إنما واحد من إخوتنا مات قبل أن يولد.

تكاثرنا دون أن يتكاثر دخل والدي، مع ذلك حين يمر بغرفتنا وهو سكران يبتسم لأننا نبدو له مثل منقلة الكباب. هو الذي يعطينا الأسماء المسجوعة، ومعها أسماء الدلال. يعطينا الأسماء تاركاً لأمي أن تتدبر الأمور بالمصرف القليل الذي كان سبباً في شجار دائم.

مع تكاثرنا تكاثرت القطط في البيت وحوله. حين عجزت أمي عن إبعاد القطط تركتها لحالها تشاركنا طعامنا. حلقة من عيون زجاجية، رصاصية، زرقاء، صفراء أو بنية، تتابع أيدينا وهي تنزل إلى الصحن وتصعد إلى الفم بلا توقف. نظراتها الوقحة أو المتوسلة تنغص طعامنا فتقتر شقيقاتي من لقمتهن ليطعمن القطط المتوسلات، بينما يركض صبيح خلفهن بعصاه.

تشاركنا القطط فراشنا الدافئ تحت الأغطية أو فوق تشخر فوق صدورنا. في شباط تصبح حيطان سطوحنا ملتقى العشاق من القطط. بعد مناجاة طويلة ومتواصلة يقترب القط برأسه الكبير وشاربيه من القطة بتأهب وتسلط، فترضخ القطة لإرادته دون حتى كلمة استلطاف أو شكر حين ينتهي من المضاجعة. كرهت القط الذكر لأنه ينكر أولاده

مكتبة الفكر الجديد

بعد أن يولدوا، بل يغافل زوجته ويخطف واحداً منهم ليأكله. يا لدناءته وقسوة قلبه!

قبل الامتحانات النهائية كنت واثنين من أصدقائي نتلقى دروساً خصوصية من مدرس الرياضيات الحازم (حسن طه كيلا). لا يتسامح أستاذنا ولا يمزح في دروسه واختباراته. مع ذلك فاجأنا ذات يوم:

– لا درس لدينا اليوم، بل امتحان صعب، والممتحن هو أنا. إما أنا أو هذا الأبليس الواقف على الشرفة؟

وأشار بإصبعه إلى قط واقف على شرفة السطح يتمطق باسترخاء ويحك صدره بعد أن أكل ثلاث من أعز طيور أستاذنا.

جمع أستاذنا كل حقده ودهاء الشر في داخله ونصب للقط في باحة البيت فخاً كهربائياً بين صينيتين. وضع في السفلى وجبة شهية من أفخر العظام. معه اختبأنا في الغرفة وخفضنا رؤوسنا وأصواتنا لنفسح للقط أن يتقدم نحو مائدة الموت باطمئنان. أخطأنا في تقدير ذكاء القط وخبائثه. كان أكثر حذراً مما تصورنا فلم ينزل من عليائه بسهولة. على عكسه تقدمت زوجته البريئة من دم الطير نحو المائدة دون تردد وبامتنان لكرمنا. سحب أستاذنا يده المتاهبة من زر الكهرباء والتفت إلينا:

– قلبي لا يطاوعني. أريده هو!

مضت دقائق، ربع ساعة، نصف ... ونحن ننتظر بأنفاس متسارعة أن يخطو القاتل خطوته الأولى، لكنه قاوم إغراء الوليمة وهو يرجف أذنيه ويتطلع إلى الزوايا مفكراً «علام هذا الكرم المفاجئ؟» عارفاً وزن جريمته وحقد صاحب الطيور عليه. بقي يحدق بزوجته وهي تقلب العظام في الصينية بفضول وترقب. حين فتح أستاذنا زر الكهرباء وقد

مكتبة الفكر الجديد

نفذ صبره، صرخت القطة من الصعقة، ومعها صرخ القط متضامناً دون تورط في وليمة الموت.

هذه الحادثة علمتني أن أصنف القطط في بيتنا كما الشخصيات الروائية، بينها البريء، والطيب والصبور والمكابر، والمخادع، وفيها القاتل بدم بارد.

على كثرتنا وكثرة القطط في هذا البيت الضيق الفقير برعت أمي في تغطية تهالك أثاث البيت بشراشف طرزتها بنفسها وفي معالجة الفقر بالنظافة. كرهت عملية تنظيف البيت طول عمري لأنها تذكرني بالمرأة الزاحفة على ركبتيها وهي تدعك بالممسحة أرض الدار، وقد توترت حتى احمرّ وجهها مع الجهد الذي تبذله. كنا نعود من الزقاق، وقد تلطخت أقدامنا بالطين، فتصرخ أمي طالبة أن نقف على أطراف أصابعنا عند حافة الجدار، ولن ندخل البيت حتى نغسل أقدامنا.

ومثل الكثير من النجفيات تخبئ أمي عنا الحلويات والفواكه محذرة «هذه ليست لكم، بل للخطار!» وكنا أنا وصبيح نكره (الخطار) كرهنا للبعوض، لذلك نسبقهم للوصول إلى حصتنا. ندفع دولاب الملابس الثقيل بعيداً عن الحائط ونفتح بالمفك أكثر من خمسين من براغيه الخلفية لنسرق واحدة من البرتقالات الخمسة أو قطعة بقلاوة، ثم نعيد شد البراغي، ونعيد خزانة الملابس إلى مكانها كأنّ شيئاً لم يحدث. تستعيذ أمي بالرب من الجن الذي دخل دولاب الملابس المقفول والمفتاح الوحيد معها.

حين ندعى لأحد معارفنا نسمع بالتأكيد سلسلة الممنوعات المعهودة:

– لا تغادروا أماكن الجلوس من دون أن أسمح لكم!

– لا تجيبوا عن الأسئلة التي تطرح عليكم في غيابي!

مكتبة الفكر الجديد

– لا تتحدثوا عن معارك بيتنا!

– لا تمدوا أيديكم حين توضع أمامكم الحلويات أو الفواكه!

– لا تأخذوا من يد المعزبين إلا حين أقول لكم!

– وحين أسمح لكم لا تزلطوا ما يقدم مثل المشوهين!

– ولا تلطخوا ملابسكم حين تأكلون!

– اكبتوا الغازات حين تحاصركم ولا تفلتوها كما في المرة السابقة!

نجلس ملتصقين بأمنا مثل تماثيل خشبية وبين آونة وأخرى تقرصنا محذرة من مخالفة لائحة التعليمات. كل قطعة من جسدي ممسكة بالأخرى حتى لا تفلت... لن يدوم الكبت طويلاً حتى تفلت الأمور وتنكسر كل الممنوعات على التوالي: نغادر مكان الجلوس لنلعب مع أطفالهم ونكسر على الأقل شيئاً من مقتنياتهم، نقول لهم بأن والدي حقاً يشرب الخمر، وفي كل يوم، وإنه تعارك مع أمي مرتين خلال الأسبوع. نفعل كل ذلك، ونستعد حين نغادر لجر الأذن والضرب الروتيني.

(غرفتي) الخاصة تقع في منتصف السلم الخارجي للبيت، ليس لها سلم ولا باب أو نافذة. هي أصغر من بيتونة فراش ومعلقة فوق. لكي أصعد إليها تعلمت مهارة قرد في التسلق شابخاً قدميَ ويديَ بين جدارين ثم أقذف نفسي فيها. في هذه الغرفة أودعت أجمل ما لدي؛ لايت يدوي يضيء بثلاثة ألوان، آلة كمان بلا قوس، جرة فيها حفنة من البلي والكعاب، تمثال بدوي على جمل، هدية من الفنان هادي اللواني. على الجدار علقت صورة محمد علي باشا الكبير وهو على حصانه، ممسكاً بسيفه وخلفه أهرام مصر، هدية من مجلة الهلال. كنت أجلس في هذه الغرفة متكوراً كما الجنين في بطن أمه، وأحياناً أدعو ياسين اللواني ضيفاً، فتتقارب ركبتانا، ونضحك من ضيق المكان. لكثرة ما

مكتبة الفكر الجديد

جلست متكوراً صرت أنام في فراشي كما الجنين وتشكلت قامتي وفق حجمها.

في هذا البيت دخلتنا فرحتان: الماء والذهب!

للمدينة تاريخ من العطش رغم أنها على بعد أميال من مياه الفرات. شحة الماء كان سبباً في خسارة النجف موقع الصدارة في الدراسات الدينية لأربع مرات دامت بمجموعها أربعة قرون، لصالح الحلة ثم كربلاء ثم سامراء وآخرها قم في إيران. وقد خاطب المدينة لائماً شاعرها أحمد الصافي النجفي:

جلستْ على الأنهار بلدان الورى فَعلامَ أنتِ جلستِ في الصحراء؟

لم يضع الشاعر في احتماله أن تكون المدينة قد عاقبت نفسها على عطش الحسين باختيارها هذا الموقع.

عشت في طفولتي هذا العطش وأنا أنظر إلى الحنفية الوحيدة في بيتنا وقد جفّت لفترة طويلة. والدي ووالدتي يوقظاننا في منتصف الليل من كل يوم لنستدرج قطرات الماء الشحيحة قطرة قطرة، فنملأ على التوالي الأباريق والقدور والعلب وتنكات الصفيح الفارغة. نقاوم النعاس جالسين على السلالم حتى تستنفذ القطرة الأخيرة ... بقينا هكذا سنوات بانتظار اليوم الموعود الذي يفتتح فيه مشروع الماء الجديد.

أتذكر ذلك اليوم السعيد، يوم الماء، الذي أعلن فيه عن انتهاء المشروع. تجمع الناس في كل البيوت بانتظار الفجر الذي سيفتح فيه المحافظ حنفية المدينة. سمعنا صفير هواء محبوس، بقبقة تلاها شخير، دوي يتسرب تحت أزقة المدينة، ثم انفجر الماء داوياً مزغرداً في الحنفيات التي أهانها العقم طويلاً.

بمرح وزغاريد وطلقات احتفال، صرنا نوجه الماء عالياً إلى السماء، كما دعوات الشكر لله، بعد صلاة استسقاء، وصرنا نسبح بملابسنا

مكتبة الفكر الجديد

بالماء النازل من السماء، ونبلل جيراننا، ونحن نتبادل الماء عبر الجدران العالية، بدلاً من التهاني بالكلمات ناسين أو متناسين عطش الحسين.

الفرحة الثانية كانت بالذهب بدل الماء. فبعد أيام من انتهاء فاتحة جدي شيخ عبد اللطيف فتح الأولاد من الزوجات الأربع أول جرة مخبأة، خزنت فيها ليرات جدي المجيدية. حصة أمي طبعاً نصف حصة أي من إخوتها الأصغر منها. وقد تسلمتها مجمعة في منديل أزرق مشدود من أطرافه الأربعة. جمعتنا حولها وكان والدي ينظر بطرف عينه متصنعاً اللامبالاة . ارتجفت أصابعها وهي تفك العقدة وسط دائرة من عيون تنتظر معجزة الساحر، ثم سمعنا أجمل رنين لليرات الذهبية وهي تنهال على أرض الغرفة العارية. قطتان كانتا تتابعان معنا رنين الذهب وتشاركاننا أحلامنا الطليقة. أنا أول من لمس الليرات للتأكد من أن الأمر ليس حلماً. رفعت حفنة منها ونثرتها على رأسي كأنني أغتسل بها من فقرنا. تابع إخوتي بقلق الليرات المتدحرجة الشاردة... حين هدأنا أطلقنا مخيلاتنا على راحتها:

– سأشتري دراجة هوائية مثل ابن البلاغي ...

– و لمَ لا تكون سيارة، بدلاً من الدراجة مثل سيارة القائممقام.

– أنا سأشتري بدلة شبيهة بالتي لبستها سندرلا.

– دمية تنادي مـــــــــامـــــــــا حين أقلبها على وجهها...

والدي الذي بقي صامتاً كالمأ فرحه قالها بهدوء:

– سنبني بيتاً على قطعة الأرض في حي السعد، بيت بحديقة.

بصمتها أيّدت أمي ما قاله والدي. فحين توفرت الإمكانية شعرنا فجأة بتهالك بيتنا وضيق شارعنا ومحلتنا التي أثقلتها الممنوعات. صارت المدينة عتيقة وأحسسنا بأننا نخيس فيها وينبغي أن نغادرها في أقرب وقت.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

وادي السلام

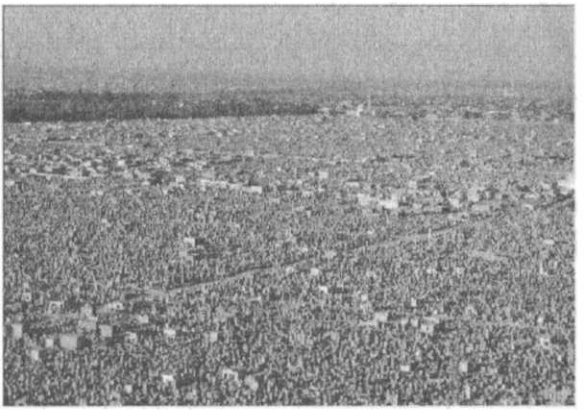

أمطّ جسمي وأنا أنهض من فراشي فوق سطح البيت، والتفت إلى يساري، فتمتد المقبرة حتى نهاية الأفق، محيطة بالمدينة من شرقها وشمالها، وقد اصطفت القبور مثل مصلين رؤوسهم من حجر باتجاه الكعبة. الموت، الموت، الموت ... عالم الموتى الممتد أمامي يوازي عالم الأحياء في المدينة ويزحف نحوه.

أنظر من نافذة الصف في مدرسة السلام الواقعة عند حافة المقبرة غير آبه بالمعلم وهو يرفع صوته مذكراً بأن (العم الدب أبو فهد) وجد في النهاية نظارته فوق حاجبيه[٤]. بين عالم الموتى وعالم الأحياء بقايا سور

---

(٤) قصة في كتاب الصف الثاني الابتدائي في الخمسينات.

مكتبة الفكر الجديد

المدينة المهدم، لا أعرف أياً من سكان العالمين فتح في السور هذه الثغرة للعالم الآخر. من بعيد أرى بضعة أنفار يتدحرجون من باب القبلة عبر جامع الطوسي إلى وادي السلام. يدورون باحثين عن بقعة خالية من الأرض لدفن موتاهم. من مكاني لا أسمع صوت المرأة النواحة خلف الجنازة ولا تكبيرات حاملي النعش. المشيعون يبدون صغاراً وسط مساحة الموت وتحت الشمس التي تعطي للمشهد واقعية الموت والنهاية الباهتة للحياة. ستتعب المرأة بالتأكيد بعد أن يهال التراب. تشرق بصوتها وتكفكف دموعها حين يدفع أهل الميت أجور الدفانين. بعد هذه النهاية الباهتة يسود الصمت والذهول.

ومن ساحة المدرسة الخلفية أرى سرباً كسولاً من الحداءات يخط دائرة فوق المقبرة، منجذباً برائحة الموت الطرية، أراقب طيرانها المنزلق في الهواء وظلها العريض فوق القبور، وأنتظر اللحظة التي تنقض على فريستها.

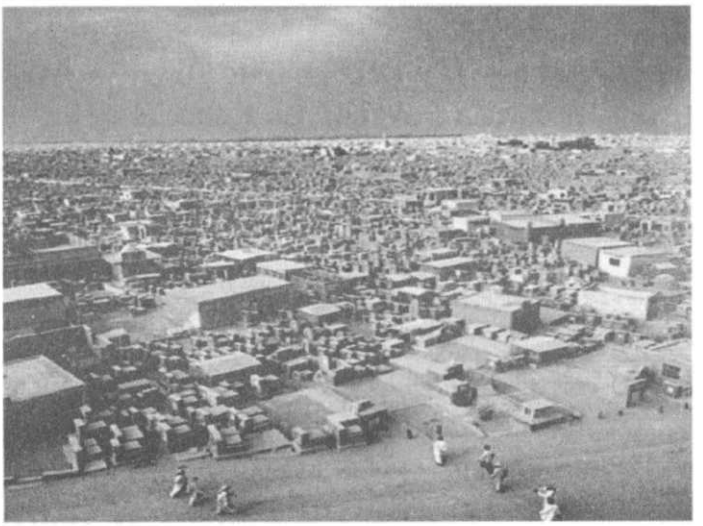

مكتبة الفكر الجديد

على طول السوق الكبير في النجف يقطع المنادون فرجتنا على البضائع لنفسح الطريق للموتى كي يمروا في توابيتهم إلى الصحن الشريف. ضبطت ساعتي مع سيل الموتى: جنازة كل دقيقتين.

في مدينة الموتى أسأل الأحياء وأسأل نفسي عن أناس أعرفهم فيأتيني الجواب:

– رحمهم الله!

في زحمة السوق أتلفت باحثاً عن رجل أصلع نظيف يفرش القماش المورد أمام مشترية شابة ذات غنج خارج عن إرادتها، أعرفها وأعرف أختها.

– ماتت محترقة بنار أخوها الكبير.

– غسلاً للعار!

–.....

ألتفت إلى يميني باحثاً عن حلاق يروي لزبائنه أخبار الموتى والأحياء الذي سيموتون. يموت الناس في مدينة الموتى حالما ألتفت إليهم، أو حينما تمسهم ذاكرتي.

أسير في أزقة المشراق، لصق الجدران، محتم بها من شمس حارة، تكشف لي أبواب بيوت أغلقت منذ زمن طويل، وتراكمت على عتباتها حجارة الهدم، هدم الزمن أو معاول التجديد. لم يعد في هذه البيوت ناسها الذين أعرفهم.

– رحمهم الله....

يمسني وأنا أسير بين خرائب البيوت ظل رجل يبسمل بصوت خافت. أكاد أسمع أنفاسه، مع ذلك لا ألتفت خوفاً من أن أرى جدي الذي رحل قبل خمسة عقود. لن ألتفت لهذا العابر.

مكتبة الفكر الجديد

– سلام عليكم!

ولن أرد السلام خوفاً من أن يتفتت الكائن الحي الذي مستني عباءته.

إنه ذاهب عكس مساري نحو الصحن الذي هربت منه، ومن كثرة الموتى الذين دارت جنائزهم حول الضريح قبل أن تمر من شارع الطوسي في الطريق إلى وادي السلام.

تحت الشناشيل الموشكة على السقوط أبلع ريقي وأتلمس نفسي لأتأكد من صلابة جسدي، وأنني لست ظلاً لذاتي التي ذهبت مع سيل الموتى.. أنا زهير ابن علي الجزائري، أسير في هذه الظهيرة الحارة من آب من بيتنا عبر الصحن نحو السوق الكبير».

كأن الناس المتزاحمين في السوق وهؤلاء الذين توقفوا أمام سحر البضائع والباعة الذين تقدموا ليفرشوا ألوانهم، كلهم متشاغلون في طابور يسير بخطىً وئيدة نحو عالم الأموات وهذه القبور بانتظارهم. أسمع الآن خشخشة مكبر الصوت قبل أذان الظهيرة، وإعلاناً عن رحيل...

– انتقل إلى رحمة الله...

داخل الصحن يزيح الموتى الأحياء ويحصرونهم داخل الضريح .. ثمة طابور من الجنائز يدور بسرعة غير اعتيادية ليفسح الطريق لطابور آخر في قافلة الموت، التي لا تنقطع. هناك جنائز بلا مشيعين لقتلى لم يتعرف عليهم أحد.

على امتداد المسافة القصيرة بين جامع الطوسي والمقبرة يسبقني الموتى بتوابيتهم، متعبين من طول الطريق مستعجلين الرقود في وادي السلام. خلف واحد من التوابيت سمعت فلاحة ملفعة بالسواد تصرخ منادية الإمام علي:

مكتبة الفكر الجديد

– أجاك يا ابو الحسن والحسين. إجاك حسين ممدد بعد ما كان يهز الكاع بهوساته. إبني أمانة بترابك يا أمير المؤمنين!

ماكنة الموت وعمالها يتحركون بلا كلل: مستقبلون يدعون نجفياً (أهل الصيحة) انتفخت دشاديشهم وهم يسابقون الريح على دراجاتهم ليعرفوا هوية الميت وهو في الطريق إلى المدينة. وحالما يلتقطون الاسم سيبلغون الدفان ليهيئ للميت حفرة، ثم يبلغ قارئ العائلة ليلبس جبته وعمامته على عجل:

– للمرة الثالثة هذا اليوم.

ويقف عند باب الصحن لاستقبال الجنازة بالتسابيح. سيقرأ نيابة عن الميت سائلاً الإمام أن يسمح بالدخول. يدور القارئ مع الجنازة حول الضريح ويقرأ الفاتحة ثم يغادر مع المشيعين من باب القبلة، عبر شارع الطوسي، نحو المغتسل حيث يمدد الميت على (الرخامة) وقد انحلت كل مفاصله واسترد وجهه الحقيقي بعد أن غادر توترات الحياة. سيغسلونه بأوراق السدر والكافور ثم بالماء القراح ويخرجون من أذنيه ومنخريه وما بين أسنانه كل ما بقي من فضلات الحياة التي غادرها

مكتبة الفكر الجديد

ليذهب إلى ربه كما جاء عارياً نظيفاً. الحفارون سبقوا الجنازة وحفروا في الأرض الرملية حفرة تتسع لجسد. سينزلونه فيها بروية على ضوء الفانوس وتراتيل القارئ ونحيب الأهل.. لن يسمعهم ولن يراهم بعدما أهيل عليه التراب. لن ينفعل عمال الموت، فعمّا قليل سيأتي آخر ليمر بالدورة نفسها.

عند وادي السلام تهدأ الدورة ويتحقق سلام النفس عند الأحياء وتصغر هموم الدنيا وأطماعها الصغيرة حين يرى الحي نفسه وسط بحر من الموتى لم تبق منهم غير هذه الشواهد المتربة. رأيت المقابر في أوروبا وقد تحولت إلى حدائق ومتنزهات. القبور هنا، بتقشفها وفقرها، هي الشاهد الأكيد على واقعية الموت، وبالأحرى عودة الإنسان إلى مادته الأولى، تراباً.

في الليل عندما يهدأ عمال الموت يمس القمر بضوئه البارد شواهد القبور. وأرى في سكون المقبرة ضوءاً وحيداً لـ (مقبرة البغدادي). يروي النجفيون أن تاجراً من بغداد فقد وريثه الوحيد فنذر كل ثروته لابنه وبنى في وادي السلام قصراً بدل القبر. أثّثه بأفخر الأثاث وملأ دواليبه بأجمل البدلات وأغلاها، وعين خدماً لينظفوا البيت ويطبخوا الطعام وواحداً يشبه صوت ابنه ليرد على التلفون حين يشتاق الأب للحديث مع ابنه، بل يذهب البعض إلى أن الوالد زف زوجة شابة ببدلة عرسها لتنام مع الابن وتلد له أطفالاً. لم يزر الأب قبر ابنه (المسافر) أبداً حتى لايرى وهمه وقد تكشف عن تراب مثل الآخرين.

رغم أني محاط بالموت ومطوق بالمقبرة، كنت، ويا للعجب، أكثر خوفاً منه! كل ما أفعله وأنا أرسم أجمل الأشياء والعب كرة القدم بحماسة وصخب، هو أن أتحاشاه. لم أهضم أبداً أن ينقطع الإنسان بصدفة فجة عن هذه الدنيا وعن عاداته المحببة، عن مشاريعه التي لم تكتمل بعد، عن أحلامه البعيدة، عمّن يحبونه ويحبهم، ويصبح

مكتبة الفكر الجديد

جثة ممددة بين النائحات واللاطمات. كل ذلك يبدو مرعباً، أن يدفن الإنسان تحت التراب ويصير شيئاً.

في صغري علقت ابنة خالي (هيبت) حول رقبتي خيطاً أحمر من الصوف الخشن وحذرتني:

- حافظ عليه! هذا خيط العمر. إذا انقطع انقطعت حياتك!

من خوفي على خيط العمر هذا، وحرصي على أن لا ينقطع قطعته بنفسي في حركة رعناء... بقيت طوال اليوم أتنفس بصعوبة كأنني الآن تحت التراب، بقيت مرعوباً حتى قال لي والدي:

- دعك من هذه الترّاهات.. أمامك عمر طويل وما ذاك الذي انقطع إلا مجرد خيط.

مكتبة الفكر الجديد

عاشـــــــــــــــــــوراء

في كل عام نستعد لاستقبال عاشوراء بالسواد. البيوت وضعت أعلاماً سوداء في واجهاتها تنقل النداء القديم (يا حسين!). السواد يغطي المدينة وملابس الناس من أول محرم حتى نهاية صفر. لكن الحزن ليس اللون الوحيد للمناسبة، فعاشوراء شهر الحيوية والاستعراضات أيضاً، وهو شهر الإثارة والتحدي. وعلى عكس التصور الشائع بأن العراقيين لا يعرفون النظام فإن ترتيب المواكب وتسلسلها وتحضيرات الطعام والماء والحراسات وهيئات الإدارة تثبت أن الحكام كانوا على جهل بالطريقة التي ينبثق فيها النظام من تقاليد الناس وإرادتهم ومبادراتهم، ومن حاجتهم إليه، وليس فرضاً من الأعلى.

الصحن ومحيطه تحولا مسرحاً تستعرض فيه الهوية الكبيرة للشيعة

مكتبة الفكر الجديد

كطائفة، وفي داخلها الهويات الصغيرة للمدن والمحلات والعشائر والمهن على شكل مواكب. يخرج الأفراد من فرديتهم ليندمجوا في طقس جماعي ويخرجون من الحاضر إلى التاريخ ليعيشوا واقعة حدثت قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام. كلٌ يجسد رؤيته للمأساة أو الملحمة. العامة يرونها مدعاة للبكاء، والموامنة فرصة للإرشاد الديني، وللعشائر تتجسد كمعركة بطولية. وتأخذ طقوس عاشوراء بعداً سياسياً متغيراً إضافة لبعدها الثابت، وهو تأكيد هوية الشيعة ومظلوميتهم التاريخية، وأيضاً الاستعداد للشهادة إسوة بالحسين، كما في مظاهرة (مَرَد الرأس) عام ١٩٧٧، أو المشاركات الحالية في تحد للعمليات الإرهابية التي تستهدف تجمعاتهم. ومادامت ثورة الحسين قد استهدفت الطغيان الأموي في عهد يزيد إلا أن معناها يتجاوز العصر ويشمل الطغيان عبر العصور بتقسيم الناس بين أنصار الحسين وأعدائه من الحاكمين الطغاة وأعوانهم.

كنت أسمع فاضل الرادود الخارج تواً من السجن في أيام الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي يردد من المنبر:

– عندك يا أبو حسين عندك

تشكي المسلمين عندك

من اليهود ومن ربيبتها

فرنسا البربرية

يا حامي الحمية

ويستمر يعدد شكاوى المسلمين، وهي في الغالب شكاوى سياسية، حتى تأخذه أجهزة الأمن من منبره إلى السجن ثانية. يتغير قاتل الحسين (الشمر بن ذي الجوشن) عند مسرحة المأساة شكلاً ومحتوى حسب الأزمنة وتنوّع الأعداء. مرة يلبسونه بدلة وقبعة عسكري إنكليزي

مكتبة الفكر الجديد

ومرة يخفونه وراء نظارة سوداء مثل رجال الأمن، وأحياناً يظهر بشارب كث وهيئة متغطرسة مثل دكتاتور. من موقع المتفرجين نعرف بسليقتنا إلامَ يوحون بشكل الشمر هذا. نعرف ونتبادل فيما بيننا رموزاً وألغازاً ذات معانٍ زلقة. السلطات أيضاً تدرك المعنى الرمزي العام للطقس، كمظاهرة احتجاج تاريخية، وترسل مخبريها ليسجلوا البستات والهوسات وأحاديث المنابر.

طوال الأيام العشرة ممرّ المواكب تباعاً وتتجمع عند منابر الرواديد، وكنت أسمع من بعيد صوت عبد الرضا الرادود فأتتبع صوته يتردد بإيقاع منغم ثابت:

حرمله، حرمله

من قطع راس الطفل

هالطفل، هالطفل!

شمسوي ذنب وينكتل؟

عبد الرضا الرادود ومجلسه في عاشوراء.

مكتبة الفكر الجديد

أسمع صوته العذب الصافي، يتردد في أرجاء الصحن، ومنه إلى المدينة الثملة بأصوات عدة تتقاطع وتتداخل وتسري خافتة عبر الأزقة الضيقة. يتناوب إيقاع صوته الممتد مع الدوي الثابت للكورس المكون من مئات اللاطمين تحت منبره. وأسمعه بين جولة وأخرى يعد جمهوره:

– ماجورين، ماجورين عند أبي عبد الله.

يشتد اللطم ويتسارع مع إيقاع صوته حتى يتحول إلى دوي، وتنتاب الرجال حالة من الصرع كلما اقتربت النهاية. يريد كل واحد منهم أن يصل إلى الذروة، ذروة الألم وذروة اللذة معاً.

أدمنت سماع رواية عبد الزهرة الكعبي لمأساة الحسين، وما زلت أحتفظ بشريط مسجل له. مع أنني سمعتها مراراً، بقيت أتخيل مئة ألف من جنود عبيد الله ابن زياد برماحهم وسيوفهم يحاصرون مخيماً فيه ٧٢ من أنصار الحسين، بينهم نساء وأطفال. يجف ريقي وأنا أتخيل عطش الرضيع، وتساقط النبال كالمطر. بكل طاقة عجزي أحاول أن أعين العباس على الوصول للنهر، لحمل قربة الماء بيد مبتورة. أتخيل مصير القاسم العريس، ثم حريق الخيم وعويل النساء.. يبدأ الكعبي روايته بالوصف بإيقاع باك ورتيب، يرتفع شهيقاً مع اشتداد الحصار وعطش السبايا وتساقط النبال، ثم يغصّ بصوته وهو يئن مع الحسين المثخن بالجراح والنبال وبينها سهم بثلاثة رؤوس.. عطشاناً يقاتل وهو يردد:

– إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني!

لا ضرورة لأن يتخيّل المستمعون سياق الصور وهم يسمعون الحكاية، فالصوت وتلاوينه والتوافق بينه وبين مستمعيه الذين يعرفون سياق الحكاية مسبقاً، يلعب دوراً في تهييج أحزان الناس الراكدة.

فيما عدا أصوات الخطباء والرواديد تتغطى الجدران بالصور. صور

مكتبة الفكر الجديد

الأبطال منفردين، القاسم الجميل العريس وعروسه في طرف الصورة، منكسة الرأس، وقد غطى وشاح العرس، الذي لن يحدث، وجهها. العباس مبتور اليد، منكباً على النهر لا يشرب الماء رغم عطشه، ففي خياله صورة أخيه الحسين وبيده الرضيع ينتظران الماء. الحسين مسجى في حضن أخته زينب يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديها، وقد تطرز جسده بالسهام... تتكرر الصور أمامي وأنا أسمع القصة. لكن صورة فريدة تستوقفني على جدار جامع متداع في سوق العمارة. فيها كثفت أيام الحصار الثلاثة في لحظة واحدة، وتقلصت ساحة القتال في مترين من القماش المدعوك. الرسام نظر لساحة الطف من كل الاتجاهات.. من موقع الرب الذي يرى الجميع تحته وقد رسم مسبقاً مصائرهم، من عين المشاهد الواقف على تل، ومن لوبة المحاصرين في المخيم. ليس هناك بعيد أو قريب، فالكل مجتمع على السطح قرب مجرى الماء، العباس حاملاً قربة الماء ويده الأخرى مقطوعة والسيف بين أسنانه، وفي الوسط، وبحجم مكبر، الحسين وحوله آل بيته، وقد غطيت وجوههم ببراقع من نور أخضر. كنت على يقين بان الذي رسم الصورة بكل هذه التفاصيل جلس مثلي وسمع الحكاية من الكعبي وأعاد رسم ما سمعه على القماش.

تأتي هذه اللوحة إلى مخيلتي، وأنا أسمع الحكاية، وأسمع نواح النائحين تحت المنبر، بعضهم يشهق بصراخه وهو يلطم رأسه.

– كل دمعة على الحسين تمحو مئة ذنب يوم القيامة.

عويل النساء يرتفع حتى يشق القلب حين يدخل القارئ قصة السبايا من النساء وقد أخذن مشياً على الأقدام من كربلاء إلى الشام:

نحبت النساء مع الطفلة رقية حين رأت، وهي في السجن، رأس والدها الحسين مقطوعاً:

مكتبة الفكر الجديد

إخْتَك مَا ظَلَّتْ بِنِيتَك   ظَلَّتْ مِن كِطْعَوا جَفِيتَك
ظَلَّتْ يَوم الطَفُّوا عَيْنَك   مِن جَنْب تْخُوضي عْبايتَك
خِيمَة زَيْنَب مَا حِرْكُوهَا

فَارْكَت اخْتَك وِمْلِيتِهَا   زَيْنَب خْتَين لَتْ تْسَلْمَهَا
دَاح بَين امهَا وِيتْهُو البِنْتَهَا   لا إلْت البِنْتَهَا ولابَين امهَا
وِيزَفّون الخيمَة يْنهبوهَا

بَين وِجعانِ الّي غَل جِنعَا   وِتْنَالِيع جِنزالِه يَتْنَعا
وِنْجُول الخَيَالَة نْخِنفَا   والخَيالَة ظلون بْرزنَا
والبولوهَا تيرحنوهَا

حِرْكوا يْهِبّوا يِلْبوا حِجر   يحْكوا اطفال الّي بالبر
بِرزَت مِن النار اليِنعَر   بالخَيل تلكاهَا العكر

وبالخَيل ظلون تلكوهَا
وعكب اليوم الصار عليهَا   وين الأنذار تردّيهَا
حكالك اصبح عاديهَا   كلساعة ويحكر ليهَا
من جان نصكه ينبروهَا

- [٥]من الوريد إلى الوريد روحي له الفدا.

أعرف، وقد قال والدي ذلك مراراً، أن الناس من حولي يبكون أنفسهم ومظلوميتهم قدر ما بكوا الرجل الذي استشهد قبل ألف وأربعمئة عام، مع ذلك لم أمالك نفسي وأنا صبي، فقد بكيت مع الباكين حين دخل الكعبي المقتل وصاح بصوت الحسين بعد مقتل أخيه العباس:

- لقد كسر ضلعي.

نذهب إلى الصحن كل يوم ونحن نعرف مقدماً ما الذي سيحدث،

(٥) من كتاب عباس الترجمان عن اللهجة النجفية ص٧٢.

مكتبة الفكر الجديد

نعرف المواعيد بالساعات ونعرف ما سيفعله كل موكب، ومع ذلك نهيئ أنفسنا لنستقبل المألوف كمفاجأة.

المواكب وطقوسها تتطابق مع السياق التقليدي للدراما. تبدأ بمقدمة هادئة، ثم ترتفع إلى ذروة عاطفية تصل حد الشهيق والغصة ثم تنزل إلى قرار يتبع الغيبوبة.. كلها عدا موكب محلتنا العمارة الذي يبدأ من الذروة وينتهي بها. الجمهور المتجمع والمهيأ للإثارة يعرف كيف سيدخل موكب العمارة، لذلك يتراجع المتفرجون مسبقاً عن طريق حملة المشاعل وتلم النساء أطفالهن إلى الوراء وقد سمعن من بعيد هوسات العمارة وعرفن بالسليقة والتجربة أن (الطايح رايح) بين الأقدام في هذه الموجة البشرية العمياء.

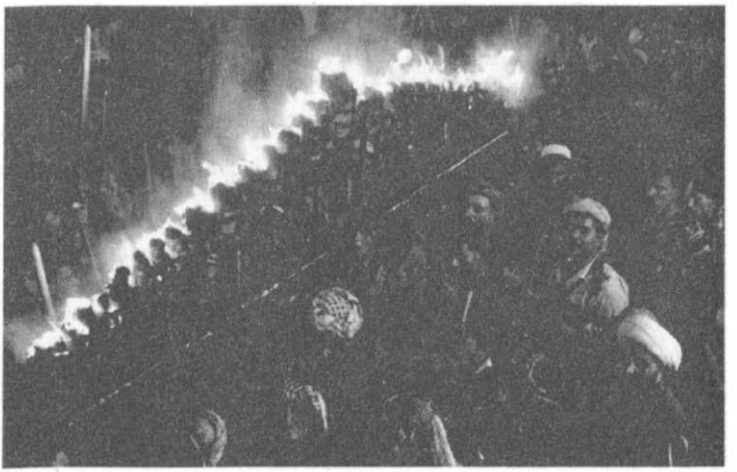

أقوى الرجال وأكثرهم تحملاً للألم سيحملون على أكتاف قويةً صفاً من المشاعل آخذاً شكل مشط مقلوب، على طرف كل سن فيه سلة معبأة بقماش منقوع بنفط أسود بطيء الاحتراق. يدور حامل المشعل ويدور معه خط النار وتحته ينحني الرجال على شكل موجة دائرية،

مكتبة الفكر الجديد

تنحني ثم تنهض وتدور المشاعل فوق الرؤوس فتنحني ثم تنهض ولا تنقطع الهوسة:

– أبد والله ما ننسى حسينا! أبد والله ما ننسى حسينا!

تدور المشاعل، تدور.. تدور فتمر النار فوق رؤوسنا وتلفحنا حرارتها وتسقط قطرات الزيت المحترق على ظهورنا، ومع ذلك ننحني ثم ننهض، وينتاب الرجال وهم يدورون مع دوران المشاعل نوع من الحماسة الانتحارية عند دخول الصحن:

– أبد والله ما ننسى حسينا!

رجالاً ونساءً وأطفالاً نخرج كمشاركين أو متفرجين، وفي الحالتين نشعر أننا داخل الطقس وقد طوقتنا واحتوتنا المؤثرات مشهداً وصوتاً ورائحة. الأعلام والرايات والهوادج، سفينة النجاة الذهبية المزينة بأضواء ملونة، ظهور الرجال العارية المدماة وهم يتسوطون بجنازير من شفرات، روائح البخور والعرق وزيت المشاعل، أصوات الطبول والأبواق والصناجات والنقارات:

– طو طو، طوطو، طوطو.. حيدر، طوطو، طوطو، طوطو.. حيدر...

كنت أعجب بالرجال في المشق[٦] وقد لبسوا الأكفان البيضاء، وبعضها ما زال ملطخاً بدماء العام الماضي والذي قبله، يمتشقون السيوف بحركة توحي بسحب السيف من غمده ثم تمريره فوق الرأس على شكل قوس عريض وإنزاله إلى الأرض كمن يقطع خصمه نصفين:

– حيدر.

(٦) كلمة مشق تأتي من امتشاق السيف في واحد من طقوس عاشوراء.

مكتبة الفكر الجديد

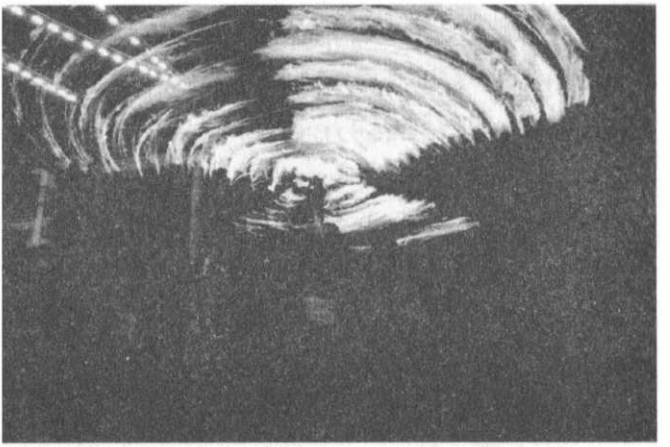

مشاعل عاشوراء تدور فوق الرؤوس

يؤدي الرجال هذه الحركات على إيقاع الموسيقى بحركات رصينة ومتقنة وقد أمسكوا ببعضهم في طابور موحد الحركات.. لقد فعلوها لعباً بالعصي في طفولتهم ثم احترفوها بالسيوف. في العاشر من المحرم لن يكون الأمر مجرد تمرين إنما ستسيل الكثير من الدماء وستتغطى هذه الأكفان البيضاء بالدم.

كنت بين الإثارة والفضول والهلع كنت، وأنا طفل، أرى الرجال وهم يضربون رؤوسهم الحليقة بالقامات[٧] والسيوف. أسمع صراخ النساء وهن يبتعدن عنهم، فيصيبهم نوع من الهوس وهم يضربون رؤوسهم بالقامة بتواتر دائرين حول الضريح من مزراب الذهب عودة إليه. اختفيت وراء عباءة أمي وأنا أرى واحداً من الترك، طويل القامة، كث الشاربين، مغطى بالدم، يدور حول نفسه وبالقامة يحاول إبعاد

(٧) القامة هي السيف القائم العريض والمستقيم (الصفيحة)، وقد استخدمها القزلباش الأتراك للتطبير.

مكتبة الفكر الجديد

حزمة من الرجال يحاولون انتزاع سلاحه خوفاً عليه. ازداد هوساً وصار يضرب بقوة وهو يغمغم (حيدر، حيدر، حيدر...) ويقترب من حشد النساء الصارخات. من وراء عباءة أمي رأيت بوضوح هيأته المرعبة وقد تغطت شواربه بالدم وبالكاد رأيت جفونه تتحرك، متابعاً دورة الرجال حوله، وعندما ارتفع صراخ النساء صار ينفخ بقوه ليزيد نافورة الدم تدفقاً. في الحلم رأيته في نفس الليلة يوقظني من نومتي وقد تكلل بالدم وفي فمه ثعبان قصير.

عندما صرت صبياً رأيت المشهد ذاته، تهيجت وأنا أسمع صراخ النساء وعرفت ما يكمن في المشهد من استعراض للرجولة التي تثير النساء وتخيفهن في الوقت نفسه.

المراجع والمجتهدون، بما في ذلك الذين أفتوا بثواب أذى النفس من أجل الحسين، لا يشاركون لا هم ولا أولادهم في التطبير والتسوط. الموامنة من أقاربنا لا يشاركون في مهرجان الدم هذا ولا حتى يتفرجون عليه. يرددون بسخط، ولكن بصوت خافت:

– هذه بدعة وثنية دخلت الإسلام في عهد البويهيين، المراجع حرّمتها لأن فيها أذىً للنفس.

وكانوا يريدون لعاشور أن يتكيف حسب حرفتهم، أي مناسبة للإرشاد الديني والتذكير بمعنى الشهادة.

أقاربنا الفقراء الذين نسميهم موامنتنا (العمايدية: أي السوقة) من آل اللواني، على عكسهم، لا يريدون الاستماع لحكاية مكرورة، إنما يريدون أفعالاً حربية، فيهوسون مع موكب العمارة:

– أبد والله ما ننسى حسينا!

يعودون إلى المحلة بأكفانهم المغطاة بالدم، مفاخرين بأنهم تطبروا بأيدي سادة الواعظ، عند ضريح الإمام، وأن (كل قطرة دم ستعوض في

مكتبة الفكر الجديد

الجنة بشفاعة أبي عبد الله). تأثراً بهم رحت لوالدي لأسأله أن أتطبر، فاحمر وجهه غضباً وكان جوابه حاسماً:

– سأطبرك بالنعال إذا فعلت!

وهو يتفرّج على المواكب من عمق المقهى ويسمع القارئ يتهلل «يا ليتنا كنا معكم– أي مع الحسين في كربلاء – فنفوز فوزاً عظيماً» طرح علي الصراف سؤاله المحير:

– إذا كان الكل، كما أرى، يريدون أن يشاركوا سيدنا الحسين جنة الاستشهاد من أجل عقيدته، فلماذا يحزنون على رجل سبقهم إلى جنة الخلد بأكثر من ألف عام؟

يطرح السؤال وكأنه يسأل نفسه، مع أنه يدري أن ذاك الحدث يعكس مظلوميتهم التاريخية.

ترتفع حمية المواكب منذ السادس من عاشوراء بدخول (التشابيه)، أجمل طقوس عاشوراء وأقربها إلى المسرح. كنت أتتبع خطى الموكب المتهادي بوقار وسط حشد المشاهدين، الموكب الذي يضم القتلة وقتلاهم. هناك رأيت الشيخ مهدي الجزائري، من دون عمامته، ممسكاً بلجام فرسه البيضاء، فخوراً بهذه العروس البهية التي تغطت فوق جمالها بالحرير والذهب، فخوراً بها وبالعريس الذي تحمله، صبي جميل يرتدي بدلة خضراء، وفوق رأسه خوذة من الذهب، مزينة بالرياش يمثل القاسم ابن الحسن. يمشي محاطاً بشلة من صحبه، يحملون أطباقاً من الآس وشموع الفرح. بين الفرح المفترض بالعريس وعرسه وبين الموت المرتقب الذي ينتظره تكمن الغصة. لن تصل العروس الجالسة في عزاء النساء ببدلة العرس وعلى وجهها برقع وحولها حشد من النساء ينشرن عليها آس الفرح. لن تصل لأن عريسها قتل ليلة عرسه ولذلك حل النواح محل الزغاريد.

مكتبة الفكر الجديد

أسير مع الناس بمحاذاة الموكب، متجنباً الهودج الأخضر الذي يضم السبايا من بنات الحسين، تمتد إليه أيدي النساء الواقفات على الجانبين متضرعات، باكيات. أتجنب الفرس البيضاء التي حملت القاسم العريس واليد التي حملت الطفل الرضيع وقد نبت السهم في نحره، أتجنب فرس مسلم بن عقيل، وأقترب من الحصان الذي لا فارس فوقه، فقد سقط فارسه العباس وهو يقاتل بيد واحدة، دفاعاً عن أهل بيته، تاركاً خوذته وسيفه، رمزاً لحضور الغائب.. هذا الفارس الشجاع الذي يثير الحمية بدلاً من البكاء كان أمثولتي.

مع الحشد أتبع الموكب وقد عرفنا الممثلين قبل ظهورهم على المسرح، نعرفهم بالاسم والفعل، مع ذلك نتجاهل معارفنا، ونلقي على المشهد ستارة داكنة من وعينا لنتماهى مع العرض القريب، كما لو كان كل ما يجري مفاجئاً. مع ذلك نعتبر أنفسنا، نحن السائرين مع الموكب، جزءاً من العرض، نعطش كما الحسين وآل بيته، وندري بأن طست الماء في طرف الدائرة يمثل نهر الفرات. يقترب العباس منه حاملاً قربته فيمنعه واحد من جند عبيد الله، نضحك لأن الممثل وهو من مهاجري محلة (الجديدة) ارتجل الرد بلهجته الريفية:

– ما انطيك إلا تجيب تسكرة (يعني ورقة موافقة) من يزيد.

بصعوبة، كتم شبيه العباس ضحكته وهو يسمع الرد، مع ذلك صحنا منبهين العباس حين اقترب من يريد أن يقتله غيلة، أكلنا قطع الحلوى المباركة التي نثرت علينا فرحاً بعرس القاسم، أكلناها ودموعنا تسيل لأننا نعرف، بينما العريس غافل عن مقتله القريب. تمتد أيدينا مثل حزمة لتحمل نعش ابن الحسين علي الأكبر وقد تطرز جسده بالسهام ... لا شيء يُخفى علينا نحن المشاهدون في هذا العرض المفتوح. حتى الرموز عرفناها، فاللون الأخضر يميز أهل البيت، وأحياناً يرتدون أكفاناً بيضاء ليبينوا استعدادهم للشهادة، وفي المقابل فإن الملابس الحمراء ترينا

مكتبة الفكر الجديد

الجيش الخصم المكلل بالدماء ويرتدي الشمر نظارة سوداء مثل كل رجال الأمن الذين خبرناهم ... ليس هناك مسرح منفصل عن المشاهدين ولا ستارة تمثل حاجز الوهم بين الممثلين والمشاهدين الذين شكلوا الدائرة المفرغة التي ستجري فيها وقائع المأساة. ويعرف المشاهدون سياق المأساة وفصولها، وقد مثّلت أمامهم مراراً منذ قيام (الميدان أو باب الولاية) في مدخل المدينة الشرقي، كمسرح ومربط للخيول التي تشترك في العرض. رأوها مراراً ومع ذلك يتماهون مع العرض وكأن المأساة تحدث الآن.

لا ضرورة لأن يكون الشبيه شبيهاً، فما من أحد دقق في تطابق الملابس مع زمانها. كيف يمكن لمقاتلين في جيش نظامي أن يلبسوا ملابس حمراء تميزهم حتى في حلكة الليل؟ ومن أين للشمر بنظارة شمسية وقبعة سائح إنكليزي؟ لقد أخرجت المأساة من زمانها وتطابقت رموزها مع الحاضر. أتذكر أن الحر الرياحي في واحدة من هذه المسرحيات صاح وهو يخرج من جيش عبيد الله لينضم إلى جيش الحسين:

– أنا الحر الرياحي ...

ونسي في عز حماسته بقية النص. المخرج، وهو الراوية، لحقه إلى وسط الساحة ليذكره ببقية الحوار. ما كان المشاهدون بحاجة إلى الشرح، فقد ارتفع صياح الرجال:

–عليهم!

ناصرتهم زغاريد النساء، وضاعت وسط هرج الحماسة شروحات الراوية. لا حاجة إليها، فالمشاهدون يعرفون الحكاية حتى من دون حاجة إلى الشرح. مع ذلك لا يستطيع الأعراب الذين جاءوا من قراهم النائية تحمل المشاهد، سيقفز واحد منهم، وقد أمسك بالكاد عقاله،

مكتبة الفكر الجديد

يريد أن يشارك بمقياره في الحرب الدائرة انتصاراً للحسين، وتهجم جوقة من الشبان الجسورين لتساعد في إطفاء النار في المخيم، وستهب امرأة لترمي الشمر بقطعة من الطابوق وتسقطه صريعاً.

موكب بني أسد

قبيل الفجر وبعد نهاية المقتلة سيدخل موكبنا (بني أسد)، في تظاهرة مؤثرة، وقد غطى أقاربنا رؤوسهم بالطين، تيمناً بتربة كربلاء التي سفح الحسين دمه فوقها. المسيرة يسودها وقار العائدين وتعبهم بعد دفن جسد الحسين. هلع وجوههم وحشرجة أصواتهم تعكس حيرة السؤال:

– تونا إجينا من الدفن راس حسين جا وينه؟

لا أدري لمن يوجه بني أسد السؤال عن الرأس المفقود، لأنفسهم أم للقتلة؟

الأفندية من أقاربنا، بما في ذلك العلمانيون، يشاركون في الموكب

مكتبة الفكر الجديد

كنوع من الانتماء للعشيرة الأكبر لكي يثبتوا للبقية أن أجدادنا كانوا هناك.

تهدأ الطبول والأبواق ومكبرات الصوت صباح العاشر من المحرم. وينسحب الناس بعد ليلة صاخبة، متعبين، إلى بيوتهم فتخلو شوارع المدينة، ويترك كل بيت عند مدخله ضوءاً أحمر، إشارة إلى الدم الذي سفح في كربلاء. آنذاك يخرج موكب الكهول ليحيي عشاء الغرباء (شامي غرييون) حين جرجر الأحياء من آل البيت أقدامهم، مكللين بالحزن، بعد المجزرة. يسير الموكب بخطوات بطيئة وتتناوب المجموعات بالتسلسل على رواية الحدث، ابتداءً من نهايته التراجيدية، وعودة إلى البداية، المجموعة الأولى تبدأ بالمقطع الأول:

غريب الدار يمشي ولا درى بالصار
روحه عالأهل والدمع يجري انهار

وتكمل المجموعة التالية المقطع الذي يليه:
غريب الدار تدري بالجرى والصار؟
النار بكربلا والدم بأرضها سار.

ثم تضيف المجموعة الثالثة:
...
أهل البيت صاروا أسرى للكفار.

مكتبة الفكر الجديد

.. يبتعد الصوت ويوشك على التلاشي، ثم يعود إلى المجموعة الأولى، حتى تكتمل الحكاية. لا ينتظر السائرون في هذا الموكب الحزين إثارة المشاهدين ولا يحملون راية أو طبلاً أو نقارة. يحملون حزنهم وصوتهم الرخيم الهادئ فقط، فتتردد في الأزقة الخالية أصواتهم وخطواتهم الكتيمة تماماً، مثل قبيلة تائهة لا بيت لها ولا اتجاه. أحببت هذا الموكب، أحببت زهده ووقاره وعمق حزنه.

مندهشاً وخائفاً وأنا طفل، مشاركاً مندمجاً وأنا صبي، صرت وأنا شاب مشاهداً. أجهز بصري ومخيلتي لاستيعاب زحمة المشاهد والأصوات والروائح. أختزنها وأحيل الماضي إلى الحاضر والحاضر إلى الماضي. صرت وأنا أسمع رواية القارئ لمأساة الحسين، أسأل عن السر في خلود هذه المأساة في وعي الشيعة الجمعي رغم تراكم مآسٍ تلتها وتفوقها في عدد الضحايا وعمق آلامهم. أسأل إلى أي مدى جسدت تلك المأساة ما سبقها وما تلاها من مآسٍ؟

أراقب مواكب المشق والتسوط والتطبير وأسأل (بأي معنى يمت هذا الدم لذاك الذي سال في معركة الطف في كربلاء، قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، كيف يمكن افتداء ذاك الحدث بهذا المشهد الدموي الحاضر، ما الذنب الذي ستغسله هذه الجموع بدمها ودموعها، وأي رمز ستحييه، وممن سيثأرون بقولهم يا لثارات الحسين؟). أميّز عروض المواكب وأراها تتراوح بين عقاب النفس والاستعداد لحرب مجازية. فهوسات العمارة تأخذ شكل التقاليد العشائرية عند الاستعداد للحرب؛ حيث تشعل النار عالياً ويدور حولها الرجال مع بنادقهم وخناجرهم ومقاويرهم، وتأخذ الكلمات واللحن والرقص شكل أفعال حادة استعداداً لحرب يكون فيها الواحد قاتلاً أو قتيلاً. صرت أنظر لـ (الشبيه) باعتباره طقساً مسرحياً لرواية رآها وسمعها الناس

مكتبة الفكر الجديد

مراراً، يعرفون الممثلين وما يجري خلف الكواليس في عرض ليس فيه كواليس وليس فيه حاجز وهم بين المشاهدين والممثلين.

جيلي وجيل من سبقني من الكتّاب والفنانين حرص على حضور المواكب كطقس ملحمي شعبي ينبغي استلهامه كموسيقى ومسرح ولوحات تشكيلية. موسى كريدي وبرهان الخطيب وأنا نقلنا هذا الطقس في قصصنا ونقله الحصيري في قصائده الحسينية الأولى، كما تبنّاه شعر الجواهري ولوحات كاظم حيدر وسعدي الكعبي، وألحان كوكب حمزة. كنت مثلهم أختزن الحكايات والمشاهد لعمل لا أعرف شكله يقع بين الرواية والمسرح والأوبرا.

مكتبة الفكر الجديد

الكتب والمخيلة

المؤلف في قيسرية الكتب.

عندما تفتحت عيناي على الكتب وجدت نفسي محاطاً بمكتبات أعمامي التي ورثوها عن أجدادهم. كتب ومخطوطات ذات أغلفة جلدية جُهمة، وعناوين غامضة مثل نهج البلاغة وأمالي القالي والأجرومية وكتاب القطر لابن هِشام، وألفية ابن مالك. قتر أجدادي على أنفسهم لشراء هذه الكتب من قيسرية الحويش، أو قضوا أشهراً منكبين على الورق لاستنساخ كتاب نادر بحبر من الزعفران وزادوا ما استنسخوه بهوامش من الدارسين. منهم تعلمت أن أذيّل الكتب التي أقرأها بتعليقات وتأكيدات قد لا تخلو من السخف. منذ صغرهم بدأ

مكتبة الفكر الجديد

أجدادي حياتهم بدراسة الروحانيات على شكل حلقات دراسية في الصحن العلوي أو المساجد. يبدأون بعلوم العربية وتاريخ الأدب، ثم علم المنطق صعوداً إلى علم الكلام والفلسفة والفقه. وتتشعب من هذه الدروس فروع لا نهاية لها. كنت أرى جدي عبد الكريم منحنياً في مكتبته حتى تكاد نظارته تمس ورق الكتاب وقد بلغ مرحلة الاجتهاد، مع ذلك تجنب نصيحة السيد أبو الحسن بأن يكون مرجعاً دينياً:

– أريد أن أصعد لربي خفيفاً بذنوبي وحدي.

ورفض في الوقت نفسه منصب وزير المعارف في أول حكومة عراقية.

معظم أبناء جيله ومن بعدهم حاروا في شبابهم بين الفقه والشعر، بعضهم غادر الشعر نحو الفقه مثل محمد سعيد الحبوبي وعبد الكريم الجزائري، على عكسهم ودع آخرون الفقه ومشاكله نحو الشعر وسحره كما الجواهري، وحاول آخرون الجمع الصعب بين الاثنين كما الشرقي والشبيبي والحليان حيدر وجعفر.

مكتبة والدي على صغرها كانت مختلفة كلياً عن بقية المكتبات، فأغلفة كتبها ملونة تعكس قصص الحب والحياة، فيها مجلات الهلال وملخصات (كتابي) لروايات كبار الكتاب العالميين مثل تولستوي ودستويفسكي وبلزاك وهـ. ج. ويلز ... من هذه المكتبة قرأت أولى الروايات، وشكلت أولى قيمي عن الحب والكراهية، الخير والشر، الجميل والقبيح. ولا أتذكر أني قرأت في طفولتي واحداً من كتب أجدادي، لكن أحاديثهم كوّنت أول الصور عن الجنة والجحيم والملائكة والشياطين.

مخيلتي وأنا طفل كانت خليطاً من الثقافتين، الدينية والعلمانية.. طقوس عاشوراء كعروض ومشاهد وقصص مأساة الحسين بقيت

مكتبة الفكر الجديد

في مخيلتي مقترنة بالتمييز بين الخير والشر، والظالم والمظلوم، وأيضاً بالحشود ككورس يرافق العمل الفردي. مع هذه الطقوس بقيت صورة جهنم وطبقاتها السبع والخوف منها أرسخ في مخيلتي من صور الجنة، وهي السائدة في الأحاديث حولي. خالاتي وعمتي يختلين بي محذرات من أن أتبع طريق والدي الذي لا يصلي ويشرب الخمر، لذلك فإن مصيره إلى جهنم. وأكثر ما أخافني من جهنم الطبقة السابعة (سقر). بدقة وهمس يشبه الفحيح وصفت عمتي كيف يشوى الكافرون على الجمر ببطء:

– هسسسسسس.

تطق بلسانها وهي تصف كيف يطرقع اللحم وهو يشوى، وبين آونة وأخرى يفتح للكافرين في سقر باب للهروب، فيزحفون، والجمر عالق بهم، إلى الباب، وحالما يصل الكافر الباب موشكاً على الإفلات من عذابه، يمسك به (عبيد) غلاظ يجرونه ثانية إلى الجمر وهو يصرخ:

– تبت! تبت، والله تبت!

لكن فات الأوان.

سمعت ذلك وأنا أكاد أشهق من الهلع، متخيلاً هذا المصير لوالدي الذي يرتكب كل هذه المعصيات. في الليل جاء والدي منتشياً بالخمرة. قبّلنا ونحن نيّام من دون أن تبدو عليه ذرّة من الخوف من هذا الذي روته لي عمتي. استغربت: هل من المعقول أن يجهل كل ذلك! تجرأت وأخبرته بأنني خائف عليه من سقر... استمع إلي وهو يصك أسنانه من الغيظ:

– لن أذهب إلى جهنم!

قالها بيقين لا يقبل الشك، ثم نزل إلى عمتي وأيقظها من نومها بالصراخ، وسمعت وأنا منطوٍ تحت اللحاف كلمتي (ترّهات) و(الطفل) بصوت محذر.

مكتبة الفكر الجديد

أظن أن صورة سقر خلّفت في داخلي خوفاً من الألم والتعذيب يفوق كثيراً خوفي من الموت.

صورة الجنة بأنهارها، في مدينة عطشى تجاور الصحراء، كانت واعدة ومغرية، تذكرني ببساتين الكوفة القريبة. أما حورياتها فتجَسَّدن في صورة مستحمات، رأيتها في واحدة من مجلات والدي.. جميلات بشعر طويل متموج وأجساد على شيء من البدانة، فرحات وقد مسّ ماء النبع أطراف أقدامهن.

ممرّ الجنة خاطفة في مخيلتي حين يرِد ذكرها، لكن جهنم بطبقاتها السبع كانت أكثر دواماً ورسوخاً. عجبت كيف أن الإمام علي يقولها بيقين بات «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

لست الوحيد في خيالي الناري هذا، فكل نكات العراقيين ترتبط بجهنم التي يعيشون فيها يومياً وهم أحياء. آخر نكتة سمعتها من أختي ذكرى عن رجل في الجنة شعر بالضجر ففتح نافذة على جهنم حيث يفترض أن يسلق الكافرون بالماء الساخن، دهش حين شاهد الكفار عراة وهم يرقصون فرحاً والماء إلى وسطهم، سأل عن سبب فرحهم، فأجابه أحد السدنة بأن الغاز انقطع كما هو الأمر دائماً في العراق، ولذلك تجدهم فرحين بالماء بارداً، موقنين من أن الغاز لن يتوفر بسهولة وفي وقت قريب.

بالكاد أتذكر أني صليت في طفولتي، ولكني صمت مراراً مع أمي. ومرة وضعت قطعة من الجكليت في فمي وحالما مست لساني بطعمها الحلو الداكن، نبهتني أمي إلى أني صائم فبلعتها على عجل بدلاً من أن أبصقها.

مكتبة الفكر الجديد

إلى جانب ثقافتي الدينية بدأت ثقافتي العلمانية بقراءة الكتب من مكتبة والدي. لم يرشدني لكتاب بعينه، لكنه منعني من قراءة كتاب لا أتذكر عنوانه، مزين بتخطيطات لجنس فاضح. لأيام طويلة خيّم عليّ المصير المؤلم لـ (ليلى) اللقيطة في رواية محمد عبد الحليم عبد الله: حرت مَن ألوم على مصير هذه المرأة التي أحبتها حد الهُيام: الأم التي ألقت بابنتها في الطريق، الأب الذي أغوى الأم وتركها؟ الطبيب جمال الذي لم يبذل ما يكفي من الجهد لإقناعها بالبقاء معه، والده الذي عارض زواجه من لقيطة بلا نسب؟ قرأتها وأنا أكفكف دموعي حزناً عليها، وألعن الصدف التي قطعت طريق سعادتها القريبة في نهاية رحلة شقائها.

مصطفى لطفي المنفلوطي رافقني فترة طويلة وسحرني إنشاؤه المؤثر وتشبيهاته. في مكتبة والدي عثرت على (غادة الكاميليا) التي اقتبسها المنفلوطي من ألكسندر دوماس الابن. تابعت بغيظ زيف الرجال الذين راودوها واقترن الشر عندي خلال قراءتها بالغنى الفاحش. عشت بؤس أيام ماجدولين الأخيرة وهي تصارع السل في فراش الموت بعد أن تخلى عنها عشاقها. ما زلت أحبس دموعي بصعوبة كلما استمعت إلى أوبرا لاترافيتا التي تذكرني بها.

من مكتبة في دورة الصحن صرت أستعير على التوالي سلسلة (العبرات والنظرات) للمنفلوطي مقابل عشرة فلوس لمدة أسبوع وأقراها على التوالي: في سبيل التاج عن الكاتب الفرنسي فرانسو كوبيه، تحت ظلال الزيزفون عن رواية ألفونس كار.

في صباي المبكر كنت تواقاً لأن أعيش الحب العذري، كما في اقتباس المنفلوطي لرواية بول وفرجيني لـ برنادين دي سانت بيير، وآلام فرتر لـ غوته. وفي النهاية وجدت (حبيبة) شبيهة بفرجيني.. شعر أسود طويل كشلال من الليل يحيط بوجه يشبه البدر، كما وصفها

مكتبة الفكر الجديد

المنفلوطي، بغدادية حلت ضيفة في بيت أقاربي. أحببتها من طرف واحد من دون أن أصارحها رغم أنها تكبرني بعشرين عاماً. عجبت حين عرفت لاحقاً أن المنفلوطي لم يقرأ كل هذه الروايات في سلسلتي (النظرات والعبرات) بلغتها الأصلية، إنما قصت عليه وأعاد صياغتها. أردت أن أقلده بإعادة كتابة رواية (بائعة الخبز) لـ كزافيه دي مونتابين لأنني عشت عذاب فقدان الصفحات الأخيرة من الرواية.

عشت أجواء هذه الروايات كأنني هناك، معتمداً في تصوري للقصور الفارهة على الصور الشحيحة التي تغلف أو تتخلل صفحات الكتب. انفصلت مخيلتي عن الواقع حولي وأنا أعيش أجواء الحب والخيانة والجفاء والضغائن والحفلات الباذخة مقابل الفقر في مجاري باريس، وبين آونة وأخرى يذكرني الأذان بأنني هنا في هذه المدينة.

في هذه المدينة الصغيرة كنت أعجب كيف يفقد أبطال الروايات أثر بعضهم البعض، ولا يلتقون ثانية إلا في لحظات الموت. تساءلتُ وأنا أقرأ هذه الروايات الحزينة التي تنتهي غالباً بموت الحبيبة: لمَ لا يقاوم الناس اليأس، و لمَ يستمرئونه، فيراكمون المصائب، و لمَ غابت النهايات السعيدة؟ لم أعرف أنه تعبير عن انحطاط تاريخي، يعجز الكاتب عن مقاومته، فينحني له ويستخدمه كمقوٍّ للكتابة. ورغم أني كنت أسمع كلمة (المجتمع) كثيراً، لكنها كانت بالنسبة لي كلمة مبهمة ما لم تقترن بأشخاص محددين، طيبين أو أشراراً.

كان والدي يخرج مسرحية (جنفياف) للشاعر لامارتين في (مدرسة الغري الأهلية) مع مجموعة من الطلبة والمدرسين. لا أتذكر الشاب الذي لعب دور جنفياف في المسرحية، لكن والدي لعب دور الوزير كولو الشرير. تابعت المسرحية من كواليسها وأنا أتململ غيظاً، لأن والدي يراود جنفياف في غياب الكونت سيغفرير، وحين قاومته اعتقلها في قبو مظلم. رغم أناقة ملابس والدي والسيف على جنبه غضبت، لأنه

مكتبة الفكر الجديد

يقوم بدور يناقض شخصيته الحقيقية. كنت أتململ سخطاً على درجات المسرح الخلفية حين رأيت الكونت يطرد والدي من البلاط. تطلب الأمر صبراً من والدي وهو يشرح لي في طريق العودة أن ما حدث ليس حقيقياً وأنه مجرد خيال وتمثيل.

تختفي الابتسامة من وجه والدي حين يقرأ رواياته المحببة ويحل الحزن والانقباض حين يتابع مصائر أبطاله. لكنه فاجأنا ذات مرة بضحكة مجلجة وهو يقرأ كتاب صديقه جعفر الخليلي (كنت معهم في السجن). لأول مرة أعرف أن الكتاب يمكن أن يبعث على الضحك بدلاً من الدموع كما هو الأمر مع روايات المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله وغوته.

– ما الذي يُضحك في السجن؟

سألت والدي فألقى الكتاب جانباً وتنفس وهو يكبت بقايا ضحكته وحكى لي قصة مساعد السائق (السكن) الذي نام في تابوت فارغ بعد دفن الميت احتماءً من المطر، ولم يدر وهو نائم أن خمسة من القرويين صعدوا سطح السيارة وبقوا يترحمون على روحه طوال الطريق. مدّ يده من تحت إزار التابوت ليتأكد من توقف المطر.. آنذاك قفز القرويون هلعين من صحوة الميت ومات عدد منهم وحكم السكن بالسجن.

على خلاف والدي لم أجد القصة مضحكة، فالقتلى والقاتل ضحايا صدفة نذلة. ومن هذه الحكاية، وقبل أن أشاهد أفلام شابلن عرفت أن أذى الناس قد يكون باعثاً على الضحك من غفلتهم. أخذت الكتاب بعد والدي وقرأت قصص المساجين، وأعجبت بشجاعة المؤلف الذي طلب من السلطات أن يسجنوه مع أعتى المجرمين ليكتب عنهم، وتعلمت منه أهمية أن يذهب الكاتب إلى موضوعه بدلاً من أن ينتظره كصدفة أو قدحة خيال.

مكتبة الفكر الجديد

في عطلة نهاية السنة أخذتني أمي إلى بغداد لنسكن بيت أخوالي في المهدية. هنا دخل عنصر جديد في تكوين مخيلتي، (السينما). خالي عبد الأمير المدلل عند والده، ترك النجف وثروة والده ليشتغل عامل طباعة في بيت شرقي قديم في أحد فروع شارع المتنبي. يخلع قميصه ويرتدي فانيلة ملطخة بالحبر الأسود وهو يصف الحروف المصنوعة من الرصاص في قوالب خشبية دون أن تفارق السيكارة فمه. لا أتذكر الجريدة التي يعمل فيها، لكنها كانت تغلق دائماً من قبل الرقيب. وحين تغلق يحرم خالي من أجره اليومي. مع ذلك لن ينقطع عن موعده الثابت في بار شريف وحداد.

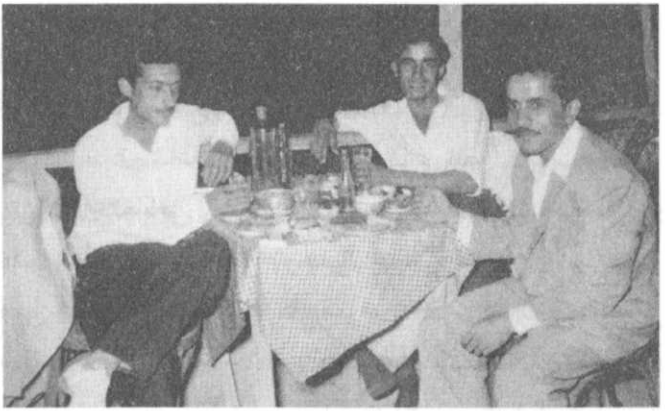

من اليمين: خالي سليم، خالي عبد الأمير وابن خالي حميد

يوم يقبض أجرته يأخذني إلى السينما. كان مغرماً بعبد الوهاب ولذلك شاهدت معه الوردة البيضاء ورصاصة في القلب وغزل البنات. لم يعلق من هذه الأفلام في مخيلتي سوى مشهد واحد لعبد الوهاب بكامل أناقته وقد فشل في إنقاذ حبيبته نجاة علي ولذلك راح يغنيها:

مكتبة الفكر الجديد

– في البحر لم فتُكم في البر فتوني!

لم أكن مولعاً بأفلام الحب المملة. وقد أخبرته فتنازل وأخذني إلى فيلم رصيف نمرة ٥، وأعجبت ببطولة فريد شوقي وفتوته وهو يقاتل ثلاثة قبضايات في آنٍ واحد. حين غادرنا السينما تمنيت أن يعترض طريقنا أشرار فألقنهم الدرس نفسه في الملاكمة! فيما بعد أدمنت السينما. أمي كانت توصلني إلى قاعة العرض وبطريقتها النجفية المتوسلة تقول لقاطع التذاكر إن أخوالي داخل القاعة ينتظرون دخولي. أتلمس طريقي في الظلمة مستعجلاً بين صفوف من أشباح صامتة تتنفس على إيقاع الفيلم. مثلهم أدخل عالم الفيلم الذي يستلني من ذاتي، من رائحة عرق الرجال، من الكرسي القديم وصريره، من المقاطعات الفجة لباعة المرطبات والبيض بالصمون، من التعليقات الفاحشة حين يقبل البطل حبيبته، من حماسة المشاهين وهم يلكمون الهواء ثم يعتذرون لجيرانهم... أتابع خط الضوء الذي يشق الظلمة إلى الشاشة ناسياً تماماً أناساً إلى جانبي. لم يفتني طرزان كما أولاد خالي. طرزان بدا لي ابن الحياة البدائية شأنه شأن قردته. خيالي ذهب مع فلاش كوردن وسوبر مان وكلاهما ارتبط بالمخيلة المستقبلية والفضاء. أن يستطيع الإنسان التحليق عالياً في الفضاء، هذا ما كان يسحرني أكثر.

بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ تغيرت قراءاتي مع دخول كتب كانت قبل ذلك ممنوعة. لم أقرأ في هذه الفترة أياً من الكلاسيكيات الماركسية اللينينية، إنما قرأت رواية غوركي (الأم) فشغلني مصير العامل المناضل بول فلاسوف وأعجبت بصلابته أمام سجانيه، لكنني لم أرد لنفسي مصيراً مثل مصيره منفياً إلى سيبيريا. السجون أفزعتني بعد أن سمعت قصصاً عن عذابات الشيوعيين الذين خرجوا تواً من نقرة السلمان. لمرات أعدت قراءة المشهد الأخير من الرواية وشهقت مراراً مع جمهور المحطة وهو يتلقف من (الأم) المنشورات التي تحمل خطاب ابنها:

مكتبة الفكر الجديد

– أتدرون لماذا حكم على ابني، وعلى كل أولئك الذين كانوا معه؟ سأقول لكم السبب، وستصدقون قلب أم شعرها أشيب. بالأمس حكم عليهم لأنهم كانوا يحملون الحقيقة إليكم، إليكم جميعاً.

صرت أقارن بينها وبين النساء الشيوعيات اللواتي عشن عذابات مثل عذاباتها في أيام السجون الملكية. وفي حصة الرسم، تركت التفاحة والمنظر الطبيعي ورسمت أماً تقابل من وراء الأسلاك ابنها السجين. حين شرحت لمدرس الرسم موضوعي ربت وهاب شمسه على كتفي:

– عفاك!

مكتبة الفكر الجديد

المعممون والأفندية

الروح الخفية للنجف تكمن في أنها رسمت صورتها عن نفسها: (أنا مدينة العلم وعلي بابها). والعلم هنا هو العلم بكيفية التحكم في سلوك الناس، وقد منحت المدينة علمها هذا القدسية التي تحميها من الجدل والشك. والفقه الذي هو علم المدينة. هو ما يحدد الحلال والحرام. وبسبب علمها هذا امتلكت مفاتيح الفضيلة، وحين أمسكت هذه المفاتيح التي تتحكم في سلوك أتباعها، صارت معارفها سلطة، سلطة على الناس وسلطة في مقابل سلطة.

يحفظ الموامنة هذه الحقيقة ويرعونها ويدافعون عنها باعتبارهم

معممون وأفندية في اجتماع في (جمعية التحرير الثقافي) في أواسط الخمسينات الملتهبة.

مكتبة الفكر الجديد

(مجتهدين) حفظوا أسرار الدين من مصادرها (القرآن والسنة وأحاديث الأئمة المعصومين) وتفسيراتها المدوّنة في الكتب. معرفتهم هذه تتيح لهم حق (الاجتهاد) في نصح وتوجيه (مقلديهم) الذين يجهلون هذه المعارف. فالمعممون، سوداً أو بيضاً عمائمهم، رسموا منظومة الفضائل والرذائل في المدينة وسموها (الأصول) وخصوا بها مدينتنا وحدها (النجف الأشرف) وميزوها عن المدن الأخرى بكونها تضم جسد الإمام علي. دونت هذه المنظومة منذ قرون في كتب مغلفة بالجلد العتيق، ووضعت في رفوف الدواوين لكي تكون مراجع للمعممين. في غفلة من أعمامي وحين تكون الأقفال الثقيلة مفتوحة أدخل مكتباتهم منجذباً برائحة الزمن وكنوزه المنسية، رائحة الجلد المختنق والورق القديم والغبار. أرى هذه الكتب مكدسة على الأرض حين فاضت عن الرفوف. لم تجذبني أغلفتها الجلدية الداكنة ولا عناوينها الغامضة (الكافي في أصول الدين، تهذيب الأحكام مبهمات الشريعة). أتجرأ في غياب أعمامي وأنفخ الغبار ثم افتح الكتاب كاتماً عطستي فتتيهني الخطوط الديوانية السلطانية ذات الحروف الملتوية المتداخلة، فلا أميّز الألف من اللام في أول الكلمات وتغرقني الزخارف التي تسد كل الفراغات البيضاء بين الحرف والورق. يقول الجاحظ بأن (الخط الجميل يزيد الحق وضوحاً)، لكن الديواني، على جماله، يزيد المعاني غموضاً، ولذلك يستخدمه الموامنه لحصر المعرفة بطبقة تعرف حل هذه الطلاسم وتزيدها غموضاً على العامة من الناس وحتى على القراء المتوسطين مثلي. تثير هذه الطغراءات السلطانية مخيلتي، لكنها تطرد معارفي. مع أني في داخلي أقدر قدسية هذه المعارف الغامضة.

ما ألفه الرعيل المؤسس صار اسماً للعائلة بعد أن مسحت المدينة اسم العشيرة الأصلي. ألقاب كاشف الغطاء، بحر العلوم، الجواهري

مكتبة الفكر الجديد

هي عناوين كتب وصارت في ما بعد أسماء لعوائل[٨]. اسم عشيرتنا (الجزائري) اقترن بعنوان كتاب (آيات الأحكام) الذي ألّفه جدنا الشيخ أحمد. باسم المؤلف سميت (المدرسة الأحمدية). لم أجد لهذا الكتاب أثراً في مكتبات أجدادي ولا في سوق الكتب. رحل أبناء هذا الجيل ودفنوا في مكتباتهم وبقيت آخر كتبهم مفتوحة جنب عمائمهم على شاهدة القبر وسط الديوان. على عكسهم لم يكن معظم أولادهم المعممين قراءً أو مؤلفي كتب، إنما ورثوا المكتبات وإدارة المدارس والوجاهة الدينية من دون جهد يذكر. المكتبات التي ورثوها علاها التراب من دون أن تفتح أو تتجدد. مع ذلك اعتبر المؤامنة من أقاربنا أنهم ورثة الفضائل لمجرد أنهم يملكون الكتب التي علاها التراب وتحوي أسرار الدين. و(امتلاك) هذه الأسرار تميزهم عن الآخرين.

ظاهرياً يلبس المؤامنة العمامة لتميز أنفسهم كطبقة دينية مثقفة، ولذلك يطلقون على البقية ألقاب (العوام) وللأدنى مرتبة (العمايدية). الزيجات بين الطبقتين نادرة إن لم تكن مستحيلة. ولذلك اعترض أقاربي على زواج أختي الكبرى أحلام من رجل خارج طبقتنا هو عبد الله (الشمرتي) واعتبروه كسراً للقاعدة.

في ما عدا الفروض الخمسة، أعمدة الدين، فإن لكل فعل من أفعال الإنسان بعداً روحياً كما يرى المعممون، يتصل بالدين ولذلك يتحتم عليهم أن يفتوا فيه. ومن جانبهم يستخير الناس رجال الدين في أدق شؤونهم وأكثرها سرية. كنت أرى مواطنين مرتبكين يلحون على

(٨) جاء اسم آل كاشف الغطاء تبعاً لكتاب جدهم الشيخ جعفر (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة) واسم آل الجواهري على كتاب جدهم (جواهر الكلام في شرائع الإسلام)، وارتبط اسم آل بحر العلوم باسم جدهم جعفر محمد المهدي صاحب كتاب (البرهان القاطع في شرح المختصر النافع) والملقب ببحر العلوم.

مكتبة الفكر الجديد

مقابلة واحد من أجدادي، وكأن حياتهم تتوقف على اللقاء. يقبلون يده بذلٍ والدموع تترقرق في عيونهم. ينظرون حولهم قبل أن يهمسوا السر الذي يعذبهم:

– حلمت وأنا نائم والشيطان نائم جنبي بأنني ...

ويخرج المواطن وقد انتفخت عباءته بالهواء موشكاً أن يطير من فرحه لأن الشيخ طمأنه:

– لا يحلم الإنسان بإرادته، وما دمت قد استعذت بالرحمن عند يقظتك فلا خطيئة عليك.

حلقة درس في الصحن الحيدري

في اللواوين التي تحيط بمرقد الإمام علي يجتمع المعممون من دارسي الروحانيات والفقه على شكل حلقات يمثل فيها أحد الدارسين دور المعلم والبقية طلابه ثم تقلب المعادلة، أو ينقسم الدارسون إلى مجموعتين، مع أو ضد. ربما من هذه الحلقات انبثق ولع النجفيين بالجدل والاختلاف في القضايا الفقهية والأدب والسياسة.

مع دخول الكوكا كولا إلى النجف سمعت الجدل يوقف فوهة القنينة قريباً من الفم: هل تحتوي فعلاً على مادة من دهن الخنزير؟ هل

مكتبة الفكر الجديد

فيها شيء من الكحول؟ في النهاية نفى أحد المراجع تحريمها ووضع النفي على القناني. قبل أن تتجرأ خالتي (مناهل) وتشربه استخارت ربها ثلاثاً بواسطة خرزات مسبحتها، وفي كل مرة كان جواب ربها واضحاً: اشربيه!

كنت أسمع أصوات المعممين المتجادلين في الصحن وفي دواوين أقاربنا ترتفع شيئاً فشيئاً حدّ الصراخ المتقاطع، متوقعاً أن يبدأ جدال الأيدي. وللنجف تاريخ من الاختلاف بين تيار محافظ وآخر إصلاحي. ينتصر التيار المحافظ وقتياً، ثم على عناده يفرض الواقع الجديد نفسه تدريجياً وفي غفلة أو تغافل. الاختلافات بدأت بين أنصار المشروطة والمستبدة، بين الإخباريين والأصوليين، ثم انفجرت الخلافات حول فتوى السيد محسن الأمين حول تهذيب طقوس عاشوراء وتحريم التطبير وضرب الزنجيل واللطم باعتبارها إيذاءً للنفس التي حرم الله. بسبب هذه الفتوى قسم قراء المنبر، وهم في الأغلب أقرب إلى مداراة مستمعيهم من العامة، الناس إلى (علويين) و(أمويين) تبعاً لموقفهم من طقوس عاشوراء. انقسمت النجف بين مؤيد ومعارض لدفن شاه إيران رضا شاه في النجف... التيار المحافظ عارض بشدة مشروعاً لتعليم قراء المنابر واعتبره تقليلاً من شأنهم وعددهم، كما عارض إنشاء مدرسة الغري واعتبرها (بدعة) وعارض افتتاح مدرسة للبنات واعتبرها (هتكاً للستور). الجواهري المتمرد وهو ما يزال في عمامته هاجمهم بقصيدة (الرجعيون):

غداً يُمنعُ الفتيانَ أن يتعلموا
كما اليومَ ظلماً تمنعُ الفتيات

...

تحكُمُ باسمِ الدينِ كلُّ مذمم

مكتبة الفكر الجديد

ومُرتكبَ حفّت به الشُبُهات
وما الدينُ إلّا آلة يَشهَرونها
إلى غرضٍ يقضُونه، وأداة

من حبه لمخالفة السائد حرص والدي على أن يكون بين أوائل من يرسلون بناتهم للمدرسة. جدي الشيخ عبد الكريم عاتبه في غياب شقيقه الحاد الطباع محمد جواد:

– أما كان عليك أن تحترم عمائمنا قبل أن تكون بين الأوائل... على الأقل لو انتظرت حتى تخف الزوبعة!

اكتفى والدي بتقبيل يده وغادر المجلس من دون أن يتراجع.

تبدأ آليات الاختلاف من فوق، من المراجع، ثم تنزل عبر الوكلاء وقرّاء المنبر فينقسم الجمهور المنفعل بما تقوله المراجع. ويتحول الخلاف إلى فتنة.

وكما تحال الفضائل للمعمّمين تُحال الرذائل إلى الشيطان، هذا الكائن المتشكّل بحسب المقصد والخديعة.

– ما شكل الشيطان؟

أسأل عم والدي الشيخ مهدي فيصفن قليلاً وهو يلف السيكارة:

– الشيطان متكيف.. يصير بحجم فأر يتسلل بين اثنين ليغتابا أناساً غافلين، يصير حية ليدخل قنينة خمرة، أو دودة ليدخل في فرج المرأة حتى تزني، وأحياناً يأخذ شكل قط لا يراه إلا المصلي الواحد حتى لو كان في جماعة، فينفصل عن صلاته، يقفز فوق سطح البيت ليخرب عائلة، ويدخل فينا، من لقمة حرام ليقودنا إلى إدمان الخطيئة. الشيطان يا بني يعيش في جوار الفضيلة لا يستغني أحدهما عن الآخر.

مكتبة الفكر الجديد

يذهب الموامنة من أقاربنا على خيولهم مرة أو مرتين كل عام إلى أعماق الريف ويبقون هناك أشهراً، يقومون خلالها بالإرشاد الديني وحل المنازعات حول قضايا الأرض والزواج والإرث، بحسب الشرع الجعفري. العمامة في هذه القرى النائية تضفي على معتمرها قداسة ومعرفة بأمور الدين والدنيا. ويفترض الفلاحون الخارجون تواً من بداوتهم أن المعمّم أعرف منهم حتى في أدق شؤونهم. كل أسرار القرية وخصوصياتها ستنكشف أمامه خلال الأحاديث المتوسلة الهامسة، بما فيها قضايا العقم والإنجاب. المومن بالنسبة إليهم هو الساحر الذي يحفظ الأدعية والكلمات السحرية التي تصل إلى الرب مباشرة. وتزداد قدسية كلماته (أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء...) كلما زاد غموضها على معارفهم البسيطة. بين هؤلاء القوم ذوي القلوب الخالية والسجايا الطيبة، يمتلئ المومن بذاته بعد أن كان في مدينته واحداً من فيلق معممين. إليه تتجه العيون والآذان حين يتحدث، وعلى شرفه تقام الولائم، وفي المضايف يجلس في الصدارة جنب شيخ العشيرة، وله الحديث كمرشد ديني، وله حصة في قطعانهم ومنتجات حيواناتهم.

يعود المومن من رحلة الأرياف وقد شوت الشمس جبهته، ضمن قافلة محملة بصفائح السمن الحر وسلال التمر وبضع خراف، ومعها أحياناً زوجة شابة كرهت العمل الشاق وأحبت أن تعيش مدللة في كنف معمم لا عمل له غير الكلمات ويتبارى الناس في خدمة بيته ... ويعود المومن محملاً بالحكايات والأغاني.

ابن عم والدي الشيخ حسن محمد صالح روى لي قصة (بني سلامة) ومثلهم الشائع (عبر طوكه، عبر طوكه؟ ما عبر طوكه):

– تعب البدو (بني سلامة) من متاهات الصحراء ورمالها السيالة، ومن الكر والفر في حروب الرمال، ومن أن يغزوا أو يُغزون. حين وصلوا جرف الفرات، بعد أن أمضهم العطش، توقفوا مذهولين «متى

مكتبة الفكر الجديد

يتوقف تدفق الماء؟!» في دخيلتهم قالوا «هذه هي الجنة التي وعد الله بها ما دامت الأنهار تجري من تحتها». آنذاك أقر حكماء العشيرة بأن يستبدلوا بالبنادق المحاريث ويتحولوا إلى مزارعين.

خصومهم التقطوا نقطة الضعف فقرروا أن يغزوهم في عقر دارهم. كانوا أكثر عدداً وسلاحاً، خفافاً لا يملكون ما يفقدونه، وما زالت الحرب حرفتهم.

بني سلامة الذين عرفوا الزراعة والاستقرار أرسلوا ثلاثة وفود طالبين السلام. الوفد الأول من شباب العشيرة، والثاني من شيوخها والثالث من نسائها. أرسلوهم على التوالي، لكن الخصوم المغترين بقوتهم نظروا إليهم كذئاب حولتهم الزراعة إلى كلاب مدجنة. لذلك أهانوا الوفود الثلاثة .. أعادوا الشباب دون بنادقهم وخيولهم وأعادوا الشيوخ من دون عُقُلِهُم وأعادوا النساء معفرات بالتراب... بعدها اجتمع حكماء بني سلامة ومنهم (الشيخ دكدوك) وقرّروا رد الإهانة فأرسلوا أحد (عبيدهم) وهو يحمل ثلاث رصاصات، واحدة عن الشباب والثانية عن الشيوخ والثالثة عن النساء. وبانتظار الحرب تقلدوا بنادقهم استعداداً لاستقبال هجوم العدو ...

في هذه اللحظات المتوترة يأخذ الشيخ حسن نفساً عميقاً ثم يبدأ بالحداء على لسان محارب ودّع زوجته وهو ذاهب لملاقاة مصيره:

أسرح مع الخلقان وارافق الذيب
من خوف لا ينقص عليكم قراكم
واحفيت برجلي سهوم اللواهيب
خليت لحم الريم يخالط غداكم
وياما شربت السمن من عرض ما جيب
ويفز كلبي من يوم يبكي حداكم

مكتبة الفكر الجديد

والحرب كما يعرف المتحاربون حيلة، والوقت هو بعض من حيلها حيث يؤخر الهجوم حتى يأكل قلق الانتظار همّة الخصم. عوّل الخصوم على التعب.. سيتعب الكشافون من البقاء معلقين على رؤوس النخيل، سيتعب المقاتلون من بني سلامة من البقاء الطويل عند سدة النهر، سيأخذهم النعاس وتدعوهم زوجاتهم إلى الفراش «اطمئنوا، لن يأتوا اليوم ولا غداً!»، ستدعوهم حقولهم وقد نضجت حبات الرز وتنتظر السقاية... في لحظة الاسترخاء هذه سيباغتونهم.

لم ينزل الكشافون وقضوا أياماً معلقين عند رؤوس النخيل وعيونهم مشدودة إلى الأفق البعيد بانتظار سحابة غبار. بينهم قناص العشيرة نوماس. بقي مقاتلو العشيرة متنكبين بنادقهم، يتساءلون في كل يوم (عبر طوكه؟ هل عبر طوكه ؟؟ هل...) وقد كان النهير طوكه هو الحد الفاصل بين امتداد الصحراء وأول خيط من الخضرة حيث يقيم بني سلامه. – عبر طوكه، أم لم يصلوا بعد؟ ...

قبل أن يلوح الغبار ويصل الغزاة كانت سمعة هبار قد شاعت قبله: زنجي ضخم الجسم مثل غول. له عين واحدة وسط جبهته، فيها تكمن قوته وروحه. لا يستخدم هبار بندقية أو سيفاً، إنما جذع شجرة يهبر به الخصوم أو يهبر بيوتهم فوق رؤوسهم. قوته الأسطورية تأتي من كونه يأكل لحم الذئاب وهي حية.

انتظروا أياماً طويلة وثقيلة ثم فزوا مراراً من هاجس:

– هل عبروا طوكه؟

... في النهاية بدت للمستطلعين من فوق رؤوس النخيل سحابة غبار وخيول آتية من بعيد فسحب بني سلامة ترابيس بنادقهم واستعدوا للموت وقد شدوا عقلهم حول ركبهم استعداداً للمعركة... في مقدمة

مكتبة الفكر الجديد

الجيش الخصم لاح وسط الغبار هبار واقفاً على طوله فوق ظهر حصانه، عارياً: ربي كما خلقتني!

استعد له نوماس:

– خلوه لي وخلوا لي الرصاصة الأولى!

وكان له ما أراد، فسدد بندقيته مطابقاً بين الفرضة والشعيرة، وتلك العين الواحدة التي يقدح منها الشرر. مع الطلقة الأولى طار هبار من فوق حصانه وتمرغ على الأرض قبل أن يعبر طوكه. كان مقتله في بداية الهجوم وكسة معنوية للجيش الغازي فتوقف الهجوم وعاد الغزاة مخذولين. صارت القصة مثلاً متداولاً عن أمر طال انتظاره وبقلق، لكن لم يحدث...

على من يفتي في الحلال والحرام أن يقرأ مدونات الفضائل والرذائل ويحفظها عن ظهر قلب. وقد بقيت هذه المدونات ثابتة منذ قرون[٩]. من قريته النائية في الكوت جاء عجيل ليدرس هذه المنظومة ويصبح مرجعاً لعشيرته بعد أن كان عضواً من الدرجة الثانية بسبب بشرته الداكنة.

– تماماً كما عومل عمار بن ياسر.

.. هكذا يصف عجيل سيرته. جاء إلى النجف قريباً من الحوزة متعطشاً لمعرفة أسرار الدين.

–ترددت في صلاتي وانتابني نوع من الشك في إيماني فقلت لنفسي: اذهب إلى مدينة تعطيك العلم والإيمان (ثم يستدرك) الإيمان أولاً ثم العلم.

(٩) من بين كتب الأصول المعالم للشيخ حسن والقوانين للشيخ القمي والكفاية للشيخ الخراساني والرسائل للشيخ الأنصاري. أما في الفقه فالشرائع وشرحها للمحقق واللمعة وشرحها للشهيدين والمكاسب للأنصاري.

مكتبة الفكر الجديد

لكي يضمن البقاء الطويل في مدينة العلم مارس عجيل مهنته المعتادة في مضيف العشيرة، فصار يقدم القهوة في براني الشيخ محمد صالح. من الشارع كنت أشم تلك الرائحة المدوخة لحبات القهوة وهي تسهى في المحماس وأسمع الهبدات الكتيمة والرنين المنغم المرح للهاون الذي يطحن فيه عجيل القهوة.

يخمر عجيل القهوة في الدلة الكبيرة (الخم) وقبيل الغروب يشعل المنقلة فيحمر وجهه كالنحاس حين ينحني لينفخ النار. في المساء وبعد وجبة العشاء يتجمع الضيوف من العشائر في الديوان وتبدأ المسامرة. آنذاك يديرُ عجيل دلة القهوة، مداعباً فناجينها بحركات مدروسة، ويقدم القهوة للجالسين وكتفه الأيمن مائل نحوهم، ابتداء من أرفعهم شاناً في صدر الديوان. يقوم بذلك بهدوء وإتقان وصمت، حريصاً على أن يعدل عقاله إذا مال قليلاً. يخدم دون تزلف أو تذلل فالخدمة بالنسبة له وسيلة لأمر آخر، هو أن يضمن بقاءه الطويل في المدينة حتى يستكمل معارفه ثم يعود لعشيرته.

منذ الصباح الباكر وبعد صلاة الفجر يبدأ عجيل بارتداء عباءته وعقاله وأفضل مالديه من ملابس ويتوجه للدرس. أوشك أن ييأس من مواصلة الدراسة وهو ما زال في مرحلة المقدمات حيث يتحتم عليه أن يقرأ الآجرومية لابن آجروم المغربي وشرح القطر لابن هشام. كان يذرع الديوان ذهاباً وإياباً وهو يقرأ بصوت عالٍ وعن ظهر قلب، ثم طوح يده بعصبية شاكٍ من المزاج الحاد للشيخ محمد جواد الجزائري:

– يريد مني المستحيل: أن أتخلص من لهجتي الريفية وأتكلّم مثله، أي أن أنزع جلدي.

دون تردد يعترف عجيل بتضلع الشيخ محمد جواد في النحو:

– هو النحو. ما من أحد مثله يعرف دقائقه وأصوله...

مكتبة الفكر الجديد

لكنه يأخذ عليه نزعته المحافظة وتزمته في الحفاظ على النحو العربي بصورته الأصلية، لحد التقديس. ويرى أن أي تغيير في النحو هدم لكيان اللغة.

بعد أيام عاد عجيل منبسطاً ولكن على استحياء، فقد أخذه الشيخ محمد جواد جانباً:

– أتعرف لم أغضب منك دون الآخرين؟

...–

– لأني أعول عليك أكثر منهم.

متنقلاً بين المدارس الدينية وبين الأساتذة درس عجيل المقدمات ثم السطوح[١٠]. وكنت أراه في البراني منكبّاً يقرأ أو ينسخ كتاباً استعاره، ثم يرفع رأسه جزعاً من تعقيدات اللغة.

– هل من المعقول أن نعتمد مرجعاً عمره خمسمئة سنة؟ حتى البدو تغيروا.

لم يكن عجيل وحده يشكو قدم المناهج، فقد تدارك ٤٩ من رجال الدين النجفيين، رابعهم جدي الشيخ عبد الكريم الجزائري، الخطر الذي يتهدد الدراسات الدينية في النجف وقدموا عام ١٩٣٣ مذكرة تدعو للإصلاح:

«كان من الواجب بالضرورة أن يتدارك كبراء العلماء وأهل الدين هذا الخطر العظيم على الدين وأهله بأن يتجمعوا ويفكروا ثم يعملوا

(١٠) يقدر علي الشرقي في كتابه (الأحلام ص٤٦) بأن هناك ما يربو على الثمانين مدرسة دينية أقدمها مدرسة الصحن. ويشير إلى أن طريقة التدريس قديمة "تتردد بين الطريقتين اليونانيتين، طريقة التحليل وطريقة التفسير" حيث يتناول الأستاذ موضوعاً ويجزؤه، ثم أقسام الأقسام حتى أدق التفاصيل ويبحث في العلل والعلاقات ومعاني الألفاظ وصولاً إلى الاستنباط".

مكتبة الفكر الجديد

لإصلاح الهيئة العلمية على الموازين الشرعية، بحيث ينتظم بها شؤون تحصيلهم وتأمين طرق معاشهم حتى يتفرغوا للتحصيل ويقروا منهاجاً دينياً علمياً بأن يكون التدريس فيها للفقه الجعفري ومبادئه في الأصول والنحو والصرف والتفسير وأصول العقائد».

تواصلت محاولات الإصلاح اليائسة مع تأسيس منتدى النشر عام ١٩٣٥ وأرادت تحقيق ذلك بصورة واقعية، وخطط العلامة الشيخ محمد رضا المظفر لإصلاح المنبر الحسيني كي يؤدي وظيفته الإرشادية وفق أسس علمية رصينة. ودائماً تصطدم محاولات الإصلاح بالتيار المحافظ القوي التأثير.

لم يكن لعجيل مناصرون ثابتون. أغلب من درسوا معه أيدوا أفكاره، لكنهم فضلوا الركون لما هو سائد، إلى مدونات الفضائل النائمة في الرفوف في مواجهة الزمن.

حار عجيل بين العمامة التي يشتهيها وبين العقال أمانة عشيرته.

– حتى لو بلغت مرحلة الاجتهاد وتجاوزتها، فلن أكون مجتهداً ما دام هذا البلاء (مشيراً إلى عقاله) فوق رأسي.

كنت أميزه خلال مروري في الصحن، بقامته المربوعة والعقال اليتيم وسط حلقة العمائم. أقلهم كلاماً وصياحاً، لا يتحدث إلا إذا سئل وإن سئل يجيب ببطء وبصوت خافت خجلاً من لهجته الريفية. وبين حفظة النصوص كان من القلة الذين يحركون عقلهم عند القراءة:

– لا يصلح هذا النص لأيامنا الحالية. تمكن رؤية الهلال قبل ذلك بالناظور المقرب.

– لصاحب الجوهر رأي أكثر معقولية منه.

تقدم عجيل في دراساته وهو يعد بحثه عن الوضوء في الصحراء.. صار يتردد بين النجف والأرياف البعيدة باحثاً عن أعشاب تطهر مياه

مكتبة الفكر الجديد

البرك إذا بالت فيها الجمال والغنم. وبدا مستعجلاً العودة إلى عشيرته ويشكو دائماً من أن النجف مغلقة بوجهه:

– لا مكان لي في مدينة ترفض الغرباء، وبين العوائل النجفية التي احتكرت الإرشاد الديني.

وكان محقاً لأن عوائل محددة ومقدسة احتكرت الفضيلة (آل الجواهري، آل كاشف الغطاء، آل الجزائري، آل الصدر، بحر العلوم، آل المظفر.....) وقد اعتاد العوام أن ينقادوا للآباء وبعدهم الأبناء باعتبارهم ورثة الفضيلة.

تتغير الأمور كثيراً حين تشيخ المراجع عن عصرها ويصير الأبناء بجدارة أو من دونها ورثة الفضيلة. الفضيلة نفسها تغيرت. لم تعد تتعلق بالصلاة والوضوء والنجاسة والأمانة والصدق، إنما صارت تتعلق بالسياسة والجهاد. وقد بدأ هذا التغير خلال ثورة العشرين. فالأبناء ومنهم محمد الصدر ابن المجتهد الاكبر السيد حسن الصدر، محمد الخالصي ابن المجتهد مهدي الخالصي، ميرزا محمد رضا ابن الشيرازي صاروا دعاة الثورة ومحركيها المباشرين[11]. وبتأثير من الابن الوحيد الشيخ أحمد صار ديوان الشيخ عبد الكريم الجزائري في النصف الثاني من الخمسينات وأيام جبهة الاتحاد الوطني محجاً لقيادات الأحزاب، من الحزب الديمقراطي زاره حسين جميل ومحمد حديد، ومن القوميين فائق السامرائي وصديق شنشل وغربي الحاج أحمد، ومن الشيوعيين عزيز شريف وعبد الوهاب محمود. كانوا يجلسون قبالته على الأرض، يقبلون يده ويستمعون إليه ثم ينزلون إلى السرداب في الصيف أو يصعدون للطابق العلوي في الشتاء لتناول الطعام مع ابنه الشيخ أحمد. آنذاك تنفرج وتعلو أصواتهم بعد الصمت. فقد انتقلت الصحبة من رجل دين إلى رجل سياسة معمم.

---

(١١) حنا بطاطو ج ٢، ص ٣٨١.

مكتبة الفكر الجديد

أقطاب جبهة الاتحاد الوطني: الشيوعي عبدالوهاب محمود، الديمقراطي محمد حديد والقومي أحمد الجزائري.

صارت الفضيلة على أيدي الأبناء أقرب للسياسة، ومع ذلك حرص الأبناء على أن يرثوا مع العمامة الإرشاد الديني ويحتفظوا به. والإرشاد الديني ليس مجرد عمل تطوعي إنما هو سلطة. سلطة على أفعال الناس وعلى أرواحهم. سلطة على الأتباع وسلطة في مواجهة سلطة المركز.

تتجسد الفضائل بالكلمات أكثر من الأفعال. وكما يتميز المعممون بعمائمهم، يتميزون أيضاً بلغتهم الخاصة فيتفنّنون في استخدام الكلمات ويزيدونها، فهي العملة السائدة في مداولات المدينة. إني أرى الآن من موقعي هنا واحداً منهم توضّأ تواً في حوض الجامع وخرج للصلاة في الصحن. خلال خطواته العاجلة يلتقي معمماً آخر يسير بالاتجاه المعاكس. يلم عباءته ويزيحها قليلاً إلى الخلف ثم يضع كفه اليمنى على صدره وينحني ليحيي الآخر:

– أدامكم الله مولانا وتقبّل صلاتكم!

– ...تقبل الدعاء

– أجلّكم الله

مكتبة الفكر الجديد

- طيب الذكر
- طاب ثراه
- دام عزكم
- دام ظله الوارف

الأدب يتطلب مخاطبة الفرد بصيغة الجماعة، وإذلال الذات لرفع الآخر، والدين يتطلب إحالة المطالب، ومنها دوام الحياة أو تقبل الدعاء، إلى الله. لا يهم إن خالفت الكلمات معانيها، حين لا يسع المكان ومع ذلك يدعو المومن قادماً جديداً ليحشره بين اثنين:

- يسع المكان مولانا.

لا يهم إن كانت الكلمات مناقضة للعلاقة بين اثنين، فالنفاق يسمّى (مجاملة) والمجاملة هي الأخلاق ... كلمات لا مدلول فيها ولا قيمة عملية، مع ذلك فهي البضاعة الأساسية لقائليها. الديباجات المفخمة الغامضة تفعل فعل السحر في أتباعهم البسطاء الذين يجدون كل ما لا يفهمونه سحراً فوق طاقة استيعابهم. ولذلك يبدو عجيل عاجزاً أمام هذه الحركات المتقنة والكلمات المنمقة. ذات يوم توقف الهاون عن الرنين في بيت الشيخ محمد صالح، فقد غادر عجيل المدينة والديوان دون أن تتفقده المدينة ودون أن يترك أثراً فيها.

بين الموامنة من نصّب نفسه حارساً للفضيلة والأصول. وكنت أرى حراس الأصول هؤلاء يدورون داخل الصحن وحوله بلا انقطاع وعيونهم تتجول متابعة الداخلين أو الجالسين، تحديداً النساء، باحثين عن أصغر الأخطاء، حتى ولو خصلة شعر أفلتت من تحت الحجاب يسمونها (عش الشيطان) أو خاتم ذهب خرج من كم العباءة أو عقب سيكارة رماه أفندي عابر أو حذاء طفل انقلب صدفة فصارت قاعدته باتجاه الحضرة.. آنذاك ترتفع أصواتهم فضائحية عالية (سترك يا رب

مكتبة الفكر الجديد

حلقة درس في مدرسة دينية.

ن عذاب القيامة!). لم يكلف أحد حراس الفضيلة بهذه المهمة، لا لحكومة ولا المؤسسة الدينية، و لم يزودهم أحد بتعليمات مكتوبة. هم ذين كلفوا أنفسهم بهذه المهمة التي تمنحهم سلطة على الناس، وهم حدهم من يرتجل الأعراف والضوابط ويخيفون بها النساء فيجمعن باءاتهن على عجل حين تنعكس ظلال المراقبين على البلاط.

واحد منهم اعترض والدي الذي كان يصفر لحناً لعبد الوهاب عند روره في الزقاق. صاح بوالدي:

– كيف تصفر وعمّا قليل سيبدأ المؤذن؟!

على هدوء مزاجه يفور والدي بسرعة فأمسك المومن من لحيته وجرّ أسه عالياً:

– سأبصق بها إذا لم تسكت وتعتذر!

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

مع نظام الفضائل الصارم هناك بالطبع من يخالفها، وبتطرف أحياناً. فالخمور ممنوعة في النجف، رسمياً واجتماعياً، لكن مدينة الحلة تمتلئ يومي الخميس والجمعة بالنجفيين الذين شربوا العرق على عجل وهم ماشون أو مختلون عند ضفة النهر. ولدينا في النجف بار متنقل على شكل رجل بدين يلبس العقال والعباءة ويجلس في زاوية معتمة في أحد مقاهي الميدان. يخزن (مانينه)، وهذا هو الاسم الذي يكنى به، أرباع وأنصاف وقناني العرق، بأنواعه المُسَيّح والعصرية والزحلاوي في جيوب داخلية مبوبة وموزعة داخل عباءته وجبته ودشداشته، مقسمة بحسب الأصناف والحجوم. قبيل الغروب بقليل وعلى موعد يومي مع زبائنه يجلس مانينه في زاوية معتمة في أحد مقاهي الميدان. يجلس دون أن يتحرك بسبب ثقل حمولته. وبعد أن يستنفد بضاعته يغادر المقهى خفيفاً.

في نادي الموظفين حين أذهب برفقة والدي أرى كيف يتبادل الجالسون كأس الخمرة من تحت الطاولة التي تناثرت فوقها قطع الدومينو.

كلما تشدّد الأصول وتطبيقها سينبري من يخالفها بتطرف وعلانية. تذكر أن فرات ابن الشاعر الجواهري أحب واحدة من أقاربه، لكن والدها رفض هذه الزيجة بحزم. لم تفد الوساطات والتوسلات فذهب العاشقان لمصور وأخذا صورة كتفاً لكتف ووزعاها على وجهاء المدينة مع رسالة شكوى ضد أب المرأة الذي وقف عائقاً بوجه العاشقين ...

مكتبة الفكر الجديد

قريبنا محمد الجزائري رغم كبر سنه يبالغ في أناقته، فهو أول من ارتدى (تي شيرت) بخطوط عريضة وبنطلون أبيض. مرة جاء إلى الفاتحة وهو يرتدي بدلة بيضاء وفي جيبه على الصدر منديل وردي. قبل أن يدخل الجامع أخذه والدي جانباً لينبهه إلى أن دخوله الجامع سيكون فضيحة. استغرب محمد الجزائري:

– أين تكمن الفضيحة؟ أليست البدلة جميلة؟

كان محمد بسليقته وطبيعته منفصلاً تماماً عن التقاليد النجفية ويفعل ما يفعله بطلاقة دون أن يأبه بتعليقات الناس. بل إن هذه التعليقات تطريه طالما لفتت انتباه الناس إليه. كان غريباً ويبدو له الناس أكثر غرابة وهم يتوقفون لينظروا إليه بدهشة أو استنكار.

النموذج الأكثر تمرداً هو سكّير المدينة علي الصراف. يخاف حراس الفضيلة الاقتراب منه، ماشياً كان وهو يترنح أو ممدداً قرب واحد من الجدران في طريق المارة. يخافونه بسبب لسانه السليط ومزاجه الفضائحي ولأن له في المدينة مريدين ومدافعين عنه.

لا أحد يعرف متى وأين قرأ علي الصراف كل معارفه الواسعة في الاقتصاد والقانون والدين. لكن الكل يعرف أنه مجادل صعب ينطلق دائماً من الموقف المضاد.

لا يكتفي علي الصراف بالأسى أو السخرية من الجهل، إنما يتصرف كمصلح وحيد محاط بالمريدين. يجلس في المقهى مراقباً الشارع والعابرين ثم يلتفت لواحد من مريديه:

– انظر إلى عبود. لبس أفضل بدلة لديه وهو مسرع ليلحق بركب المعلمين الذين سبقوه لترك البلد والحصول على فرصة عمل في الجزائر أو ليبيا (ثم يوجه خطابه للمعلم المسرع):

– أركض، اركض! هناك ثلاثة لوريات بانتظار أن تشحن بالمعلمين إلى ليبيا.

مكتبة الفكر الجديد

يرى علي الصراف أحد المؤامنة ممسكاً بكتابه ذاهباً إلى حلقة المناقشة في الصحن:

– منذ عام وهو ما يزال يقرأ الكتب نفسها و لم يتقدم خطوة خارج المقدمات[١٢].

صديقه وتلميذه عبد الله الشمرتي روى لي قصته مع أحد الدارسين في الحوزة:

هو الذي اعترض طريقه سائلاً:

– إلى أين أنت ذاهب يا شيخنا؟

– للصلاة؟!

– لمن تصلي؟

– لله، لمن تعتقد غيره؟!

– لم أنت غاضب؟ افترضني جاهلاً وجئت لأسألك.

– أنا لا أحاور سكيراً!

– لم لا؟ أليس من أول واجبات المؤمن أن يدل ضالاً على الطريق الصحيح؟

– تفضل اسأل!

– ما شكل الله الذي تصلي له وأين هو الآن؟

– شكله (سأل المؤمن بارتباك) هو لا شكل له، لكنه موجود في السماء السابعة.

---

(١٢) المقدمات هي المستوى الابتدائي في الدراسات الدينية في النجف ويترافق مع جلسات مناقشة حول كتاب محدد ثم تليها السطوح التي تعادل البكالوريوس في الجامعه وبعدها مرحلة الخارج التي تقارب الدراسات العليا.

مكتبة الفكر الجديد

– لم إذاً تصلي باتجاه الكعبة ما دام الله موجوداً فوقنا؟

– ...

– بهذا الجهل لن تقنع جاهلاً ضالاً مثلي وسأبقى مسكيناً حائراً سكيراً.

يعود علي الصراف لمريديه ويقول لهم بثقة:

– لو صبر عليّ قليلاً لأقنعته بأن الله غير موجود، ومن هذه النقطة سأقنعه بوجود الله.

مرة وجده أحد أقاربه منطرحاً في زقاق. حمله بسيارته وأوصله إلى باب البيت. آنذاك فتح علي عينه وصرخ بوجه حامله غاضباً:

– لَمَ جئت بي إلى هنا؟ من قال لك إني أريد العودة للبيت. أنا هناك في الشارع.بملء إرادتي. أردت أن أحتج على الجهل والطمع!

لا يتوقف علي الصراف عن المراقبة والتعليق والمجادلة. فقد افترض نفسه مصلحاً، عليه أن يثير الشكوك في المسلمات ويوصل الناس إلى طريق العقل. وحالما تغيب الشمس يبدأ علي الشرب في مكان مجهول من المدينة.

مكتبة الفكر الجديد

المرأة (أجلّكم الله)

المرأة في نظام الفضائل النجفية عورة. لا يذكر اسمها أبداً لأن شرف العائلة ينتهك إذا عرف واحد اسمها الحقيقي. ولذلك يحذرني أقاربي الأكبر عمراً من أن أرتكب الكبائر، ومنها ذكر اسم أمي أو أختي الكبيرة. ويتفنن الموامنة النجفيون في التحايل على ذكر اسم الزوجة. يسمونها (الأهل) أو يشيّرْنها (البيت) أو (الحرمة). وقد يتبعها البعض بتعبير (أجلكم الله) أو (تكرمون) أو (تكبرون) - أي عن ذكرها - ونادراً ما يقولون (زوجتي) أو (امرأتي) وإذا أراد أن يخفّف التهميش قال: (أم العيال) أو أم الوِلد.

في سجنها البيت هكذا هي، محكومة تماماً بإرادة الأب أو الأخ الكبير. لن يزوجوها لأي كان، ولن يسألوا عن عمل المتقدم وصفاته

مكتبة الفكر الجديد

الشخصية، إنما عن أسرته. فلا حصة للعوام ببنات المراجع والموامنة. وحولي جيش من العوانس فاتهنّ قطار الزواج بعد أن يئس الخاطبون من كثرة الرفض. بمكابرة قاسية تقبّلن هذا المصير كقدر وبنوع من الشماتة بالنفس. وارتسمت قسوة الكبت على وجوههن، بشرة خشنة كالتراب تكتنفها في الوجه أخاديد عميقة ويتوسط الوجه أنف بارز متضخم تعلوه عينان جاحظتان فيهما هلع دائم. إحساسهن بالقدر والخسارة أعطاهن نوعاً من المكابرة والقوة في مواجهة الرجال الذين رسموا مصيرهن المؤلم. لهن حاسة مرهفة في تتبع أخبار الآخرين ويجدن في النميمة خروجاً من زنزانة الروح. أستعيد الآن بوضوح الحاضر كيف تحول (نون) عينيها إلى الجانبين لتتأكد من خلو المكان من المتنصتين، ثم تقرب فمها من أذن أمي وتهمس السر الخطير. أسلوبها في نقل الخبر يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية: السرعة والدقة والحياد. لتضمن السرعة تقطع الأزقة بين البيتين لتنقل الخبر وهو حار. وللدقة والأمانة تبدأ حديثها بديباجات مثل (بيني وبينك ولا أريد أن يخرج الموضوع أبعد من أربع آذان ولسان واحد...)، ولضمان الحياد تحيل الخبر إلى مصدر مجهول (يقال) والعهدة على الراوي:

– الملة فطم أغلقت الباب بوجهها حين ذهبت لتعتذر. قالت لها: كفي عن اللعب على الحبلين! وتقصد بينها وبين ملة أمينة...

تسمع أمي وقد زَمت شفتيها من دون انفعال لأن الخبر جال بين أكثر من عشر آذان قبل أن يصلها للمرة الثانية أو الثالثة.

في ما عدا النميمة تنشغل العوانس بمهن محدودة حين يضيق الحال، هي تطريز حواف العباءات الرجالية (الشيرزة)، أو تعبئة مظاريف السكائر (المزبن) بالتبغ .. مهن يمارسنها في البيوت بنوع من الدأب المرضي وبدقة تقتل أية عاطفة وتمتص حدة الأعصاب.

مكتبة الفكر الجديد

لن تمر الأمور بسهولة دائماً، فلا بد أن ينفجر الكبت بوجه الكابتين. لمجرد أنها غادرت البيت في زيارة للجيران تلقت (نون) حين دخلت البيت ضربة بالعصا كسرت ساعدها، وحبست بعدها في غرفة ضيقة. لم تكتف بسجن أخيها الكبير إنما طوت جسدها كما الجنين، لتحبس نفسها احتجاجاً في صندوق، وأخذت المفتاح معها إلى العتمة. تطلب الأمر نصف نهار حتى استطاع الأخ الكبير كسر الصندوق لإخراج الجسد المكوّر منه. واحدة من قريباتي عاقبت نفسها وأهلها، وقررت أن تبقى طول حياتها عانس لأنهم رفضوا خاطباً أرادته زوجاً. لنفس السبب عاقبت جارتنا في الزقاق (ميم) أهلها بنوبات الصرع. رأيتها مرة تتمرغ في باحة البيت تماماً كالذبيحة ويرتطم رأسها بقوة بالطابوق ثم يسكن الجسد بعد أن كبله ثلاثة إخوة وبدأ الزبد الأبيض يتدفق من فمها. لم تنفع الأدعية ولا السوائل السحرية في أطفاء احتجاج الجسد الذي تواصل حتى الموت. وحين تضيق السبل يكون الانتحار حرقاً وسيلة للاحتجاج على حياة لا تملك المرأة فيها حق تقرير مصيرها.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

المُلّـــة

بقامة طويلة وضخمة و(هاشمي)[١٣] أسود يضيف عليها مهابة خاصة تتحرك (ملة فطم) بين أفراح الناس ومصائبهم. خلفها كورسها الملازم المكون من خمس شابات ذوات حيوية ولسان عذب يعرف كيف يختار أجمل الكلمات وينغمها خلال الحديث. يتبدل مزاج الملة، وكذلك كورسها، بسهولة، خلال اليوم الواحد بحسب المناسبة التي دعيت إليها. في الأفراح ترتفع مشاركة الكورس ويقلّ تدخل الملة. بسرعة تخرج الدفوف والدربكات من تحت العباءات ثم يبدأن الغناء:

أنت الحبيب والله..

أنت الطبيب والله.

وتنفجر الأجسام بكل الطاقة المكبوتة قفزاً ورقصاً وتتلوى الخصور وتلوح الأيدي ومعها نقرّ الدفوف:

– تعال تعال يا ولد!

يمته الوصال يا ولد؟

(١٣) الهاشمي: رداء عريض أسود ومطرز ترتديه النساء في المناسبات، وخاصة الأحزان.

مكتبة الفكر الجديد

في المآتم تجلس الملة مع أقرب الناس إلى المرحوم لتكرر الأسئلة نفسها التي تعطيها فكرة عن الفقيد قبل أن تكتب قصيدتها. مرة كان المرحوم طالباً في مدرستنا ويسكن أهله قريباً من بيتنا. سألت الملة عن اسمه، عن عمره، عن عمله، هل مات موتاً عادياً بإرادة الرب... ثم طلبت صورته.. شاب واسع العينين، ساه، وعلى حول خفيف.

رفعت رأسها قليلاً إلى سقف الغرفة ثم نظرت في وجه أمه وكتبت على دفترها، كلمات القصيدة، ومعها جاء اللحن تلقائياً:

– طلاب المدرسة تكول...

يسأل الكورس:

– شنهو تكول؟

ترد الملة:

ساهي العينين جا وينه؟

على اللحن تشكل النساء ثلاث دوائر متداخلة، يلطمن صدورهن بإيقاع متداخل. في الوسط حلقة (الجوالات) من (الكحيلات) الشابات اللواتي يدرن بسرعة وينشرن شعرهن الطويل كأجنحة سوداء تخفق حول جسد الميت. حولهن (شدة) دائرية من نساء أكبر عمراً جلسن على ركبهن ورحن يلطمن متقابلات. يستمر اللطم ساعات، تتصاعد وتيرته دوراناً، دوراناً وتطير شعور الكحيلات عالياً وهن يقفزن خلال الدوران بينما تضيق الشدة مع تقارب الوجوه وتتحرك الرؤوس إلى الأمام وإلى الخلف، إلى الأمام وإلى الخلف... ثم يخف الإيقاع تدريجياً مع فتور تدريجي في صوت الملة حتى يحل صمت غريب كأنه صحوة بعد نوبة صرع ...

تختفي نساء المدينة بالملة فطم، ويتوسلن دعوتها خارج المناسبات ويسعين لكسب صداقتها ليتفاخرن بأن «الملة كانت عندنا اليوم».

مكتبة الفكر الجديد

وحين تعتذر بكثرة مشاغلها يرسلن إلى بيتها أطيب ما طبخنه. إنها سيدة مجتمع تعرف قوة حضورها، لذلك تتعذر كثيراً قبل أن تقبل دعوة ناس عاديين. وحين تدخل مع كورسها ترفع رأسها قليلاً وتنظر بنوع من التعالي وتفتح الحديث بنفسها متعمدة ترك فراغات بين الجمل لتزيد من فضول السامعين وهي تنقل أخبار العوائل وأسرارها دون أن تبدي انفعالاً بما تنقله.

نادراً ما تدخل الملة فطم بيتنا لأن والدي يعتبرها مشعوذة تتنقل بين الأحزان والأفراح من دون عاطفة. أخته، عمتي زهوري، كانت تتوسل صداقتها لأن عملها كخياطة يتطلب معرفة الأعراس المحتملة. حين تتكرم (البارونة) بقبول دعوة عمتي أرى من الطابق الأعلى صحون الحلاوة، وسلال الفواكه، وأقداح الشربت تأتي إلى الملة وكورسها. لن يدوم مكوثها طويلاً، لأن في جدول أعمالها ثلاث دعوات بعد دعوة عمتي.

– الموتى يتكاثرون هذه الأيام... وكذلك الأعراس.

وقبل أن تدخل الملة بيوت الداعين، تقف قليلاً عند الباب، ويقف معها الكورس، تتنفس، ثم تبدل هيأتها من الفرح إلى الحزن على ميت لا تعرفه.

بين الملة فطم وبين منافستها الملة أمينة حرب استخدمت فيها الأسلحة الثقيلة من النمائم والشائعات، ولكل واحدة منهما استخباراتها لتتبع تحركات الأخرى، والداخلين عليها ولكل واحدة فيلق من ناشري الشائعات للحط من سمعة الأخرى.

الشابات المحرومات من العلاقات والمتزوجات اللواتي لا يسمعن من أزواجهن كلمة حب حتى ولو في السرير يتولهن في حب واحدة من الملتين. حب النساء للنساء (الباجيات)، وهو في الأغلب حب

مكتبة الفكر الجديد

رومانسي، يصل حد الانتحار من الغيرة أو الخيبة. كنت أمرّ بدراجتي في الزقاق الذي تسكنه الملة فأرى واحدة أو اثنين من الباجيات المتولهات اللواتي يخطرن في الزقاق ذهاباً وإياباً، وعيونهن معلقة على ذلك الباب ذي الخشب الثقيل البني، على أمل أن تخرج الملة وتسلّم عليهن أو تدعوهن للدخول، وأحياناً تأكلهن الغيرة من منافسات يحظين بحب الملة بينما نصيبهن الإهمال.

مكتبة الفكر الجديد

مدرسة السلام

خلف السور الذي كان يحمي المدينة من هجمات الوهابيين وعلى أرض المقبرة التي ابتلعت عدداً من قبورها، أقيمت مدرسة السلام الابتدائية. لا أعرف إن كانت هي أو بنايتها المدرسة (الأميرية) نفسها التي أنشئت عام ١٩٢١ كأول مدرسة حكومية في النجف. تشبه البناية، ثكنة صحراوية بطابقين وعشرة صفوف بينها غرفة المدير رؤوف الجواهري بسدارته الفيصلية وخيزرانته يتجول متسللاً بخفة قط بين الصفوف والساحة باحثاً عمن يرتكب خطأ. أوشك أن أتقيأ الآن وأنا أتذكر مراحيض المدرسة التي لم أدخلها إلا مرة واحدة.

في الساحة الأمامية حديقة لم تقاوم فيها غير شجيرات الدفلى، وفي الساحة الخلفية الواسعة نجد بين آونة وأخرى جمجمة ميت لا نعرفه.

والدي، وكان آنذاك معاوناً لمدير المدرسة الحيدرية، أدخلني هذه المدرسة الواقعة على حافة المقبرة لأنه لا يريدني في مدرسته. حكمته تقول بأني سأتكبر على الطلبة والدرس إن درست في مدرسته، وقد افترض مسبقاً بأني تشاجرت مع أحد الطلبة، فماذا سيكون موقفه؟

حين دخلت الصف الأول كنت أرتدي الدشداشة شأن التلاميذ الآخرين، وكنت ومحمود الشيخ راضي وشقيقه حميد أصغر طلاب الصف. لم تكن رحلات الصف كافية فيجلس المتأخرون عن الدوام في روازين الصف.

تزوغ عيني بعيداً عن المعلم والسبورة لأراقب القبور وقد اصطفت

مكتبة الفكر الجديد

مثل رحلات الصف، مع فارق أن التلاميذ موتى. كنت أحصر رقعة داخل المقبرة وأبدأ بعدّ القبور:

– ميت ميتان ثلاثة موتى أربعة ....

..حتى يدق جرس الفرصة فتنقطع السلسلة.

من بين معلمينا ما أزال أتذكر اثنين؛ مدرس اللغة العربية كاظم الخرسان بأنفه الضخم كحبّة طماطم حمراء. يسحرنا، وهو يتجول في الصف ذهاباً وإياباً بطريقته المثيرة في التدريس من خلال القصص، يبدأ الدرس بمقدمة القصة، ثم يبترها ليدخل درس الأخلاق والواجبات، وقد تركنا متشوقين لمعرفة بقية القصة. بين آونة وأخرى يباغت واحداً من الساهين بسؤال:

– أين تقع مدينة ...؟

– ما اسمه؟

أحببنا كاظم الخرسان لسببين: طريقته في قص المدهشات وابتكاراته في عقاب الكسالى والمشاكسين. من بين فنون العقاب التي نباهي بها طلاب الصفوف الأخرى أنه يضع أقلام الرصاص بين أصابعنا ويضغطها بشدة، أو يأمر أحد المشاكسين أن يقف أمام السبورة على رجل واحدة. بدلاً من العطف والتعاطف مع المعاقَب كنا نجد في عقاب الآخر نوعاً من المتعة يخرجنا من ملل الدرس ونصرخ كلنا مرة واحدة حين يتعب المعاقب وينزل رجله الثانية. ومن بين كل الخيزرانات اختار واحدة رفيعة لينة تبعث صفيراً حاداً حين يلوح بها وهو يتحرك بين جدران الصف الأربعة.

بعد الظهر يدرّسنا السيد يوسف الحلو، الدين. لا يتعب يوسف الحلو، رغم عمامته السوداء، نفسه بالشرح، إنما يكتفي بأن يطلب من أحد الطلاب التجويد أو يجود هو بنفسه طالباً منا الخشوع بالسكوت التام. أحياناً يأخذنا للصلاة خلفه في الساحة الأمامية. لن أستطيع كتمان

مكتبة الفكر الجديد

ضحكتي خلال الصلاة لأن جوحي الصغير سيرسل نكتة حين نركع.

من بين زملائي في الصفوف الثالث والرابع والخامس طالب مائل إلى البدانة قليلاً، مكتنز الشفتين، واسع العينين، شديد النظافة مع زهادة ملابسه. يغيظنا أدبه الجم وطاعته للمعلم. يؤدي واجباته ويزيد عليها مدهشاً معلميه. حين كنا نذهب لمكتبة الرابطة الأدبية لنقرأ مجلدات المجلة الساخرة (حبزبوز) نراه في طرف القاعة الثاني يقرأ دواوين المتنبي والمعري وبشار بن برد. نسمع أنه ينظم أشعاراً حسينية، لكنه لم يقرأ شعره أمامنا لأننا دون مستوى فهمها. بدورنا نراه من عالم آخر غاية في الجدية غير صالح لصداقتنا. إنه عبد الأمير الحصيري. يقدمه مدرسنا في التاريخ كقدوة فيقف أمامنا ويقرأ الشعر عن ظهر قلب ونحن نتابع على كتبنا بيتاً فبيتاً.

كانت المدرسة حين دخلتها هدفاً حربياً لرجال الدين المحافظين لأنها بنيت بطابوق حكومة عميلة غير معترف بها من قبل المراجع، ولأنها تدرس علوم الكفار التي تتناقض مع علوم القرآن، لأن معلميها يرتدون زي الإنكليز ويتكلمون بلسانهم، وهي خطر على سلطات المراجع وتنافس المدارس الدينية.

عم والدي الشيخ مهدي، وهو الوحيد بين إخوته لا يتقن القراءة والكتابة، إنما يحفظ القرآن عن ظهر قلب، رفع عصاه بوجهي مستنكراً.

– قل استغفر الله!

قلت له ما سمعته من معلمنا بأن الأرض كروية.

– معلمك هذا كافر ونغل. اسمع كيف يفند القرآن ترهات معلمك.

وأخذ يقرأ لي من سورة نوح «... والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا فيها طرقاً فجاجاً».

ثم قرب وجهه مني وبيننا القرآن:

– بساطاً يعني بساطاً (فارشا راحته أمام وجهي).. هكذا يقول القرآن. أتكذبه وتصدق علوم الإنكليز؟

مكتبة الفكر الجديد

صدقته وكذبت معلمي.

ذات يوم عدت إلى البيت فرحاً بأول بدلة كشافة. عمتي أمسكت بيدي مخوفة:

– بهذه البدلة ستدخلون أول خطوة نحو الجندية، ويعلم الله بعدها إلى أي حرب سيأخذكم الإنكليز!

حين بدأت حملة تلقيح ضد السل تتالت علينا التحذيرات:

– لن يدوم الأمر أكثر من عام حتى تموتوا جميعاً إذا لقّحوكم بهذا السم البطيء.

لذلك لم يجد الفريق الصحي من يلقحه حين جاء دور مدرستنا في الحملة.

عشنا أياماً كالكوابيس حين أجبرونا في المدرسة على أن نرتدي البنطلون بدلاً من الدشداشة. لتدارك الأمر قامت والدتي بخبرتها في إعادة تفصيل ملابس الكبار لتناسب الصغار، بتقصير بنطلونات والدي لتناسبني. رجال الدين المحافظين والملالي الذين يدرسون في الجوامع شكلوا فرقاً من طلابهم ومن صبيان الأزقة الذين لم يدخلوا المدارس. ينتظرون خروجنا من المدارس فينسلون لـ «يبعصونا» نحن طلاب المدارس، لأننا نرتدي البنطلونات الإنكليزية. لم تنفع حمايتنا من قبل الشرطة ولا الطلاب الكبار الذين يكلفهم المدير بحمايتنا، كانوا يرددون حين نمرّ:

– أفنطيزي! أفنطيزي!

جامعين بين الأفندي والطيز والإنكليزي.

في النهاية وجدنا حلاً لهذا التناقض بين المدرسة والأزقة. صرنا نلبس الدشداشة تحت البنطلون حين نذهب للمدرسة ونخرجها لتغطيته حين نغادر...

مكتبة الفكر الجديد

الكوفـــة: المسجد والنهر

نضيق بالمدينة، نضيق بحرّها اللاهب وغبارها الخانق، نضيق بقبورها التي تطوقنا فنهرب كل عام إلى الكوفة، والكوفة لنا، كما لكل العوائل النجفية، هي المسجد والنهر. تهيئ أمي كل ما نحتاجه لإقامتنا الطويلة في الكوفة وهي تجرجر قطيعاً من الأطفال. ولا أتذكر أنه كان عندنا آنذاك حقيبة سفر أو حافظات طعام، إنما كنا نسافر مع كدس من الصرر المبوبة، ومعها بريمس للطبخ. نتهيج وتستثار مخيلتنا ونحن نستعد للرحلة السنوية، ونحشر نحن الأولاد تحت ملابسنا اللعب الممنوعة ومنها مصائد الطيور. لم يكن والدي مشمولاً بهذه السفرة السنوية لأن المسجد يفرض عليه صلاة الجماعة ويقطع عنه حبيبه العرق. لذلك يحشرنا في السيارة ويودعنا ليذهب إلى ناديه.

مكتبة الفكر الجديد

يمنحنا المسجد حين ندخله نقيضين، رحابة المساحة وزحمة التاريخ. القائد العسكري سعد بن أبي وقاص، وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، بنى الكوفة ومسجدها عام ٦٣٧ م كقاعدة عسكرية في الحرب مع الساسانيين. لكني لم أر في الجامع الجهامة العسكرية. على العكس أعطاني على الدوام إحساساً بالسلام. حتى أبراج المراقبة الـ ٢٨ التي تحيط بالجامع بدت جزءاً من نسيج الألفة والخشوع الرقيق الذي يسم الجامع. الحمام المعشعش فيها وحولها يهبط بهدوء نحو اللوابن قريباً من الناس ويعطينا ضمانة السلام الأكيدة. واللقالق بنت أعشاشها باطمئنان مكان الكشافين في أبراج المراقبة.

من بين الغرف والأواوين التي تحيط بساحة المسجد تخصص الإدارة غرفتين متجاورتين لعائلة الشيخ عبد الكريم الجزائري. لن يسأل عنا أهلنا حين نغيب عن أنظارهم وقد وجدنا أصدقاء جدداً في باحة الجامع، فما من مكان أكثر سلاماً من هذه الساحة التي يتجول فيها الحمام. ما يزعجنا هنا هو حراس الفضيلة الذين لا عمل لهم غير الدوران في الجامع متلفتين يميناً وشمالاً بحثاً عن أخطاء الناس. يحركون خرز مسابحهم خلف ظهورهم بقلق دائم ولا يكفون عن نهرنا لسبب أو بدونه، ولا يتورعون عن شتم أهلنا الذين لم يربّونا وفق (أصولهم). تخصص أخي صبيح بتعليق فئران ميتة في عباءاتهم من الخلف. واحد من أصدقائي أمسك بساق واحد منهم حين كان يرفسنا ونحن نيام لننهض للصلاة فجراً.

حين تخفّ حرارة الشمس تدور في الجامع ريح طرية مبلولة بماء الفرات ورائحة بساتينه. آنذاك نترك أطرافنا على سجيتها وتتفتح عيوننا على كنوز التاريخ في زوايا الجامع.

عند باب الرحمة، وهو الباب الوسطي للجامع تقع (دكة القضاء)، عليها كان يجلس الإمام علي ليحكم بين الناس ويضع الحدود. النجف

مكتبة الفكر الجديد

لا تمنحنا صورة الإمام حياً لأن فيها ضريحه. في قبره يتحول رمزاً. الكوفة تقربنا منه حياً. أبداً لم تثبت في خيالي الصورة التي رسمها والدي للإمام علي «قصير وبطين وأنزع». عندما سألته عن (أنزع) انحنى والدي وأشار إلى شعره:

– هكذا مثلي..

لم يقنعني هذا الوصف لأن المقدس أقوى من الواقعي والصور أثبت من الوصف المكتوب، فالصورة التي ثبتت في مخيلتي هي صورته المتخيلة المطبوعة، بجلسته المائلة المكابرة، بعينيه الواسعتين العميقتي السواد وهو يحدق فينا موحياً من دون أوامر، بعمامته السوداء وهالة النور التي تحيط وجهه ويده القابضة على السيف. تشغلني وأنا أراقب الصورة وداعة واستكانة الأسد الجاثم بين قدميه. لا أعرف الرسام الذي تخيل الإمام بهذه الصورة، لكنه ثبتها في مخيلتي: هذا هو الإمام.

العدل كان هاجس الإمام علي «وقد أخبرني صديق من أهل المدينة وعارفيها» أن الإمام علي وضع إلى جانبه صندوقاً لتلقّي رسائل التظلم من القضاة يفتحه كل جمعة... هذا الفعل هو أول تأسيس في تاريخ القانون لما يسمى اليوم بتمييز الحكم أو استئنافه».

على هذه الدكة بالذات قتل الإمام علي وهو يصلي بضربة سيف مسموم. أحدّق في المكان طويلاً حتى أكاد أرى الدم الطاهر على تلك الدكة وأشعر بالسخط بين أسناني وأنا أفكر بقاتله. كيف تجرأ ورفع السيف. عمّ والدي الشيخ مهدي له رؤيته في أسباب القتل. وأنا أصنّف له ديونه التي بصم عليها الفلاحون في أراضيه، يحذرني الشيخ مهدي من المرأة، يحذرني وهو يتلفت حوله خوفاً من زوجته السليطة اللسان، ويهمس في أذني:

– في فرج المرأة الضيق أوسع بوابات جهنم.

مكتبة الفكر الجديد

– ...؟

– هل تدري من الذي قتل الإمام علي بسيف مسموم؟

– ابن ملجم.

أجبته فوراً وببداهة.

– لا...

قال لي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية وسط لحية شعثاء.

– قتلته امرأة.

– ...؟!

وروى لي والشرر يقدح من عينيه كيف أن القاتل الحقيقي للإمام، (قطام ابنة الشجنة) وهي التي قتل الإمام علي أخوها وأبوها في وقعة النهروان:

– هي التي رسمت خطة الخيانة، وحدّت السيف أربعين حدّة، وهي التي خلطت السم ومسحت به حدّ السيف وسلمته لابن ملجم، وما ابن ملجم عاشقها إلا أداة تنفيذ.

– ...؟!

– من أجل هذا (مشيراً إلى ما بين خصيتيه) خان الأمانة وقتل الإمام علي على سجادة الصلاة.

قريباً من الدكة انغرست (الرخامة) في أرض الجامع الرملية الصلبة. مذ كنا صغاراً نبذل جهداً استثنائياً، وأحياناً يعيننا الأكبر منا، بجر يدينا حد الألم لكي تشتبك الأصابع في الجانب الثاني منها وآنذاك نتنفس بفرح وقد حصلنا على وعد غامض بتحقق أمانينا. بالكاد أتذكر تلك الأماني. في مقدمتها أن لا يدخل والدي جهنم، وكنت على يقين بأن الإمام علي سيشهد له لأن والدي يلقي للشحاذة عند باب ضريحه

مكتبة الفكر الجديد

قطعة نقود كل يوم، ولأن الفقراء من أقاربنا أقرب إليه من الملاّك. فكرت طويلاً قبل أن أحدد أمنيتي وأنا أقف عند الرخامة واثقاً من أني سأطوقها: أن يكون لنا بيت فيه حديقة وأن يكون لي فيها حصان.

ننسى أو نتناسى طفولتنا ونتلبس وقار الكبار حين نغادر ساحة اللعب وندخل ضريح مسلم بن عقيل بعد أن نغسل أقدامنا وأيدينا في حوض الوضوء. حالما نقبّل إطار الباب ونعبر العتبة نرفع رؤوسنا إلى الأعلى فتبهرنا الإضاءة التي تتبادلها جدران المرايا والأفاريز التي تداخل فيها الخط الكوفي ذو الزوايا الحادة والخطوط الهندسية. عسير على القراءة لكنه متداخل في نسيج البناء. قبل أن أضع شفتي على الشباك أتذكر قول الشيخ إسماعيل عنه:

– هو الذي ورّط الإمام الحسين في هذه المعركة الخاسرة.

– كيف، وهو ابن عمه؟!

– طيبة قلبه خدعته. مثل آل بيته كلهم أهل مبادئ، فصدق أقوال الناس حوله وما درى أن قلوبهم مع الحسين لكن سيوفهم عليه.

في زاوية من زوايا المرقد قبر المختار الثقفي. قبر مربع وعليه إزار من القطيفة السوداء ومزهرية. لم يخبرني أحد عمّا فعله المختار الثقفي. كل ما أعرفه عنه هو أنه رفع شعار (يا لثارات الحسين!) ونفّذه بالدم. ما فعله تجسد في لوحة لرسام مجهول كانت معلقة في مدخل السوق الكبير ترينا كل ما هو مخزون في المخيلة الشعبية من أشكال التعذيب: هناك شخص مشبوح اليدين والساقين جالس على خازوق ينظر إلينا وعيناه تكادان تقفزان من وجهه نحونا، تحته في الوسط آخر يُغلى في قدر وعلى وجهه تعبير الدهشة أكثر من الألم، محاربان بكل عدتهما يفتحان فم آخر، وثالث ممسك بمغرفة ليسكب فيه سائلاً مصهوراً كالنار... الناس يقفون أمام هذه اللوحة طويلاً وعلى وجوههم ابتسامة تشفٍّ، لا تستفزهم

مكتبة الفكر الجديد

تفاصيل التعذيب بذاته، فالأمر في ذهنهم يتعلق بمن هم المعذبون (عمر بن سعد، عبيد الله بن زياد، حرملة بن كاهل وشمر بن ذي الجوشن). وسيكون فعل الجلاد حسناً ما دام معنا ضدهم. مع الناس كنت أحدق في الصورة وأسخر من تعابير الألم البليد في وجوه المعذَّبين.

كأن التاريخ الملموس والمؤكد لا يكفي وحده في قدسية الجامع، لذلك جمع المخيال الشيعي كل الأساطير الدينية هنا في هذا المكان الواضح السهل. فقريباً من الرخامة كما يقول الناس صلّى إبراهيم الخليل. لم أفهم ولا أحببت تقديمه ابنه إسماعيل كذبيحة. لم أعذره أبداً، وخاصة أني رأيت في الصورة فزع الطفل في عينيه وهو ممدد على المذبح ويرى السكين التي ستحز رقبته. أي قلب يحمل هذا الأب؟! حمدت ربي وأنا أرى الصورة لأن والدي لا يطيع أوامر ربه.

بحثت طويلاً في زوايا الجامع عن عصا موسى التي شق بها البحر ليعبر. لم أر البحر حتى الـ ٢٢ من عمري، لكنني لم أكن عاجزاً عن تخيله. مع ذلك لم يستوعب خيالي كيف يُشق البحر بضربة عصا ليعبر جيش موسى ويدفن جيش فرعون فيه. سألت خالتي سلمى وهي تروي لي الحكاية وتفلينى تحت شمس شتائية على البيت:

– كيف يشق البحر بضربة عصا؟

مكتبة الفكر الجديد

– إرادة الرب.

سكت وعيناي ترمشان غير مصدق الصورة.

في وسط الجامع سرداب غريب ننزل درجاته القليلة بحذر وأيدينا على الجدران. وتحت ضوء شحيح ولمعة باهتة نرى الماء الراكد..

– هنا بنيت سفينة نوح..

نبحث عن بقاياها ونحرك مخيلتنا لنتصور كيف بنيت تلك السفينة التي أنقذت البشرية وكل حيوانات الله من الطوفان في هذا الحيز الضيق الذي لا يتسع لقامة إنسان واقف؟

– إرادة الله!

مدخل ضريح مسلم بن عقيل.

الجامع يزخر بالقصص، قصص التاريخ والمعجزات المتحققة والمتخيلة. هنا تعلم الرواة القدماء والحاضرون فن القص. كل راو يختلي بمستمعيه في ركن هادئ من الجامع، ليروي حكايته ملوناً قصته

مكتبة الفكر الجديد

بالتفاصيل والمفاجآت ومنغماً صوته صعوداً ونزولاً تاركاً فراغات بين الجمل لمخيلة سامعيه. على خلاف النجف يجلس الراوي ومستمعه في حلقة صغيرة على الأرض، ويسبق القص التوجيه تاركاً للمستمع أن يستنتج الحكمة من سياق القصة.

سنضع ستارة من القماش الواهي عند الإيوان حين ننام، وهي أقسى عقوبة تُفرض على الصغار في هذه المساحة الرحبة التي تعج بالحركة حتى ساعات الليل المتأخرة. نصرّ نحن الأطفال، وخاصة حين صرنا صبياناً، على النوم في العراء بعيداً عن الغرف والسقوف، لأن رحابة الجامع تمنحنا أوسع سماء وأصفاها. أسمع الأذان ولا أصلي. كثير من أقاربي ومن معارفي نصحوني بالصلاة ولاموني لأني أتجاهل فريضة الله، لكنني لم أصلِّ، مع ذلك، كان الله بشكل ما في داخلي. رحابة الجامع والمقامات العديدة فيه وكثرة الأئمة والأولياء الذين ركعوا، ومنظر الجماعات التي تتوضأ وتصلي حولي، كل ذلك أثّر بي، لكن لم يدفعني للصلاة. في ساحة الجامع يجافيني النوم وأعرف أنّ حراس الفضيلة سيوقظونني بعد قليل للصلاة. أريد النوم ويجافيني، وأدرك أن شيئاً ما في داخلي يمنعني من النوم، شيء أعرفه ولا أسميه، هو الله، يعنّفني ويعاقبني بهذه اليقظة وقد اقترب موعد الأذان و لم أنهض للصلاة. أبقى في فراشي وعيناي إلى السماء ومن دون أن أقرّر أشعر بامتنان عميق لله الذي منحنا هذه الخيمة الجميلة المرصّعة بالنجوم يتوسّطها قمري الحبيب، منحنا هذا الجامع الرحب والنهر المهيب الذي يجري قريباً منه، منحنا «أشرف الشجر النخيلا» منحني أبي وأمي وهاتين العينين اللتين تنظران له. أخزن أكثر المشاهد حركة حولي، صلوات الجماعات في المقامات أو الضريح، صفوف العوائل وقد تجمّعت في العشاء على طول اللواوين، اللقالق التي احتلت مكان الكشافين في أبراج الحراسة، حراس الفضيلة وهم يدورون بلا توقف، الحمام يطير بوهن ويحط

مكتبة الفكر الجديد

قرب اللواوين ملتقطاً بقايا الطعام، التذكارات المتزاحمة المحفورة في حيطان الغرف... أجمعها وأنا أوشك أن أغمض عيني، فتختلط صور العين بصور الأحلام.

خارج التاريخ وأساطيره في هذا الجامع كنا نعيش حياة اجتماعية مختلفة. فلواوين الجامع متاحة لعوائل مختلفة. وليس بيننا عدا الغرف حواجز أو جدراناً في هذا الفضاء الرحب، لذلك يستحيل الفضاء المفتوح إلى معرض وسباق لتنافس العوائل في استعراض البسط التي تفرش فيها اللواوين والسماورات التي يخدر فيها الشاي وأسمطة الطعام. وفي رحابة الجامع وقدسيته تشف أرواحنا بنوع من السلام والتعاون، فكلنا على سفر، ونحن جيران ينبغي أن نُري الآخرين أفضل ما فينا ونتبادل الحاجات وما طبخناه، نسلم ونصبح ويصلي الكبار معاً، ولذلك تنشأ علاقات تختلف عن القرابة والجيرة خلال هذه الأيام التي نقضيها معاً. الشبان والبنات وقد تقاربوا أكثر في هذه الأواوين المتجاورة صاروا يتبادلون النظرات والمواعيد المتأخرة حتى قبل أن يتبادلوا الكلمات.

مكتبة الفكر الجديد

شـــــــرفة على الفـــرات

بين الجامع والفرات مسافة دقائق، لكنها أيضاً المسافة بين المقدّس والجميل. جدي الشيخ عبد اللطيف فضل الجميل فبنى بيتاً يطل على الفرات. الطابق الأسفل مهمل تدخل مياه الفرات حين يفيض إلى سراديبه واختنقت غرفه السفلى بشجرة سدر تضج وقت العصر بأصوات العصافير وفي الليل تخفق فيها أجنحة الخفافيش البلاستيكية وتلمع عيونها في الظلمة.

تتركز الحياة كلها في الطابق الأعلى حيث أقام جدي ديوانه الصيفي في ثلاث غرف تطل على الفرات من خلال مشربيات من الخشب المزين بالزجاج الملون. تتوسط الغرف شرفة مفتوحة، ينام فيها جدي ويستقبل ضيوفه فيتحدثون ويأكلون وعيونهم باتجاه النهر.

لساعات أطلّ من الشرفة وأمامي ثلاث حيوات، فوق الأرض،

مكتبة الفكر الجديد

تحت الماء وثالثة في السماء القريبة من الماء. على الكورنيش متنزهون يسيرون بخطى وئيدة أو يجلسون على المسناة متأملين ومحركين خرزات مسابحهم، حائرين بين المشاهد التي أمامهم وبين التداعيات التي تولدها المشاهد فيهم. أراقب ماء الفرات وحركته الدائمة التي لا تتوقف ويخيفني أيام الفيضانات هدير موجه باعثاً دوياً متصلاً. فوق النهر وفيه صيادون نشروا شباكهم وجلسوا في زوارقهم غير مستعجلين الرزق فهو آت بلا ريب، وراحوا يغنون عتابات وأبوذيات فتسير أصواتهم مع ماء الفرات، صبيان يقضون جل الوقت عابرين النهر ذهاباً وإياباً، باعثين صرخات وضحكات مرحة. فوق الماء تطير السنونو دائرياً، ثم تخبط الماء بأجنحتها او تنقض عمودياً لتثقب جلد الماء بمنقارها لتلتقط سمكة .

على هذه الشرفة يستلقي جدي بين زوجاته الأربع يشرب شايه عصراً ممزوجاً بحبتي ترياق. أمام عينيه أخذني خالي عبد الأمير إلى النهر، ليعطيني أول درس في السباحة وأنا في العاشرة من عمري. طريقته في التعليم تبدأ بوضع اليدين تحت البطن ثم سحبهما فجأة لأن الإنسان يتعلم السباحة خوفاً من الغرق. غرقت مرتين وقد جرني الفرات إلى جوفه وفتحت عيني من تحت على لون طينه. في المرتين كان خالي يلتقطني وهو يضحك. بإصراره وخوفي طفوت فوق الماء...

لا يشاركنا والدي فترة الإقامة في الجامع، ولا الإقامة في بيت جدي عبد اللطيف المطل على الفرات. فالمكانان يضعانه وصحبه تحت وطأة المحرم أو المستنكر، لذلك يختار هو وصحبه الجزر بعيداً عن الناس. هناك يختلون مع مزتهم وخمورهم والعود وأغاني عبد الوهاب. بعد أكثر من عشرين عاماً وجدت نفسي أعيد تقليد والدي مع شلة من أصحابي.

مكتبة الفكر الجديد

رحلـــة الخــــريف

على الدراجات نترك الصحراء والمقبرة المقدسة خلفنا ونتجه إلى الجمال في الطريق إلى أبو صخير، الحيرة، الكوفة ثم عودة إلى المقدس في النجف.

لقد أصلحنا دراجاتنا الهوائية لرحلة الخريف السنوية، زيتنا عجلاتها ودواساتها ووضعنا قليلاً من متاع الطريق على المقاعد الخلفية ورحنا نقطع الطريق المسفلت. إلى اليمين تتصارع الرمال مع التاريخ حيث عاش المناذرة والساسانيين وما زالت بقايا كنائسهم وقبورهم وصلبانهم ظاهرة بين الرمال. إلى اليسار يصطدم امتداد الصحراء بأكمات الخضرة. تبدأ الشجيرات خجولة متوحدة عارية الوجود تسفها الرياح المغبرة. شيئاً فشيئاً تلتحم لتسجل خطوطاً من الخضرة كلما اقتربنا من الفرات وجداوله.

نقاوم الريح بدراجاتنا فتمتلئ قمصاننا بالهواء الذي يريد أن يعيدنا إلى المقدس ونحن نقاوم بربلات سيقاننا لنصل عمّا قريب إلى الجميل. نأخذ، كما الجنازون، استراحة قصيرة في مقهى على الطريق ثم نواصل قبل أن تبرد سيقاننا لندخل الممر الأخضر الذي يحاذي الفرات في طريقنا إلى الكوفة. أجهل وأنا أدوس الطريق الترابي أين تقع بساتين جدي، لكنني أعرف أن (نخلة الله) فرزت من كل بستان، ثمرها مباح للعابرين.

نلقي دراجاتنا على الطريق وننحدر قليلاً لنلتقط حبات التمر المتربة

مكتبة الفكر الجديد

فيذوب العسل في أفواهنا ويعطينا طاقة الاستمرار... يسير الطريق الترابي بعدها على متن الفرات فتبدأ رائحة الطين ونسمات طرية تمسنا من اليساز ثم تتكثف الظلال فندخل عالماً أخضر. وبين آونة وأخرى نسلم على فلاحين فتدعونا نساؤهم لخبز خرج تواً من التنور، أو يمد الرجال أيديهم وقد امتلأت بعناقيد العنب...

قبل أن نصل الكوفة ونعود ثانية إلى الطريق الصحراوي نلقي دراجاتنا على الطين وننزع ملابسنا على عجل ونقفز إلى الماء، مطلقين صرخات ضاحكة. أجسامنا الساخنة المعرقة المتربة تفز من ملمس الماء. نبتعد سباحة عن الشاطئ ونلتفت بعد جولة سباحة لنرى دراجاتنا ماتزال نائمة هنا، وفوقها ملابسنا في هذا الفضاء المبلول الذي يقل فيه الفلاحون وصيادو السمك. نسمع في البعيد طلقة أو طلقتين، ونعرف بالغريزة أن طيراً قد سقط وسيرفس قليلاً قبل أن تلتقطه يد الصياد. نتمدد متعبين على الشاطئ بعد أن أتعبتنا السباحة وننظر إلى السماء فوقنا صافية شديدة الوضوح أليفة، إنها سماؤنا، لم تعد الشمس تضايق عيوننا، فنتابع طيراً خط فوقنا دورة قبل أن يهبط إلى عشه في البساتين.. آنذاك نحس بجمال لم نر غيره. حين تغيب الشمس خلف النخيل نودع الفرات ونواصل الطريق بفتور، عبر الطريق الصحراوي، حتى تلوح من بعيد لمعة القباب الذهبية....

مكتبة الفكر الجديد

في الخلف من اليمين: أمين مظفر، أمجد مظفر، عبد إله الشمرتي، علي ناجي بر.
أماماً: صبيح الجزائري، علي الصراف، زهير الجزائري.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

معاول التجديد

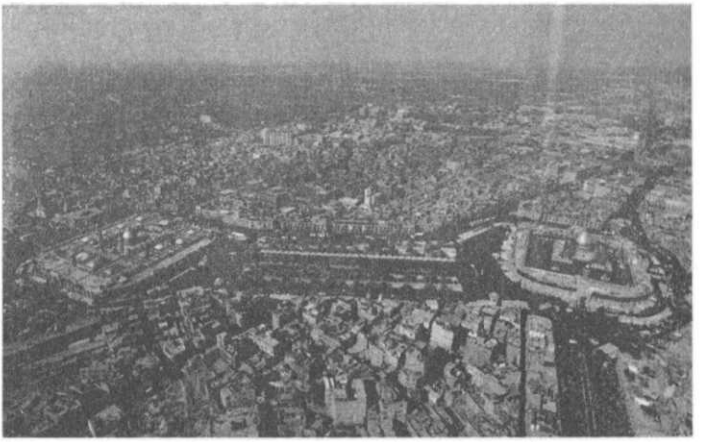

قبل أن تغرز الجاروفات أسنانها في لحم المدينة كانت البيوت تتكئ على جدران الصحن الخارجية وتشكل معه نسيجاً متداخلاً يخضع هيبة المقدس لألفة الناس. في هذا التجاور بين الأليف والمقدس لم يكن للحكومة موطئ قدم، لأن وجهاء المحلات شكلوا سلطة المدينة.

تماماً كما الكابوس بدأت الجاروفات تفتح في جسد المدينة جرحا دائرياً حول الصحن. ففي العام ١٩٤٩ فُصلت بيوت المدينة عن المرقد العلوي بشارع دورة الصحن. على الأسفلت الجديد المستوي جربت ركوب دراجة هوائية رقم ١٠ بعجلتين، يلتم حولها الصغار حين أتوقف لأنهم لم يروا من قبل غير الدراجات حجم ٢٨ التي يركبها الجنازون، وهم يلاحقون الجنائز القادمة إلى النجف. كنت أدور بهذه

مكتبة الفكر الجديد

الدراجة حول الصحن، حراً كالهواء منتشياً كالطير يتحرك منزلقاً من دون أن تمس قدماه الأرض. من بعيد شاهدت مأمور مركز الشرطة يتبختر في الشارع محاطاً بشرطته ومسدساتهم. تجمعت كل مخاوفي في عضلات يدي وكنت أتجه إليه بمقدار ما أحاذر منه وأحاول تجنبه. حذري منه قادني إليه حتى صدمته بالضبط بين خصيتيه. و لم أتخلص منه ومن شرطته حتى عرف أن والدي صديقه.

على تلة من ركام بيت مطل على دورة الصحن الجديدة كنا نجلس باسترخاء نؤرجح سيقاننا و نتابع خطى العابرين وبالتحديد الغرباء عن محلتنا. في الوسط عرابنا حميد المطبعي الذي يكبرنا عمراً وخبرة في العراك. نحن شلته التي تحرس مدخل المحلة من الشقاوات والمعتدين والغرباء. لا ينزل حميد المطبعي من عليائه حين يستدعي الأمر تحركنا لمواجهة، إنما يوجهنا ويضع يده على قامته المخفية تحت الدشداشة.

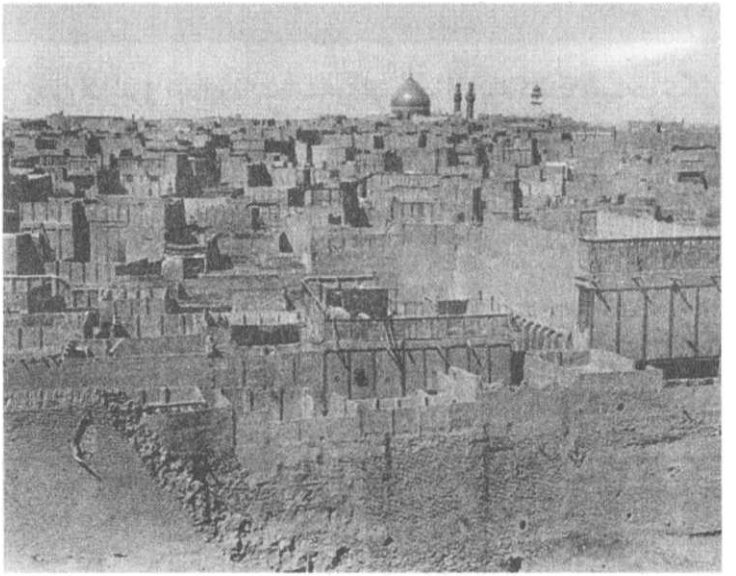

مكتبة الفكر الجديد

يعلمنا حميد بأن لا نأبه أو نهاب سمعة الشقاوات ولا ضخامة أجسامهم أو نوع سلاحهم. حتى وإن كنا صغاراً وأجسامنا ضعيفة نستطيع أن ننتزع منهم المبادرة (نأخذ بوشهم) ونصرعهم بـ:

– الضربة الأولى!

هذه هي استراتيجيته في حرب المحلات:

– المباغتة، المباغتة، المباغتة!

كنت الاحتياط الرابع في عصابته. أولنا (ناجي عفاريت) القصير المفتول العضل والقليل الكلام. حين مر واحد من الشقاوات الغرباء ليستعرض، مائلاً في مشيته كالأعرج مقوساً ذراعيه ويتمايل في مشيته على الإسفلت الجديد كان يشحط نعاله ذا المسامير الحديدية التي تبعث الشرر. لم يلتفت إلينا حينما مر، إنما بصق من بين أسنانه. بإشارة ساخطة من رأسه أمرنا حميد بأن نتحرك. نزل ناجي عفاريت ليقطع الشارع عرضاً ثم توقف في عرض الشارع المسفلت ليسأل الشقاوة عن الساعة. حين انحنى لينظر في ساعته تقلص ناجي كما اللولب ثم قفز طائراً في الهواء ونطحه في نقطة بين الحاجبين. لم يدع له دقيقة ليسترد وعيه، كما تعلم، إنما انهال عليه بسلسلة من الضربات المتتالية وتركه ممدداً في عرض الشارع عبرة لمن أرسله.

بعد هذه الحادثة أدركت تماماً أنني لست صالحاً، لا جسدياً ولا جرأة، لعروض القوة واتجهت كلياً إلى عروض المخيلة.

فتح شارع دورة الصحن المجال لأسواق جديدة. الدكاكين المواجهة لمدخل الصحن الرئيسي تخصصت ببيع السبح بأنواعها وترب الصلاة المصنوعة من طين النجف الذي دفن فيه الإمام علي، محابس فضة مزينة بدر النجف، أدعية كميل مخزونة في كبسولات جلدية تعلق في غرة المولود الجديد، خواتم فضية قيل إن الإمام علي أوصى حفيده زين

مكتبة الفكر الجديد

العابدين بالتزين بها وكف العباس من النحاس خطت عليها كلمات الحسين قبل استشهاده، وقد صاغها الشيخ محسن أبو الحب شعراً «إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني!».

بعد دورة الصحن بدأت معاول التجديد تمزق نسيج المدينة القديم بشوارع للسيارات، شارع الطوسي، شارع الرسول، شارع زين العابدين، شارع الصادق، شارع السور ... عشت التغيرات في معمار المدينة ورأيت الفجوات المشوهة التي تركتها الجرافات. الخرائب والثغرات المشوّهة التي تبحث عن معنى قديم أو قادم فتحت المجال لهويات مجهولة قادمة وصارت الحكومة تعطي المعنى للمدينة، وهو في الغالب (معنى) أمني بعد أن كان الناس يصنعون المعاني بوعيهم الجمعي. أسواق النجف وبضائعها تبدّلت. ففي السوق الكبير كانت الألوان الكابية (الأسود، الرمادي، القهوائي) هي السائدة في محلات بيع الأقمشة، وبالتحديد النسائية. بدأت تظهر ألوان جديدة لم تتعودها العين النجفية، مثل الأحمر والأزرق والأصفر على شكل ورود أو نقوش. وكنت أرى آل عجينه يفرشون هذه الألوان أمام زبونات متحرجات لسان حالهن يقول «لمن الألوان ما دامت العباءة السوداء ستغطيها؟»

مكان القيسرية بدكاكينها القديمة المتداعية والكتب ذات الأغلفة الجلدية الجهمة ظهرت (مكتبة الحلو) التي صارت ملتقى القراء الأفندية، من اليساريين ومتابعي الحداثة. ينتظرون الكتب والمجلات القادمة من العواصم العربية، القاهرة وبيروت، ومن بغداد.

في الساعة الحادية عشرة من صباح كل ثلاثاء ننتظر أنا وصديق صباي نعمان منى وصول المجلات من بغداد لنكون أول من يشتري مجلتي الأطفال المصريتين (سمير وسندباد). منعت الثانية في أواسط الخمسينات كجزء من الإرث الناصري. ذات ثلاثاء وصل نعمان قبلي

مكتبة الفكر الجديد

بدقائق وفتح مجلة سمير كما في كل مرة . كنا نقرأ مغامرات الكشاف (باسل) وهو في عمرنا كما تخيلناه. أسرتنا طاقته وشجاعته وذكائه. وحرنا آنذاك كيف لنا أن نقلده في مدينتنا التي لا تقبل الخرق ؟ رأيت نعمان جالساً على دكة في السوق وقد شبك يديه حول رأسه حزناً وخذلاناً:

– ما الذي حدث؟

سألته على الفور.

– عصابة المهربين أسرت باسل.

جوابه نزل عليّ كالصاعقة، فقد كان باسل بطلنا الذكي المطلق القدرات.

المجلات والكتب الجديدة فتحت أعيننا على بطولات جديدة خارج البطولات الدينية التي سمعناها. كما هيأتنا المسلسلات المصورة لنوع آخر من الثقافة يضاف للمسموعة والمقروءة، هي الثقافة المصورة في مدينة ليس فيها دار للسينما.

في نهاية السوق الكبير فتح ناجي أبو ركيبه محلاً جديداً على النجفيين لبيع الساعات اليدوية. في مقدمة المحل قاعدة دائرية على شكل مرآة تدور باستمرار وتعرض الساعات للمتفرجين. أمامها وهي تدور ندخل في دورة الزمن. طبقة الأفندية النجفية التي أقبلت على هذه الساعات ماعادت تقيس الزمن على الأذان، بل من خلال ساعة ملازمة لهم كعضو جسدي لا يريهم الساعات وحدها، بل الدقائق والثواني أيضاً. كنت أنتظر دخول المتوسطة بلهفة لكي يهديني والدي أول ساعة يدوية ويحصل لي ما حصل له، أن أسأل وأنا في الطرق:

– الله يخليك بيش الساعة؟

آنذاك أشعر بأن فعالية الناس القادمة متوقفة على جوابي فأرفع يدي اليسرى بحركة أنيقة لأجيبهم بالساعة والدقائق، وللتباهي، بالثواني. سأعلمهم أهمية الوقت.

مكتبة الفكر الجديد

كعادتهم في مقاومة كل جديد نشر المحافظون إشاعة تحذر من أن شراء الساعات الغالية هدر للمال والوقت لأن قملة صغيرة هي التي تحرك أميال الساعة، لذلك ستتوقف بعد أيام وتصبح الساعة مجرد قطعة حديد لا فائدة منها.

في ساحة الميدان، حيث مدخل المدينة عبر السوق الكبير، ظهر أول لوندري لغسيل وكي الملابس. ظهر على حساب محلات الكي القديمة واختفت معه العلاقة القديمة والشخصية بين المكوي (الأوتجي) والزبون – الجار والبضاعة. يعرف أوتجي المحلة زبونه معرفة شخصية، يعرف عائلته وذوقه وتجري عملية الكي بحضور الزبون وفي جو من الأحاديث المتبادلة، كما يرى البضاعة بعينيه ويتلمسها بيديه قبل ان يرتديها الزبون على جلده. في اللوندري الجديد لا مجال لتبادل الأحاديث الطويلة مع أصحاب المحل (منى والطفيلي)، فهناك صف من الزبائن وستحل الأرقام محل أسمائهم وتغيب البضاعة بين أكداس من ملابس آخرين لتدخل في ماكينات مدوخة تخلط الكل بالكل ثم تعيد ترتيبها حسب أرقام الزبائن. نفس المحل أدخل عادة جديدة وغريبة على المدينة هي (التأمين على الحياة) في مدينة تؤمن بأن الأعمار بيد الله.

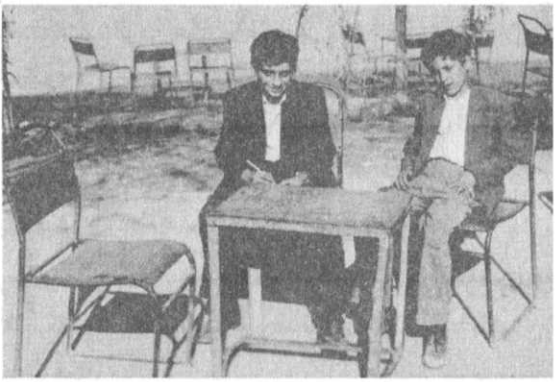

مع صديق الصبا نعمان منى على ضفة الفرات.

مكتبة الفكر الجديد

الجوامـــــــع والمقاهـــــي

مع شق شارع دورة الصحن وانفصال البيوت عن جدرانه نشأت مقاه جديدة إضافة للمقاهي القديمة، مقاهي المحلات والأطراف او المقاهي التي تجمع أصحاب المهنة الواحدة: مقهى التجار، مقهى الجنازين، مقهى مصلحي السيارات (الفيترية)، مقهى البنائين ومقهى المهربين في منطقة (الثلمة). ضمت المقاهي الجديدة أفندية متعلمين يقرأون الجرائد ويسمعون الراديو ويتبادلون أخبار العالم ويعلقون عليها. صارت هذه المقاهي تنافس الجوامع كمراكز لتبادل المعلومات وتشكل مراكز للتوجيه العقائدي للأحزاب التي اتخذت من المقاهي شبه مقرات لها. مقهى عبد ننه في الميدان للشيوعيين ومقهى أبو البسامير قرب جبل الحويش للقوميين.

مكتبة الفكر الجديد

في هذه المقاهي يلتقي الناس بمستمعي الراديو وقارئي الصحف ليعرفوا ما يجري في العالم وهو الأمر الذي لا يذكره قراء المنابر.

في الجامع هنالك متحدث واحد جالس على منبر يعلو فوق مستمعين منفعلين ومهيئين مسبقاً للانفعال. في المقهى تغيرت المعادلة. الجميع جلسوا جنب بعضهم البعض ولا أحد يعلو فوق البقية. الكل يتحدث ويستمع، فالجدل هو السائد وقد يكون المتحدث مخطئاً أو مصيباً. مواضيع الحديث تغيرت من الدين إلى الحياة الأرضية، ومنها الحب والسياسة والدين من منظور علماني. المعممون اعتبروا الجلوس في المقاهي مخلاً بهيبتهم فمكان المعمم هو واحد من ثلاثة: الصحن، الجامع او الديوان.

المقاهي الجديدة في دورة الصحن والميدان صارت تقدم البيبسي والكوكا والسينالكو إضافة للشاي. وفي هذه المقاهي تغيّرت بوزات الجالسين. ففي مقهى أبو كلل عند المدخل الأيسر لسوق العمارة يجلس الشيوخ «المشوربون» متكئين على المسند الجانبي للتخت وباليد الأخرى مبسم الأركيلة ومسبحة اليسر، قدم على الأرض وأخرى على التخت، يملأون أوسع مساحة حتى لا يتيحوا لأي كان أن يجلس إلى جانبهم في مقدمة المقهى. على مُحدِّثهم، وهو شاكٍ أو صاحب حاجة، أن يقترب ويهمس في آذان الشيوخ، وأن يلين صوته قدر ما يستطيع. يبقى الشيوخ صامتين طويلاً وعيونهم معلقة في الأفق تستبطن ما وراء الكلمات، وحين يردون لن يتزحزحوا من جلستهم إلا إذا مرّت المراجع في طريقها إلى الصحن. على عكسهم يتربّع الزوار من معدان الجنوب على التخت كما لو كانوا جالسين على الأرض، يلوجون من إحساس بغربة المكان، ويتقربون من كل من جلس إلى جانبهم سائلين أبناء المدينة عن موعد الأذان أو افتتاح عيادة الطبيب أو ...

تبدو تخوت المقاهي وكأنها صممت لتناسب جلسة الأفندي وقد

مكتبة الفكر الجديد

فرش الجريدة على صفحتيها حاجزاً بينه وبين ما يجري في الشارع أمامه. يمسح فوهة قنينة الكوكا أو السينالكو بحرص ثم يتجرعها على مهل برشفات متباعدة. وحين يتحدث مع أفندي يقابله، يأخذ جسمه شكل علامة استفهام، مستخدماً كلتا يديه لدعم ما يقوله للمجادل الآخر غير عابئ بالصبي الذي يلمّع حذاءه.

تعدت المقاهي الجديدة، وهي في مركز المدينة المختلط، أصحاب المهنة وأبناء المحلة، وضمت خليطاً عجيباً من الناس: فيها يجلس النفاج العائد تواً من حرب، الذاهب بعد قليل إلى حرب أخرى، ويجلس اللوطي متحرجاً من رعونة الصبي الزعلان الجالس في طرف الأريكة. غير بعيد عنه الشاعر الصعلوك ببدلته المهترئة وشعره المنسدل يقرأ على مريديه آخر قصائده العمودية. قريباً من صاحب المقهى جلس التاجران وقد فرشا أوراقهما على الطاولة لتقاسم أرباح صفقة القماش السوري... في الواحدة ظهراً سيدخل المعلم الشيوعي الخارج تواً من السجن لينزوي مع كتابه، قبله بربع ساعة جاء المخبر وجلس في مقدمة المقهى متخفياً وراء جريدته ويعرف كل الجلّاس أنه جاء لمراقبة المعلم الشيوعي وليس لديه ما سيكتبه عنه. على التختين المتقابلين في مقدمة المقهى جلس المنكّتون ساخرين من كل ما في المدينة ومن أنفسهم.

النفاج جاء متأخراً عن موعد قدومه المحدد فلن يجد أحداً من مستمعيه التقليديين الذين ينقلون آخر أكاذيبه إلى المدينة. يجلس منهكاً ولن ينتظر طويلاً ليفتح الحديث مع شخص لا يعرفه جلس على نفس الأريكة....

تسأل لم تأخرت اليوم عن موعدي؟ حقك أن تسأل... القائممقام جاء بنفسه فجر هذا اليوم: أبو إبراهيم أنا بحاجة إليك. أنت ابن المدينة الشهم والمدينة تريدك في لحظة شدة لإنقاذ أقدس مقدساتها..

مكتبة الفكر الجديد

حاضر يا أبو سند سآتيك بعد صلاة الفجر مباشرة. قبلها يا أبو إبراهيم، فالخطر داهم، والإمام علي شفيعك. لا أستطيع أن أصف لك خوف القائممقام وصفرة وجهه وهو يهم بتقبيل يدي. ما الأمر أبو سند؟ الإنكليز! قالها هامساً. أرسلوا أشهر مصارع عندهم لتحدينا، قال إنه سيقلع بيده الرخامة التي زرعها الإمام علي في جامع الكوفة... لبست عباءتي على عجل وركبت سيارة القائممقام جالساً في صدر السيارة بينما جلس هو في المعقد الخلفي. قلت له لاحاجة لأن تكون حاضراً إذا كان ذلك يسبب لك أي حرج. وصلت قبل المصارع الإنكليزي بدقائق وجلست عند الليوان ورأيته قادماً من بعيد بعد أن أنزلته الطائرة خلف المسجد. معه اثنان من مساعديه يحملان مناشفه، ومصور خاص ليصور لحظة التحدي. قبل أن يلمس الرخامة بيديه النجستين قلت له يا جون ابن ماجون قبل أن تمس الرخامة أتحداك أن ترفع رجلي من الأرض.

– بأي لغة تحدثت معه يا أبو ابراهيم؟

– هو يعرف قليلاً من العربية، وأنا أطقطق بالإنكليزية، يس، نو، وان، تو، ثري، ... في النهاية فهم التحدي وفرك يديه وصرخ ثم انحنى ليرفع قدمي اليسرى. حين انحنى وضعت كفي اليسرى على رقبته وأنزلته إلى الأرض وهو يتلوى من الألم حتى، حاشا السامع، ضرط... لم أتركه إلا حين قبّل قدمي أمام المصوّرين الذين جاءوا معه... لم أرد أن أحرج القائممقام أكثر. قلت له لا تفكر يا جون في الاقتراب من مقدّسات الأمير. وغطى عينيه خجلاً من العار وعاد من حيث أتى.

لا شيء يستعصي على النفاج، فهو عليم بكل الأمور، قادر عليها. هو الذي صلح الساعة الكبيرة فوق مرقد الإمام حين تعطلت وتاهت

مكتبة الفكر الجديد

على المدينة مواعيد الصلاة، هو الذي فتح الماء بعد أن حشرت كركة[١٤] في الأنبوب الرئيسي، هو الذي أمسك بالسعلاة في المقبرة وجرّها من منخريها أمام وجهاء آل كمونه... لا أحد يصدق هذه الأكاذيب غير النفاج نفسه، يرى خياله أكثر صلابة من حقيقة الساخرين منه في حضوره، لا يأبه للتعليقات الساخرة، ولا يتراجع عن رواية قصته إذا قاطعه السفهاء، لديه قصة كل يوم، ما يحتاجه وجود مستمعين وما عليه إلا أن يفتح منديل خياله فتخرج القصص وقد تكدّست في دهاليز مخيلته، وتتحول بطولاته إلى نكات المدينة. لا حاجة لأن يستزيد النفاج من قصصه، ستضاف إليها قصص أخرى من مخيلة المستمعين وفي داخل كل واحد منهم نفاج خجول وساكت، يمتص القصص منه ويعيد إنتاجها وكأنها حقيقة.

عند خروج الطلاب من مدارسهم يدخل اللوطي إلى المقهى خجولاً كعادته ويسلم بصوت ذليل. بصحبته دائماً صبي ما زال يحمل كتب المدرسة، هو دائماً من المهاجرين الغرباء عن المدينة. ترك اللوطي دكانه ودراجاته الهوائية في عهدة جيران يسرقونه. يعرف إنهم يسرقونه، مع هذا يذهب إلى موعده المحدد بانتظار خروج الصبي من المدرسة ليلتقيه في زقاق معزول. لامكان لديه وهو متزوج وله صبيان وبنت، إلا الدكان في أيام الصلح، لكن حين يزعل الصبي ويرفض الذهاب إلى زاوية اللذة في نهاية الدكان، سيلتقيه في المقهى.

يلتقط المنكتون الفضوليون من حديثه الهامس جملاً عابرة:

– أنا مثل أخوك الكبير... حين أغضب فلأني أعرف مصلحتك... (يدس في جيب الصبي بعض النقود).. اعتبرها دين...

جوقة المنكتين تحزر الجمل من خلال الحركات المقتصدة وتنسج

(١٤) الكركه تقابل القط الوحشي.

مكتبة الفكر الجديد

حول الاثنين الكثير من النكات ويدركون أن الهمس قد يتبدل من التوسل إلى التهديد بالقتل إذا استمر الصبي في عناده، ولكن ما دام احتفظ بالنقود في جيبه، هناك إذاً مجال للمصالحة... يبتسم اللوطي في النهاية ويتنفس الصعداء وينظر لمن حوله مبتسماً: «لقد ربحت الجولة»!

ومن دون أن يلتفتوا إليه وإلى الصبي وقد لانَ، تصرخ جماعة المنكتين مرة واحدة:

– دوشيششش!

يحلف التاجر القصير البدين بالشريط الأخضر حول (كشيدته)[١٥]:

– وحق جدي الحسين لم أربح منك إلا كلفة البضاعة.

ويعيد وهو يمسح العرق المتصبب منه نفس الكلمات التي حفظها عن ظهر قلب «سعر الشراء، لا أعامل الأصدقاء معاملة الزبائن... اسأل قبل أن تشتري، لكن تأكد من النوعية.... لدي نفس اللون والتصميم بنصف السعر، لكنني كصديق لا أنصحك بالشراء... معقول... نختلف على خمسة دنانير؟»

عادة يحلف التاجر الأول بأن قماشه الجديد، مثل زولية الكاشان، يكد مئة عام من دون أن يبلى، ويقسم ثانية بأن هذا مجرب ومكتوب على الصندوق بالصيني كعهد من المنتج. هذه المرة قلص المدة إلى ٩٢ عاماً ليبدو أكثر واقعية.

يصمت قليلاً ولكن كل حواسه تتكلم مرة واحدة ثم يقرب وجهه من الآخر ويسأل بصوت كالفحيح:

– ألا تصدقني؟

---

(١٥) الكشيدة لباس رأس خاص بخدم العتبة العلوية يتكون من طربوش لفت عليه عمامة خضراء للسادة أو صفراء لغير السادة.

مكتبة الفكر الجديد

يصمت الآخر لفترة وينظر تماماً في عينيه:

– أصدقك.

يقولها مشحونة بالشكوك وهو ينظر إليه عابراً كل هذه الكلمات. وتزداد شكوكه كلما زاد القسم والإلحاح «لمَ يريد أن يبيعني هذه البضاعة بالتحديد؟ وبهذا التنازل في السعر؟!» يلتفت إلى قبة الأمير الذهبية ويشير إليها بإصبعه:

– وحق الراقد تحت هذه المنارة... المال ليس مالي، إنه مال يتامى... هل تقبل بالحرام؟

لا يأخذ كل منهما كلمات الآخر على محمل الجد. فقد سمعا هذه الكليشات مراراً، إنها على العكس تزيد الشكوك بدلاً من أن تزرع في دغل الشكوك نبتة من الثقة.

لجوقة المنكتين قواعد ثابتة وجدول عمل وخطوط أخلاقية حمراء. زعيم الجوقة وعرابها (ك و) هو الذي يفتح الجلسة ويحدد موضوعها، اللوطيون، البخلاء، الحشاشون، الكذبة... ولكل واحد من هذه الحقول شخصية يجسدها. يفتتح (ك و) الحديث بنكتة.. له طريقة مدهشة في الاختصار بحيث يروي نكته بثلاث جمل فقط:

– سمع الحشاش صوت الأذان فقال ...

لا يضحك، ولا حتى يبتسم إنما يروى نكتة الافتتاح ببرود وجدية ويترك فراغاً من الصمت، فيسكت الجميع حتى يستوعبوا المفارقة ثم ينفجر الضحك. بعدها يسأل:

– ما الجديد اليوم؟

في قوانين الجماعة لا تعاد نكتة سابقة في بداية اليوم، إنما تترك النكات القديمة للنصف ساعة الأخيرة «مراجعة الأرشيف». ولا تعاد

مكتبة الفكر الجديد

النكات القديمة بالتفصيل، انما يذكر فقط رقم النكتة في ملف الذاكرة. وبعد أن يعلن الرقم تترك دقيقة واحدة للتذكر أو لاستعادة العنوان «البخيل في المستشفى، الغبي وحماره، المنيوك في الجامع، القحبة ليلة عرسها...».

كل واحدة من جوقة المنكتين لديه مصدر أو مصدران، يجمع منهما آخر النكات ويسجلها في دفتر صغير يحمل عنواناً «دفتر عزرائيل»، «سجل السخافات»، «السفيه وما شابه»... وحين يروي أحدهم نكتته:

– أكو فد واحد...

يتوقف بعد المدخل بقليل ليعرف ما إذا كانت نكتته قديمة...

عليه أن يقفز فوراً نحو النكتة الاحتياط وبسرعة فلا وقت للمنكتين لأن القائمة طويلة، والوقت قصير، لن يبددوه بالانتظار، إنما سينتقل الدور للثاني. وبعد كل نكتة ينتظرون حكم الزعيم فإما أن يكون الحكم:

– بايخة.

أو هزة رأس مع تقليص العينين «محيرة، وعلى الحافة». وإن كانت النكتة صالحة ستمنح رقمين، رقمها في الأرشيف ورقم آخر من خمسة يحدد نوعيتها.

في مجموعة المنكتين وظائف محددة، ففيما عدا الزعيم ونائبه، هناك مدير الأرشيف ومدير العلاقات ومدير الدعاية الذي يقوم بنشر النكات الجديدة في المقهى ومنها إلى الخارج بعد أن تختم النكتة بعلامة الجماعة المنتجة.

مرة دعتني جماعة المنكتين لأمثل دور بروفسور إنكليزي، جاء يبحث عن عالم عراقي انتشرت أبحاثه في جامعات العالم. هذا الشخص

مكتبة الفكر الجديد

المجهول في بلده هو (قسام) الذي اعتبرته جماعة المنكتين آخر موديل بين مجانين المدينة.

في الصف الأول الثانوي بدأ قسام يسمع من معلمه عن الجاذبية ودوران الأرض حول الشمس... هذه المعارف البسيطة مست الملل المستعد للجنون عند رجل لا عمل له غير الخيال في أكثر المقاهي ازدحاماً، فبدأ ينسج حولها من خياله مؤمناً، بلا جدل، بأنه صار عالماً وأن اكتشافاته تشمل كل العلوم. وحين تنتهي واحدة من صفناته باكتشاف يقولها بصوت عالٍ:

– وجدتها ...

لا يرى الناس حوله ساخرين من رثاثة ملابسه ومن صفناته الطويلة، ولا يرى بركة الماء الراكدة أمامه فيمشي فيها غير آبه بما يدوسه. تسقط السقيفة المتداعية وهو نائم فينفض نفسه من تحت الحجارة وينهض غير مهتم بأوجاع عظامه. لا يرى قسام ما حوله فبصره وبصيرته مكرستان للأمور الكبيرة التي تتعلق بدوران الأرض وحركة الكواكب والقوانين الخفية التي تسير العالم والإنسان .. اهتماماته توزعت بين الفضاء البعيد، الكيمياء، اللغة واخلاق الناس...

لكي يلتقي البروفسور الإنكليزي اشترط قسام أن يكون الموعد في مقهى معزول على طريق (أبو صخير) حتى نبتعد عن الجهلة والفضوليين. جماعة المنكتين رتبت كل شيء، ورقة الأسئلة التي سلمت لي سراً، الترجمة الفورية، والاتفاق النهائي... بدأت الأسئلة بالأرض التي نجلس عليها فتركت سلسلة مفاتيحي تسقط من يدي وسألت قسام:

– لم تسقط المفاتيح إلى الأسفل ولا تصعد إلى الأعلى؟

– الجواب بسيط (قال قسام وهو يوزع علينا ابتسامة دائرية)، إنها

مكتبة الفكر الجديد

الجاذبية، جاذبية الأرض التي فاجأت نيوتن عند سقوط التفاحة، لكن الأمر ليس بالسطحية التي توقعها نيوتن. بحوثي أوصلتني إلى أعمق طبقات الأرض التي تبدأ بالبشرة التي ترونها الآن بعيونكم المجردة تحت أرجلكم. تحتها القشرة التي تتغلغل فيها جذور النباتات والأشجار، ثم الحجرة التي يختزن فيها النفط...تحت وفي قلب الأرض كرة أخرى (الجمرة) مكونة من مغناطيس لا يشبه المغناطيس الذي تعرفونه، إنه يجذب الماء والتراب والخشب والبشر الذين يسكنون الأرض ويمشون عليها دون أن يسقطوا إلى الفراغ حين ينقلب الأعلى إلى الأسفل خلال دوران الأرض...

هنا توقف قسام وطلب من المترجم إيصال التحذير الآتي:

– لكن هذا المغناطيس يضعف يوماً بعد يوم بسبب كثرة السيارات التي تنتج بلا حساب.. هذه السيارات تسحب تدريجياً وبسرعة قوة الجذب... لذلك ستأتي خلال سنوات قريبة مرحلة ينتهي فيها مغناطيس الأرض فينقذف الناس والحيوانات وكل ما هو فوق الأرض إلى الفضاء اللانهائي... وهذا ما نسميه يوم القيامة.

قالها قسام وقد اتسعت عيناه من صورة الرعب. وكان عليّ، كما أوصاني المنكتون، أن أفتح عيني رعباً عند الوصول إلى هذه النقطة:

– واووو...

قلتها بفزع ودونتها على دفتري.

سألنا قسام عن تتابع الليل والنهار. كيف يحدث؟

– الشمس ترتدي ما يشبه الطاقية السوداء. يعم الظلام حين تصبح الطاقية باتجاهنا، ويأتي الضوء حين تصير في الجانب الثاني... الأمر ينطبق على القمر والنجوم...

لا يحتاج قسام بعد كل سؤال لفترة تفكير، إنما تأتيه الأجوبة في

مكتبة الفكر الجديد

قدحة جنون ويتشكل العالم في هذا الخيال الطليق بلمحة عين:

– البراكين تحت أقدامنا، وإذا لم نجد لها مخرجاً، ستقذف ملايين الأموات مع الحمم وتحتوينا هكذا...

ويطق أصبعه عاضاً شفته السفلى محدقاً فينا متوقعاً موجة الهلع، بينما هو، العارف بكل هذا الرعب ينادي صاحب المقهى:

– عباس.. شاي!

المنكتون رسموا الخطة بقسوة وإحكام، ففي النهاية سينقلون إليه طلب البروفسور:

– حرام أن تبقى هنا بين جهلة لا يعرفون قدرك، وتحرم الجامعات العالمية من أبحاثك... نريد أن نأخذك، وكل علومك، معنا...

وعليه، وفقاً للخطة، أن يقف قسام، ليلة الخميس، على قمة بين القطوع الصخرية (الطارات) لتأتي طائرة خاصة وتأخذه إلى محفل العلماء ليلقي ابحاثه ويتخيل العالم وفق مخياله...

كانت ليلة صعبة على قسام، فقد انتظر هناك، في برد يصل حتى العظام، الطائرة التي لم تأت. ولم يأت قسام نفسه إلى المقهى، ليسأل عن سبب إلغاء الموعد. بعدها غاب قسام كلياً عن المقهى وغابت عنّا علومه.

يضرط (ع ق) مثل حصان عند دخول المقهى معلناً بضرطته «ها أنا!» ولن يتضايق صاحب المقهى مما فعل، إنما سيلتفت للجالسين متبسماً «هذه بعض طرافات مقهاي حيث يجد الزبون كل شيء». ليس لـ (ع ق) مكان في النهار غير المقهى بعد أن قضى ليلته في الجامع. في المقهى يتناول طعامه من بائع التكة ويطلب منه أن يضيف الوجبة إلى حسابه المتراكم، وكذلك ثمن شايه في المقهى. ولن ينتظر الاثنان أن يرد

مكتبة الفكر الجديد

هذا المفلس العاطل عن العمل دينه يوماً ما. يعتمد على أكل (القيمة)[١٦] في الولائم العامة ولديه حاسة شم ليتابعها أينما طبخت. ولا يستغرب أحد كيف جاء وعرف ودخل دون دعوة، فهو هكذا والقيمة صنوان، أحدهما يشم رائحة الآخر. وحين يقبل على الطعام يأكل ليومه ولغده خوفاً من فراغ وجبة. علي، لا يسلم حين يأكل ولا يرد تحية الذين سلموا، لأنه مشغول بالطعام، وحين يسأل لماذا لم يرد التحية يقول:

– النبي حرّم الكلام خلال الطعام.

يتداول عارفوه غرائب سلوكه، ولن يعترض هو عمّا يقال عنه «هكذا أنا». ذات يوم صرخ عليه أحد سدنة جامع كان ينام فيه:

– تشرب المنكر في بيت الله!؟

فأجابه علي وهو يلم صرة ملابسه ويغادر الجامع:

– ماذا أفعل؟ ليس الأمر بيدي. خلقت هكذا، نذلاً بالفطرة.

قالها من دون أن يضحك.

ومرة اعترضه أحد أشقياء المدينة (عبيد ونسه)، أوشك القتال أن يتصاعد بعد أن شمّر عن ذراعه. أخرج عبيد خنجره من حزامه فأوقفه علي عند هذا الحد، وقال:

– لالالا.. لم نتفق هكذا (وأشار إلى بطنه وقد رفع عنها قميصه) هذه ليست قربة فأعيد خياطتها.

ضحك الشقي وأعاد خنجره إلى حزامه وغادر.

خلال تسكعه في شوارع المدينة نخته امرأة ليخيف ابنها الذي لا

(١٦) القيمة أكلة تقدم عادة في المناسبات الدينية تعتمد على الحمص المجروش واللحم المهروس وتقدم مع الرز.

مكتبة الفكر الجديد

يريد أن يذهب معها إلى البيت. أمسك به وصفعه بقوة وهو يكيل أقذع الألفاظ لأمه. احتجت الأم فرد عليها:

- "بربوك" ماذا تعتقدينني؟ طنطل يخيف الأطفال؟!

لا أحد يسأله عن حاله، ولا أحد يسدي له النصيحة، بما في ذلك حراس الفضيلة، فبالنسبة للجميع «هو هكذا منذ ولد». ولا يبدي من جانبه طمعاً في حال من هو أفضل منه، ولا ندماً على مسرى حياة بلا قيمة «أنا كما أنا».

في الساعة الواحدة إلا ربعاً يدخل المخبر بعقاله وعباءته، بديناً فارع الطول، ذا وجه مستدير وعينين زائغتين. يحرص (محيسن السري)، هكذا يعرفه الجميع، على أن يتلمس المسدس فوق إليته قبل أن يضعها على الأريكة. يرفع يده إلى النصف مدمدماً سلاماً ويمسح الحاضرين بنظرة سريعة فيردون تحيته مع بضع كلمات تتوخى استبعاد شره. يهمس في أذن صاحب المقهى كلمتين ثم يجلس قريباً منه. ويفتح جريدته قبل الواحدة بدقيقة أو دقيقتين... آنذاك يدخل الشيوعي ناحلاً متوسط القامة، بأناقة معقولة لا تصل حد البذخ. قبل أيام خرج من السجن الطويل فترك الحذر، مما هو خارج السجن أثره في علاقاته المحدودة واقتصاده في الكلام. إذا تكلم سيبقى في العموميات. فقد أوصته الجماعة، قبل أن يغادر السجن، بأن يجتاز فترة نقاهته من دون أن يوحي بأية شبهات. سيجلس عند طاولة في نهاية المقهى من دون أن يلتفت إلى هذا المخبر الذي كلّف بمراقبته. لم يتعود الشيوعي بعد على فضاء الحرية، ولا يريد أن يثق فيه، فبعد أن ألف حياة السجن يبدو له عالم الحرية مهزوزاً لا صلابة له. يطلب شاياً بقليل من السكر ثم يخرج كتابه ويقرأ من دون كلل، ولكن من دون استمتاع... يمر الوقت بطيئاً ثقيلاً على المخبر حد الكفر «ما الذي سأكتبه في تقريري اليومي؟» فلم يتحدث المشبوه مع أي من الحاضرين، ولم يقرأ جريدة ولم يسلم على

مكتبة الفكر الجديد

أحد... والكتاب هو نفسه كتاب الأمس وقبله... ما الجديد الذي سيكتبه؟

الشيوعي والمخبر ولدا في نفس المقهى معاً، يأتيان في نفس الموعد، تخطر لهما نفس الفكرة ويمسكان طرفيها.. كل منهما يعرف الآخر كصديقين قديمين، ويتخفى كل واحد منهما عن الآخر بكتابه أو جريدته في نفس اللحظة التي يراه فيها بوضوح نهار مشمس.

مكتبة الفكر الجديد

السعلاة

في مواجهة معاول التجديد ظهرت السعلاة في النجف. ففي السنوات التي سبقت انفجار المظاهرات هدم الحمام العمومي في الحويش وبقيت منه سراديبه وأعمدته وخزانة الماء. لا أعرف من الذي أطلق أول شائعة عن سعلاة (غولية) أفلتت أثناء الهدم كانت مختفية في واحد من أعمدته:

– ... ترتدي زي امرأة نجفية بعباءة وبرقع، لكن حين قفزت انكشف شعر العنزة الذي يغطي كل جسدها من فوق لتحت، وحين اعترضها البنّاءون زمجرت وكشفت عن أسنان طويلة وحادة ..

حين يهيمن الملل على المدينة وفي أيام الركود التي تتجمد فيها الحكايات تولد حكاية من راوٍ مجهول، كأن المدينة كانت تنتظرها لتصبح حكاية الكل. تفلت الحكاية من قائلها لأن كل واحد يضيف إليها صورة أو جملة من خياله.. تتلون الحكاية وتتغير ملامحها وهي تتجول في أزقة المدينة وبيوتها، بين أفواه الناس وآذانهم.. هكذا تناقل الناس صورة السعلاة بسرعة البرق.

الشبان الواقفون عند ملتقى الأزقة يحدقون في النساء العابرات بتوثب للهرب أو للانقضاض. ما من امرأة عابرة في أي زقاق من المحلات الأربع إلا ويمكن أن تكون السعلاة تحت عباءتها. يكفي أن يشير واحد منهم إلى موقع تحت العباءة ويصرخ:

مكتبة الفكر الجديد

– هي!

آنذاك تتردد الإشاعة في كل الأزقة بين متتبعي الأخبار:

– قبل ساعة ظهرت السعلوة قرب الثلمة ولاحقها نواطير البوكلل فاختفت في الطارات.

– .. دخلت أحد البيوت في محلة البراق في هيئة شحاذة واختطفت وليداً من مهده وابتلعته لقمة واحدة.

– .. عرفوها من خيط الدم ورائها ..

صارت السعلوة موضوع أحاديث المدينة ومادة الرعب فيها. إنها موجودة بيننا، كائن أليف في مظهره الخارجي، تشبه أية امرأة عابرة، لكن بركاناً من الشر كامن تحت عباءتها. وربما كانت سعلاة كامنة في كل واحد منا. أتذكر أن خالتي نجية دخلت بيتنا بحجابها الكامل وقبل أن تزيح الحجاب عن وجهها خطر لي في لمحة رعب «لـمَ لا تكون هي؟»

خالي سعيد قالها بيقين:

– السعلوة صناعة إنكليزية لإشغال الناس وتمرير معاهدة بورتسموث.

مكتبة الفكر الجديد

السياسة والدين

الشيخ عز الدين الجزائري

الشيخ أحمد الجزائري

الدكتور سعيد الجزائري

في أواسط الخمسينات التي تفتحت فيها مداركي وجدت نفسي محاطاً بالفسيفساء السياسية العراقية.. عمي (عز الدين)، يرتدي العقال كحلقة وسط بين العمامة والأفندي، أسس أول تنظيمين سياسيين إسلاميين (الشباب المسلم والمسلمون العقائديون) وحدد شعاره (مجتمع مسلم ودولة إسلامية، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة)، وبذلك هيأ فيما بعد لقيام الأحزاب الدينية الأخرى. بأسلوبه الشديد الارتياب والحذر وعينيه الزائغتين حاول عز الدين جذبي للحلقة الدراسية من دون أن يكشف خلفياتها الحزبية، لكنه كان متأخراً لأن اتجاهي العلماني قد تحدد مع والدي وأخوالي، ولأني كرهت عتمة المكان في المدرسة الأحمدية بعد أن تفتحت عيناي على أزهار حديقة والدي في محلة الجديدة. مات عز الدين وحيداً فقيراً في الشياح بلبنان، بينما يتقاسم

مكتبة الفكر الجديد

تلاميذه اليوم مناصب الدولة وامتيازاتها. رأى عز الدين في الإسلام رسالة سماوية ينبغي أن يكون دين الدولة وناظم قوانينها.

عمي الآخر الشيخ أحمد الجزائري، كان المعمم الوحيد في قيادة حزب الاستقلال ثم الجناح العراقي من حركة القوميين العرب. بينه وبين الموامنة صلة واهية. فلم (يكرم اللحية) كما يوصي رجال الدين، بل ترك لحية رقيقة في الذقن لتسويغ العمامة فوق رأسه. يمر ببيتنا في طريقه إلى الجامع بخطوات سريعة رافعاً عباءته قليلاً متحاشياً برك الماء للحفاظ على نظافة جبته الأنيقة تاركاً خلفه حين يمر خيطاً من عطر رقيق نتنشقه بعمق. أحياناً أراه يدخل الصحن بخطوات سريعة دون أن يدخل الضريح ليزور كما يفعل أقرانه الموامنه. حين نراه أنا وابنه علي نتوارى تحاشياً للسؤال التقليدي الغاضب «ماذا نفعل هنا بعيداً عن البيت؟» على خلاف والده المنذور للدين كان الشيخ أحمد، رغم عمامته، أقرب للعلمانيين أناقة وسلوكاً. كل أصدقائه من الأفندية العلمانيين. مدلل والده الوحيد بين حشد من البنات، مهاب بين شقيقاته، حادّ في البيت، مرح بين أصدقائه. صديق للكاميرا وللسباحة. على تدينه الخفيف نظر لرسالة النبي محمد باعتبارها رسالة أرضية وحدت القبائل في أمة عربية واحدة. مسحور بشخصية عبد الناصر، وضع شارباً رقيقاً مستقيماً يشبه شاربه. يسمع خطابات عبد الناصر في سرداب البيت فينتشي بالصوت والكلمة قدر انتشائه بأغاني أم كلثوم، محاط على الدوام بحزمة من رفاقه القوميين النجفيين الذين يقسمون بالعروبة والوحدة وعبد الناصر.

والدي كان قيادياً في تنظيم الفرات الأوسط للحزب الوطني الديمقراطي. يزور قائد الحزب كامل الجادرجي مع مجموعة من قادة الحزب في الفرات الأوسط بين فترة وأخرى ويعود من بغداد وقد ازداد إعجابه بـ (البيك) كامل الجادرجي، كما يحب أن يسميه ويردد مقولاته. مرة أخذ معه أحد أقاربنا من الموامنه المتفتحين. وبعد عودتهم

مكتبة الفكر الجديد

قطاب من جبهة الاتحاد الوطني ومنهم عمي الشيخ أحمد، محمد حديد، عبد الوهاب محمود، صديق شنشل والشاعر عبد الوهاب البياتي في لقاء مع عبد الناصر قبيل تموز ١٩٥٨.

من لقاء البيك خطرت ببال المجموعة جلسه في بار (شريف وحداد)، لكن عمامة الشيخ حيرتهم، وبينما هم يتهامسون حسم الشيخ الموقف:

-لا داعي للحرج، سآتي معكم وقد أحضرت عقالاً للمناسبة.

في البار طلب الشيخ مثل البقية ربعية عرق، وحالما وضع النادل العرق والمزة أمامه كما البقية ناداه الشيخ:

- الآن أرفع المنكر من أمامي واترك لي المزة بكاملها!

يشارك والدي الشيوعيين علمانيتهم ويحترم تضحياتهم ويميز بين متطرفين ومعتدلين بينهم. في الأيام السوداء التي تلت انقلاب شباط ١٩٦٣ ذهب والدي للبيك ليحدثه عما يحصل للشيوعيين في النجف، وكان بيتنا مخبأ لاثنين منهم. الجادرجي كشف لوالدي قميص

مكتبة الفكر الجديد

ابنه نصير وهو ملطخ بالدم من التعذيب:

– إبني واحد منهم.

خلافاً لفتاوى آبائهم الذين حرموا الشيوعية باعتبارها «كفراً وإلحاداً» تبنى أخوالي (سعيد وسليم وعبد الأمير) الشيوعية التي دخلت أدبياتها إلى النجف منذ بداية العشرينات وانتشرت فيها منذ بداية الأربعينات، وخرجت عدداً من قادة الحزب، منهم الشهيد حسين الشبيبي أحد المؤسسين الثلاثة للحزب، والذي أعدم مع فهد، ومنهم ثالث سكرتير للحزب (سلام عادل). أغلب المنتمين الأوائل للشيوعية انحدروا من صلب العوائل الدينية (الحكيم، الشبيبي، الجواهري، المظفر، الكرباسي، الخليلي والجزائري).

عارض أخوالي أباهم الشيخ عبد اللطيف الإقطاعي المتزوج من أربع نساء واشترى (عبيداً) ليقدموا القهوة في ديوانه. كنت أرى الفلاحين وقد افترشوا الأرض تحت الظل الشحيح عند بيت جدي في محلة المشراق ينتظرون خروجه، وكان جدي يمر بهم من دون أن ينظر إلى وجوههم، وبالكاد يرد مدمدماً تحيتهم، ويقدم يده اليمنى ليقبلوها بعد أن يغطيها بعباءته متحاشياً ما يحملوه من أمراض. أخوالي كانوا يختلون بهؤلاء الفلاحين ويحرضونهم على مطالبته بحقهم في الأرض.

وبحسب المثل الذي يقول (ثلثين الولد على خواله) اخترتُ حين كبرتُ الشيوعية. بدأت انحيازي في يوم ما من عام ١٩٥٧ وصرت عضواً في اتحاد الطلبة، وكان جارنا شمسي الكرباسي أول مسؤول عني. دائماً يوحي لي وهو يهمس في أذني على عجل، بأن شيئاً خطراً سيحدث عمّا قريب. طريقته وهو يدس المنشور في يدي أو ينبهني لمظاهرة ستخرج اليوم، متلفتاً حوله حتى لا يرانا أحد، ملأتني بحالة تأهب تفوق كثيراً موقعي كعضو في لجنة طلابية.

مكتبة الفكر الجديد

على خلاف إخوتها لم تؤمن أمي ولا مرة باحتمال انتصار الشيوعية. مع ذلك تعاطفت معها بتأثير الإخوة المعتقلين أو المطاردين. تقول لهم دائماً:

– قضيتان ميئوس منهما، فلسطين والشيوعية.

بحكم ثقافتها الحسينية تعاطفت أمي مع الخاسر، وتركت لدي هذا المزاج الدرامي، الذي يتجه نحو مناصرة الخاسر في خسارته. وما يقربها للأم المضحية إحساسها الدرامي بمحنة الآخر. وقد نقلت هذه الخصلة الموجعة لأولادها وبناتها. دائماً تفرقنا الحياة العادية وتصالحنا المصائب.

مكتبة الفكر الجديد

ملك بين سيفين

شبل غازي على كرسيه.

علمتني أناشيد المدرسة:

فيصل يا شبل غازي ياحفيد ابن الحسين

مكتبة الفكر الجديد

دام للملك علاه وليعش عبد الإله

حارس العرش الأمين بالجهاد

بالجهاد والجلاد

وعلّمتني صورة الملك في الصف بين علمين، أن عائلته الهاشمية مقدسة، لكونها تتحدر من نسل الرسول.

الملك فيصل الثاني والرئيس اللبناني كميل شمعون في لبنان.

مرة كتب معلمنا للغة العربية على السبورة سؤالاً في درس الإنشاء: ماذا تتمنى أن تكون في المستقبل؟ اخترت أن أكون ملكاً وأزمعت أن أكتب برنامجي الإصلاحي كملك قادم: سأنشر العدل وأنصف المظلومين وفي بالي صف الشحاذين في مداخل الصحن، وأوزع على التلاميذ بدلات بيضاء وأنضف مراحيض المدارس وأجمع الخيزرانات من المعلمين وأحرقها وأحول الصفوف إلى مراسم ... مرّ المعلم ورأى السطر الأول. انحنى عليّ ووضع يده على الدفتر وإصبعه على فمه:

– إياك!

مكتبة الفكر الجديد

أعلمني هامساً بأن لا أحد سيصير ملكاً إلا الملك، لأنه من سلاله أخرى غير سلالتنا.

..هكذا ترسخت الصورة في ذهني وأنا طفل: الملوك من طينة مقدسة.

فيصل في حفل التتويج.

ذات يوم خرجنا بملابس الكشافة في اصطفاف على جانبي الطريق المؤدي إلى الصحن لاستقبال الوصي عبد الإله. لساعات انتظرنا تحت شمس حارة أن يخرج من بيت القائممقام ليزور ضريح جده علي. طال انتظارنا فبدأت وقفتنا العسكرية تتململ وتتراخى. حين خرج الوصي وأمامه سيارات الحماية. تهيأنا للاقتراب منه لنرى الهالة المضيئة التي تحيط بوجوه آل البيت. وجهه كان بعيداً في عمق السيارة، فيه خيال ابتسامة متعبة، لكن يده كانت واضحة وقد خرجت قليلاً من نافذة السيارة لتحيينا، أدهشني بياضها ودقة أصابعها، يد شديدة البياض والرقة، حين اقترب منا سألنا لم تركنا الدرس؟

مكتبة الفكر الجديد

– لأننا جئنا لاستقبالك.

حاولت اللحاق بالسيارة لألمس تلك اليد التي تحييني، لكنني اصطدمت بزميلي وسقطت على الأرض وعيناي عالقتان بتلك اليد الشديدة البياض الخارجة من نافذة السيارة. من سقطتي وذهولي رفعني شاب نحيل بثوب رمادي.

– مالكم تتقاتلون عليه. إنه ليس أكثر من عميل ومأبون؟!

بقيت لفترة ذاهلاً، كيف يجرؤ رجل على قول كلام كهذا عن الوصي الذي هو من سلالة النبي؟!

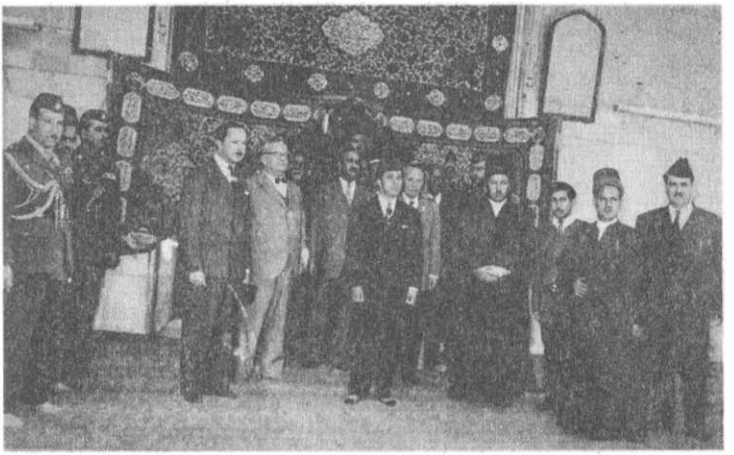

فيصل وخاله في زيارة للنجف.

كانت النجف تتلبد بالسحب المنذرة في أوسط الخمسينات وتختزن الرعد. المعارضة الغريزية للمدينة المشحونة بالضيم، لكونها سلطة روحية مقابل سلطة المركز المسلحة توجهت هذه المرة ضد (حكومة الخبز الأسود) التي يقودها رئيس وزراء شيعي (صالح جبر).

مكتبة الفكر الجديد

كنت أحلق شعري عند قاسم الحلاق ورأيت من خلال المرآة شباناً يهرولون وقد حملوا لافتات على موعد مع مظاهرة. تركني قاسم المشغول بالسياسة ووقف عند باب المحل ليسال أحد المتظاهرين. على عجل راح يجز شعري يريد أن ينتهي فوراً ليغادر المحل ويلتحق بالمظاهرة. فجأة دوى الرصاص بشكل صليات متقطعة وسريعة وصفرت واحدة من الرصاصات قريباً كأنها اخترقت الزجاج. سمعنا هتافاً مبتوراً:

– الموت لـ...

أنزل قاسم الباب الصفيحي الرقيق بقرقعة عالية وأنزلني من كرسي الحلاقة وجمعني مع اثنين ينتظران دورهما في زاوية أمينة. ثم في هدأة بين صليتين أدخلنا، وقد دفنا رؤوسنا بين أكتافنا، إلى سوق العمارة، حيث ينتظر الأهل أولادهم. في اليوم الثاني أتيت لأكمل حلاقتي المبتورة، فوجدت طابوراً من المنتظرين قبلي. قدمني قاسم عليهم، وحين احتجوا أجابهم وهو يريهم النصف المحلوق من شعري:

– هذا ينتظر منذ البارحة ...

رغم تحذيرات خالاتي، حضرت في ساحة الميدان مجلس الخطيب والعالم الديني محمد الشبيبي، الذي أعدم ابنه حسين مع يوسف سلمان وزكي بسيم. صوته الجهوري الغاضب يتردد عبر مكبرات الصوت في كل أرجاء المدينة، وتحت منبره شبّان شيوعيون وقوميون يريدون الغضب بدل البكاء على الحسين، ويعرفون أن الشيخ حينما تحدث عن الحسين الشهيد، فإنما يعني أيضاً ابنه الشهيد الذي لن تمحي صورة جثته المعلقة من ذهنه. الحشد تحت المنبر يتزايد عدداً كل يوم من عاشوراء. وكان هناك تبادل رموز بين الشيخ على منبره وبين الجمهور الذي يريد تسمية الأمور بأسمائها. سمعت الشيخ الغاضب الحزين يقسم

مكتبة الفكر الجديد

الرشوات:

– خروف للقائممقام وسلة تمر لمأمور الشرطة وعلبة سكائر للموظف وسيكارة للشرطي ...

ـ وكان الشبان الذين خرجوا من السجون تواً والعائدون إليها قريباً يقاطعون خطبته بالهتافات. واحد منهم ألقى قصيدة عن (حكومة الخبز الأسود) ورئيسها صالح جبر مصغراً إياه بـ (صويلح):

يوكل شعب غازي خبز من شعير

واحدنه ينفخه فرد نفخه يطير

سمعت من يتحدث عن معاهدة جائرة «تعيدنا عبيداً للإنكليز»، لا أعرف و لم يعرف من حولي جوهرها، يكفي إنها مع الإنكليز. وقد عرفت أن هذا الرجل البدين (صالح جبر) وراءها. وبعد المعاهدة كان العدوان الثلاثي على مصر. موقف الدولة المتخاذل هز المدينة.

بدأت المظاهرة الأولى من متوسطة الخورنق، حيث اعتصم الطلاب في الساحة وأمام الصفوف وبدأوا يهتفون. رجال القوة السيارة مدوا فوهات بنادقهم من قضبان السياج الحديدي. بضع رصاصات تحذير فتسلق الطلبة السلالم الضيقة للاحتماء من الرصاص، وراحوا يهتفون من الطوابق العليا. الرصاص حرك السخط والإحساس بالبطولة، فتقدم نفر من الطلبة في مواجهة الفوهات رافعين قبضاتهم. آنذاك انهمر الرصاص باتجاه الصدور.

ناس المدينة خرجوا من بيوتهم على صوت الرصاص ليستطلعوا من القادمين حقيقة ما حصل. لم نكن قد شهدنا بعد زمناً لاحقاً استخدمت

مكتبة الفكر الجديد

فيه المبيدات الكيمياوية ضد أبناء البلد، و لم نعرف بعد المقابر الجماعية ودك المدن بالصواريخ (الصديقة) لذلك كنا نسأل بدهشة واستنكار:

– هل حقاً أطلقت الحكومة الرصاص على الطلاب في مدرستهم؟!

– كيف يمكن للحاكمين أن يقتلوا أولادهم؟!

النساء كن يولولن خوفاً على الأبناء، والآباء رفعوا دشاديشهم وركضوا نحو موقع الحدث لمعرفة مصير الأبناء.

أسمع من طلاب جاؤوا يركضون وهم يشهقون بأنفاسهم:

– رصاص ... في الصفوف ... دم ... قتلى ...

أخذني خيالي إلى الموقع كأنني كنت هناك. ومن دون أن آبه لتحذيرات أمي ذهبت مع فتية آخرين لنلتقي المظاهرة التي خرجت من الخورنق، مقتحمة صفوف الشرطة نحو المدينة. عند باب الصحن الجنوبية المسماة (باب الفرج) رأيت جثة زميلي أحمد الدجيلي، الذي سبقني بصف واحد إلى المتوسطة، محمولة على أكتاف المتظاهرين وقد صار قميصه المثقوب بالرصاص والملطخ بالدم لافتة غضب. المتظاهرون طافوا بجثته داخل المدينة وعند مرتفع من الأرض بين المتظاهرين ومتاريس الشرطة وقف رجل نحيل، وطويل، بوجه جنوبي، طويل، بارز الوجنتين، ممسك بـ (قامه) يلوح بها فوق الرؤوس ويحث المتظاهرين على أن يواصلوا المسير رغم الرصاص. اقتربت فعرفته .. إنه نفس الرجل الذي رفعني من الأرض وقال لي تلك الكلمات (عميل ومابون) عن الوصي عبد الاله. وفي الصحن رأيت امرأة ملفعة بالسواد تقطع صلاة المرجع السيد محسن الحكيم وهي تريه قميصاً ملطخاً بالدم:

– كيف تُقبل صلاتك وهذا الدم يجري قرب صحن الأمير؟

حاول السيد أن يتحاشاها برفع صوته:

مكتبة الفكر الجديد

– لا حول ولا قوة إلا بالله !

في اليوم التالي وحين خط المعلم أول الكلمات فوق السبورة (الفعل المضارع) دخل علينا في الصف الخامس الابتدائي شخص ملثم، قاطع معلمنا أثناء الدرس متحدثاً عن عدوان ثلاثي على مصر، وقتلى في الصحن وختم بكلمة واحدة:

– إضراب!

لا أتذكر من الذي بدأ أولاً وقَبْل الجميع، لكن فجأة استولى علينا هوس يشبه العصاب. صرنا نصرخ وقد استحوذت علينا غريزة الخراب، فرحنا نكسر رحلات الصف وننتزع الصور الملك من الجدران وندوسها بأقدامنا ونحطم أبواب الصفوف والنوافذ وقد استعصت علينا قضبان الحديد... كسرنا المصابيح الكهربائية مزقنا دفاترنا وكتب الدراسة التي تتصدرها صورة الملك الصغير... خرجنا نصرخ دون كلمات وندور في الأزقة، متنقلين من مدرسة إلى أخرى يتقدمنا (جوحي) الذي يقفز قبلنا فوق السياج ثم يقرع الجرس فيخرج إلينا الطلاب وكأنهم على موعد مع هذا الهوس.. يكسرون الأبواب المغلقة والأسيجة دافعين معلميهم ليلتقونا ونواصل معهم الدوران في الأزقة.

ندور مثل جماعة مهووسة بالعنف ونحطم كلَّ ما يمت للحكومة بصلة من دون تمييز... ما الذي صنع كل هذه الكراهية وأين خزنت طوال سنين؟ الأحزاب غذتها، نعم، وكذلك دم الشهيدين عبد الحسين الشيخ راضي وأحمد الدجيلي اللذين قتلا برصاص الحكومة في متوسطة الخورنق. لكن بذور هذه الكراهية كانت موجودة قبل ذلك، في الخبز الأسود الذي أذلوا به فقراء البلد، في الانفصال المريع بين الناس والأحزاب من جهة، وبين الضباط الشريفيين الذين صاروا ملاكاً وحاكمين. في السجون والتعذيب وتعليق الجثث. في الاستهتار

مكتبة الفكر الجديد

الذي تعاملوا به مع العدوان الثلاثي على مصر... وربما كانت كراهية الحكومة هذه قدراً تاريخياً.

عصر نفس اليوم جاءت أختي أحلام إلى البيت فزعة وهي تلومني بالصراخ لأننا هاجمنا مدرستها و لم نجد فيها أحداً وما كنا نعرف أن المعلمة أخفت الطالبات في سرداب المدرسة وقد كتمت أنفاسهن خوفاً من الصبية الهائجين.

في أزقة المشراق بين القباب الزرق وجامع الجواهري التقينا بمتظاهرين أكبر سناً يجيدون اليسقط واليعيش، وبينهم وفي المقدمة نفس الرجل النحيل، الطويل، الملثم والملوح بالقامة، يجمعنا ويوحد إيقاعنا وانتظام الصفوف قبل أن نخرج من الأزقة إلى دورة الصحن حيث تجمع الشرطة وقد هيأوا بنادقهم لاستقبالنا. بينما كنا نستعد جاء رجل ضخم يلبس كشيدة ووقف أمامنا ليحذرنا:

– إنهم هناك خلف هذه الحيطان. بنادقهم محشوة برصاص وليس بيسقط ويعيش، ينتظرونكم في دورة الصحن، ولديهم أوامر واضحة بإطلاق النار حتى لو أصابوا ضريح الإمام...

قاطعه حامل القامة:

– وصلت الرسالة يا سيدنا. نحن ذاهبون إليهم ...

القميص الملطخ بالدم محمول فوق رؤوسنا مثل بيرق، والموت خلف الجدران التي تفصلنا عن دورة الصحن، مع ذلك تحركت الكتلة البشرية على إيقاع موحد:

– نريد الخبز لا الرصاص!

لم يكن الموت قدراً إلهياً مجهول الشكل والتوقيت كما ألفناه وناورناه، إنما هو قريب نحسبه بخطواتنا وهو مجسد وواضح تحت شمس نهارية، و لم يكن بيننا وبينه خنادق ومتاريس، فالشارع الذي سيجمعنا معاً

مكتبة الفكر الجديد

مستقيم ومكشوف، بحيث يرى كل طرف قاتله أو قتيله بملء العين ... مع ذلك تقدمنا كتلة متراصة بمزيج من الغياب والوضوح... سمعنا صليل ترابيس البنادق وهي تسحب، مع ذلك سرنا بين قتلتنا دون أن نلتفت إليهم، نهتف صارخين لكي نضيع صوت الصمت الذي يسبق رشقات الرصاص...دخلنا السوق الكبير فالتقينا مظاهرة أخرى وقد تسلق أحد المتظاهرين سيارات الجيب التابعة للجيش وراحوا يهتفون:

– عاش تضامن الجيش ويه الشعب ...

الضباط في مقدمة سياراتهم كانوا يتبسمون لنا وقد أمسكوا أيديهم بين سيقانهم حتى لا تفلت قبضاتهم معنا وصكوا أسنانهم لكي لا تفلت الكلمات وفي داخلهم كانوا يهيئون شيئاً لا يريدون كشف سره...

صار التظاهر طقساً يومياً كما الصلاة في الصحن. في اللواوين، بين الزخارف والمقرنصات والحمام النائم على الأفاريز يتجمع المتظاهرون عصر كل يوم. شيوعيون وقوميون ملثمون أو مكشوفو الوجوه يلوبون من طول الدقائق بانتظار الهتاف الأول. يتجمعون ثانية ككتلة من غضب، يدورون حول الضريح، دورة، دورة ثانية، ثالثة، ثم يخرجون إلى دورة الصحن لمواجهة (القوة السيارة) المتخصصة بقمع المظاهرات.

كنت وعبد الحسين شعبان أصغر المتظاهرين. يلقنوني القصائد والهتافات ويرفعني أحد المتظاهرين. تلكأت وتعثرت بصوتي حين رأيت الحشد ينظر إليّ بانتظار الهتاف. كما علموني ألقيت قصيدة الشابي:

– إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بـــدّ لـلـيـل أن ينجلي ولا بدّ للقـيد أن ينكسر

ثم صرخت:

– يا؟

مكتبة الفكر الجديد

لم يعرف المتظاهرون أيقولون (يسقط !) أم (يعيش!)

لم أعرف وأنا في ذلك العمر من هو الشيوعي أو القومي أو البعثي، فالغضب يجمع الكل دون فواصل ولا يفرقهم غير الرصاص. لأول مرة أعرف أن النفط الذي نحرقه تحت القدور بلا وجع قلب مهم لدرجة أن المتظاهرين يهتفون بحماس:

– نفط العرب للعرب!

– نفط العرب للعرب

فيعلق بائع الشلغم الذي أقف عند عربته بهمس ضاحك:

– وكذلك الشلغم للعرب!

عدت من المظاهرة ذات يوم مفزوعاً من زخة رصاص. في مدخل الزقاق تلقاني والدي بصفعة قلبتني في الهواء.

حين صحوت وما زال الطنين يصم أذني سمعته يترجاني:

– شارك يا بني إذا كنت مصراً، ولكن كن قريباً من أخوالك، ولا تهتف ولا تتقدم إلى الصف الأول. أنت أصغر من أن تموت برصاصة.

الحكومة في بغداد في أزمة مستديمة لا فكاك منها: ٢٣ وزارة في الفترة الممتدة من ٤٦–١٩٥٨. معدل عمر الوزارة الواحدة ١٩٧ يوماً وكذلك عمر المجلس النيابي. ١٢١٩ يوماً من الأحكام العرفية، أي حوالي نصف سنوات العقدين الأخيرين من عمر الملكية. بعد سلسلة من الانقلابات والاغتيالات بدأت الانتفاضات والوثبات ١٩٤٨، ١٩٥٠، ١٩٥٢ انتفاضة عمال كاورباغي، انتفاضة ضد معاهدة بورتسموث ١٩٥٢ وزارة الخبز الأسود.

في النجف التي تراكم الغضب تعطلت صلاة الجماعة وترك المراجع الصحن لأولادهم الغاضبين. المدارس تعطلت طوال نصف

مكتبة الفكر الجديد

عام تقريباً، ودوائر الحكومة شبه مجمدة، وبنادق الشرطة تنتظر الإيعاز. بضع صليات في الهواء فيتفرق الحشد كما تنفرط رمانة مُرّة، يتجمع المتظاهرون في الأزقة ثم يجمعهم هتاف أو زغردة امرأة. مقياس الرجولة في هذه العراضات هو من يتقدم إلى الصف الأول ليرفع اللافتة ويصبح أول القتلى.

في هذا الخضم ولد بطلنا (محمد موسى التتنجي) الذي يخرج فجأة ملثماً أو مكشوف الوجه. قامته الملوحة فوق الرأس تعكس في نصلها الحاد ضوء الشمس. كنا نتداول أساطير عن أساليب إفلاته وتخفيه حين تحاصره الشرطة:

– حين حاصروه في الحضرة ارتدى زي الكيشوان وأمر الشرطة بأن يتركوا بنادقهم ويخلعوا أحذيتهم قبل الدخول إلى المرقد. وحالما دخلوا غادر الصحن بملابس خادم العتبة وسلم على حاملي الرشاشات عند باب الفرج ومشى وئيداً نحو الأزقة...

– ... مر به المخبرون بعد أن فتشوا كل زوايا الصحن ولم يعرفوا أنه مقرفص عند باب القبلة، باسطاً يده بانتظار صدقة العابرين متنكراً بملابس شحاذ.

– ...بعقال وعباءة وعكازة سلم على المفرزة التي جاءت للقبض عليه وأفلت منهم.

فتيان الأزقة في النجف يتهامسون في ما بينهم: محمد مختف اليوم في محلتنا فحاذروا من دخول الغرباء ولتبلغ البيوت بأن تتهيأ لاستقباله إذا قفز إليهم من سطح الجيران. وبناء على الهمس يشكل الصبيان فرقة حراسة لمراقبة الغرباء.

مثل شبح يظهر الشيوعي محمد موسى فجأة حالما تتجمع الحزمة

مكتبة الفكر الجديد

الأولى من المتظاهرين ملوحاً بقامته ويلم الرجال بهوساته حين يفرقهم الرصاص ويختفي مثل فص الملح حين يحاصرهم رجال الشرطة.

بعد أيام من مظاهرات حاشدة لم يوقفها الرصاص وصل الملك فيصل الثاني والوصي عبد الإله ونوري السعيد إلى المدينة في زيارة سرية طارئة والتقوا علماء النجف في جلسة على أرض المرقد العلوي متوسلين رجال الدين، ومنهم جدي عبد الكريم، تهدئة الغضب غير دارين بأن نصائح العلماء فات أوانها إزاء الغضب، وأن المتظاهرين احتلوا مكان الصلاة في الصحن.

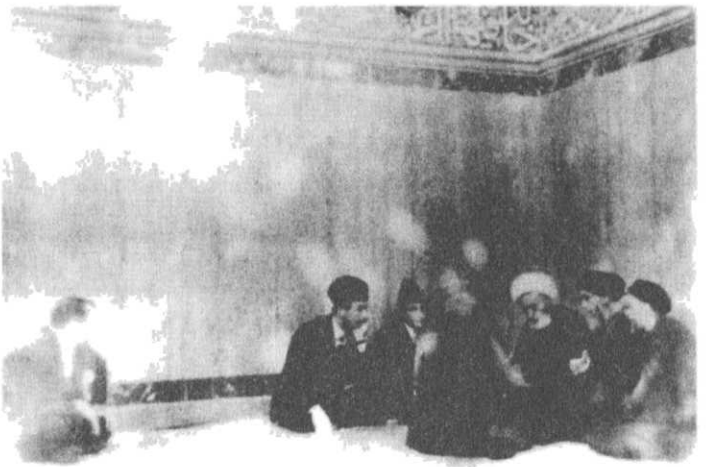

الملك فيصل الثاني والوصي عبد الإله ونوري السعيد (مديراً ظهره) يقابلهم مراجع النجف الشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد محسن الحكيم والسيد علي الصدر في جلسة طارئة داخل العتبة العلوية لتهدئة الأوضاع في النجف خلال مظاهرات عام ١٩٥٦.

مكتبة الفكر الجديد

حي السعد

صورة العائلة بكاملها في حديقة بيتنا في حي السعد قبيل انقلاب ١٩٦٣ بشهرين.

في بداية الستينيات خرجت النجف من أسوارها باتجاه الشرق، فنشأت محلة (حي السعد) بعيداً عن جدران الصحن، وبعيداً عن مقبرة وادي السلام التي تطوق المدينة القديمة بالموت من الغرب والشمال.

بما ورثته أمي من ليرات مجيدية وما حصل عليه والدي من بيع بيتنا في العمارة، بدأنا ببناء بيت قريب من مشروع الكهرباء في حي السعد،

مكتبة الفكر الجديد

ثم انتقلنا إليه قبل أن يكتمل البناء. في البيت الجديد لم نعد نرى القباب الذهبية، كلما نظرنا من الشباك، ولا امتداد المقبرة كلما نهضنا من نومة الصباح في السطح العالي للبيت. لم نعد ندخل الصحن ونخرج منه كلما ذهبنا إلى السوق وعدنا منه. افتقدنا سيل الجنائز الداخلة إلى الصحن والخارجة منه، افتقدنا كتائب المعممين الخارجين من مدارسهم الدينية والداخلين إليها، والمجتهدين وأتباعهم في الطريق إلى صلاة الجماعة... فقدنا الاتجاهات حين غابت عنا المنائر والقباب وتهنا في أول الأيام وقد فقدنا الرمز والمعنى والرابطة التي تجمعنا نحن سكان هذا الحي المبعثر البيوت بين فراغات واسعة.

أقاربنا لاموا والدي حين غادر محلة العمارة:

– كيف تترك بركات أمير المؤمنين ونور منائره وتسكن الصحراء؟

فيجيبهم والدي:

– لقد فعلت ما فعل الأمير نفسه.

رغم مكابرته، شعر والدي بذل الوحدة في بيته الجديد، بعيداً عن أقاربه وصداقة جيرانه، فصار يستغل أوجاع ظهره ويتمارض. وبعد أن يخبر معارفه وأقاربه يتمدد في السرير مستمتعاً بلمتهم حوله. ذات مرة ترسبت في كليته حصاة. الطبيب قال له على عجل بأن ذلك يستدعي عملية جراحية. حال عودته إلى البيت تمدد والدي على السرير وراح يئن ويتمرغ بعد أن أرسل خبراً للمدينة القديمة. على الفور تدفق الزائرون والمستفسرون عن الحصوة. وعلى أنغام أنينه يشرح لهم من خياله صعوبة العملية وخطورتها... فيما بعد أخبره الطبيب بأن الحصاة، كما أظهرت الأشعة صغيرة جداً ولا تحتاج إلى عملية لأن الدواء المدرر سيسقطها خلال يومين. خذل والدي من حرج ما رواه لزائريه وزاد من حرجه سقوط الحصاة وهي أصغر حتى من حبة ماش. وضعها في

مكتبة الفكر الجديد

قطنة وراح يريها لزائريه:

– هي حقاً صغيرة كما تبدو لكم، لكن تلمسوا حافاتها الحادة وتصوروا كم كانت مؤلمة!

يهز الزوار رؤوسهم ويزموا شفاههم «كل شيء ممكن».

من سوء حظ والدي أن بين زواره أحد أقاربنا من السادة الهاشميين سيد جعفر. مزارع ضخم القامة يرتدي كشيدة حولها لفة خضراء. حين رأى حصوة والدي هزت ضحكته زجاج البيت:

– أضحكتني حصوتك يا أبو زهير.. لو كنت مكانك لما أخرجتها أبداً. الحصوة الحقيقية هي هذه...

وأخرج من جيب جبته حصوة بحجم قبضة اليد:

– هذه هي الحصوة التي أخرجوها من كليتي...!

فزع والدي من تلك الحصاة البنية الداكنة وأخفى حصوته خجلاً، ومن يومها صار يحدث زائريه عن حصوة مجهولة سقطت منه.

كنا من أوائل من سكن هذا الحي وكان بيتنا وحيداً ومحاطاً بمساحات فارغة لم تبن بعد ولا نعرف أصحابها القادمين. أقرب بناء إلينا هو مشروع الكهرباء. في المساحات الفارغة تتجول قطعان من الكلاب المسعورة السائبة، جوعى وعطشانة، فاتحة أشداقها على الدوام في لهاث موحد. لا تدخل الكلاب، على جوعها وكثرة القصابين، المدينة القديمة ولا تجد من يتبناها أو يرفق بها. المثل الذي يقول (حصرة الكلب في الجامع) يدلنا على البعد الديني لنجاسة لعاب الكلب. لذلك يطارد الكلب بحجارة الصغار والكبار إذا تورط واقترب من بيوت المدينة. تتجمع الكلاب المطرودة حول المدينة، ترنو إليها طمعاً بعظمة وتهرب منها ومن ناسها.

مكتبة الفكر الجديد

خوفي من الكلاب السائبة في حي السعد علمني سايكولوجيا الكلاب السائبة: أن أكبت خوفي منها وأصفر متظاهراً، حتى لوكنت ميتاً من الخوف، بأن (القافلة تسير ولا يهمها نباح الكلاب). ذات يوم هجمت لا أقل من عشرة منها على أختي إلهام وكانت آنذاك في الخامسة من العمر ولا تعرف سايكولوجيا الكلاب السائبة. حراس مشروع الكهرباء وبينهم الشاعر الشعبي المعروف حسين قسام النجفي لم يسمعوا صراخ الطفلة وسط نباح الكلاب وغمغمتها وقضقضة أسنانها، لكنهم رأوا في لمحة عين بين كومة الكلاب قدماً آدمية ترفس. بالكاد انتزعوا بقايا الطفلة من بين شبكة الأنياب قطعة، قطعة ... لفترة طويلة بقينا نداوي جسد الطفلة من آثار الأنياب ونداوي ذاكرتها الفزعة وهي تفز كل ليلة مرات كلما سمعت نباح الكلاب.

الفراغ الموحش يذكرنا دائماً بجيراننا الملاصقين في المدينة القديمة، نسمع أصواتهم بوضوح في العراك وفي همسات السرير عند النوم في السطوح. المساحات الواسعة في الحي الجديد وبعيداً عن أقاربنا تشعرنا بأننا عزل ووحيدون.

أغلب سكنة الحي من الموظفين الذين ضاقوا بمحرمات المدينة وبيوتها الخانقة. تدريجيا تنوعت أزياء سكنة الحي الجديد فبدأ أول المعقلين من تجار المدينة يتحسسون جمالية البيوت الجديدة وسعة مساحاتها ونظارة حدائقها، فصار على يسارنا مقاول بناء من بيت السبع، ومقابلنا معقل آخر من عائلة (الأعسم) صاحب علوة خضراوات، متزوج من اثنتين، ولكن بدون أولاد. ببراعة التاجر كان يدير تنافس الغيرة بين الزوجتين لتعزيز موقعه.

المعممون المرفهون عاشوا بين رغبتين، بين التزاماتهم الدينية قريبا من ضريح الإمام وبين شهيتهم لمظاهر الرفاه في الحي الجديد، حيث المساحات الرحبة وجمال الحدائق. من أوائل المعممين الذين كسروا

مكتبة الفكر الجديد

المحظورات جارانا من اليسار التاجر محمد علي المظفر الذي تخصص محله في السوق الكبير ببيع قماش بدلات الأفندية، والأقمشة النسائية الموردة الزاهية الألوان التي حرمتها طبقته من المعممين على نسائهم (إلا في غرفة النوم). بعده وبمساحة مضاعفة بيت خادم العتبة العلوية السيد رضا الرفيعي. جده السيد جواد، كسر المحظور على طبقته من الملاكين السادة الرفاعية فتزوج واحدة من عبيدهم وولدت له أولاداً وبنات خلاسيين على ملاحة عالية في الوجوه وأجساد قوية. السيد رضا تزوج واحدة من هاته الخلاسيات وكان يعاملها بحب واحترام تحسد عليه. كل أولاد جارينا المعممين كانوا إما شيوعيين أو متعاطفين مع الشيوعية. حين ينزل السيد رضا من المقعد الخلفي لسيارته الشيفروليه إلى البيت يقلص وجهه بتكابر وهو يغض النظر عن الاجتماعات الشيوعية أو الرابطية التي تجري في بيته.

هنا في حي السعد تغيرت هندسة المدينة والبيت النجفي. على عكس أزقة المدينة الضيقة، كانت شوارع الحي الجديد واسعة ترابية. كأن الأزقة الضيقة في المدينة القديمة وجدت لتلم البيوت مع بعضها متجاورة أو متقابلة، هنا في حي السعد وجدت الشوارع وفروعها لتبعد البيوت وناسها عن بعضهم.

البيت النجفي القديم مغلق على الخارج مفتوح نحو الباحة الداخلية، منقسم بين (براني) الرجال و(دخلاني) للنساء، ومنقسم عمودياً بين أرض البيت في الأعلى والسراديب التي حفرت تحته لنومة الظهيرة. والبيوت متلاصقة ومتكئة على بعضها من شرفات سطوحها حتى أعماق سراديبها في توأمة مستديمة لا فكاك منها. وتتبادل النساء أسرارهن وأسرار الجيران وما طبخنه من وراء جدران السطوح أو من مزاغل التبريد في الآبار المشتركة.

في الحي الجديد نشأت فيلات على الطريقة الغربية، مبنية بقوالب

مكتبة الفكر الجديد

من الاسمنت (بلوك)، في حين بنيت البيوت في محلات النجف القديمة بالطابوق المنتزعة مادته من طارات النجف والمفخور في كورها. وبدلاً من السراديب ومساحب الهواء فيها (البادكيرات) استخدمت المبردات الكهربائية لمقاومة حمارات الصيف الصحراوي. وتنفصل البيوت عن بعضها بحدائق ومساحات تشكل جوهر المدينة الجديدة. وفي هذه المحلة بدأ الناس يستخدمون التلفون وسيلة للاتصال بدلاً من المزاغل والشبابيك.

تشاءمنا من التلفون من أول الأيام، ففي كل أسبوع مرة أو مرتين يرن التلفون ويكون قريبنا محمد علي الأسدي على الخط، وعلى الفور نضع أيدينا على قلوبنا ونشهق جميعاً:

– يا ساتر؟!

سيبلغنا سفير الموتى هذا بموت واحد من أقاربنا ومكان وموعد الفاتحة.

بدلاً من البراني الرجالي حلت في بيوت حي السعد غرفة الخطار للضيوف. مع البيوت الجديدة تبدلت أثاث وأزياء ساكنيها وحياتهم. من بين الأثاث الجديد القنفات والمبردات والثلاجة الكهربائية وطاولة الطعام التي حلت جزئيا محل السفرة. التلفزيون الجديد صار له حضور في جلسات السهر ومواضيع الحديث. نحن الشبان صرنا نرتدي البيجاما بدلاً من الدشاديش. ولم يخطر في بالنا أبداً أن هذه البيجاما المكوية المقلمة الأنيقة للبيت فقط. على العكس كنا نتباهى بها في الشارع ونحن نطارد الفتيات ونعلقها بعناية حين ننام.

لوطية النجف وشعراؤهم الشعبيون نظموا فينا قصيدة طويلة:

يا حلو يابو بجامه

فدوه روح لهالجهامه

مكتبة الفكر الجديد

أنت رايح وين كلي
إرسم لكلبي علامه.

بعض البنات نزعن البوشية (أي النقاب) الذي يغطي الوجه وصرن يقلدن من تحت العباءة تسريحات نجمات السينما المصرية مثل فاتن حمامة وناديا لطفي وماجدة، وبذلك صرنا مادة احتجاج قراء المنابر.

في حديقة هذا البيت جمعنا خالي سعيد بعد عودته من دراسته في بلغاريا، وأخذ لنا أول صورة تذكارية تجمع العائلة بكاملها. لم يوجهنا المصور بأن نضحك ولم يطلق أحدنا نكتة، إنما جاءت الضحكة من داخل كل واحد منا على انفراد، تعبيراً عن فرح وجودنا معاً، وهو الأمر الذي لم ولن يتكرر لاحقاً، لأن المصور اختفى في العام الذي تلا ولأن الحروب أخذت بعضنا وقذف إرهاب السلطة بعضنا الآخر إلى المنافي واختل الباقون مع أحزانهم.

عام ١٩٩٠ زارني في بيتي في لندن صحفي ياباني. توقف أمام الصورة وسألني:

– من هم هذا الكورس السعيد؟

– إنهم عائلتي.

– ما الذي حصل لهم لاحقاً؟

بدأت أعدد مصائرهم:

– منفية، ميت، ميتة، منفي، عسكري في حرب، قتل في حرب...

توقف فترة وعاود النظر في الوجوه، واحداً واحداً:

– ستكون هذه الصورة موضوعا لفيلم وثائقي.

مكتبة الفكر الجديد

قبل الصورة وبعدها كنا نبحث عن معان أخرى غير المعاني التي اكتسبناها داخل المدينة من وجود الصحن والمقبرة. صرنا، ونحن نغترب ونتغرب، نبحث عن المعنى من مصادر أخرى، من الأحزاب والكتب والمجلات ومن التلفزيون. مع ذلك لاحقتنا المدينة التي تأصلت فينا عاداتها. تكثفت هذه العادات في الباص الذي ينقل سكان الحي إلى مدينتهم القديمة. الكل يعرف الكل في الباص، بما في ذلك سائق الباص والجابي، وما من أحد يصعد الباص ويمد يده إلى جيبه حتى يأتيه صوت من داخل الباص:

– واصل!

فقد دفع أحد الركاب أجرته. ويبدو الباص مثل ديوان أو مقهى، لا تعوزه إلا دلال القهوة، فالكل يتحدث مع الكل عن شؤون الحديقة، الأجهزة الجديدة كالثلاجات والمبردات، وللتلفزيون طبعاً حصة الأسد. يتكرر ذلك كل يوم ذهاباً وإياباً، وتتواصل القصص والأحاديث بصوت عال وبلا أسرار. يستغرق الركاب في الحديث حتى ينبههم السائق واحداً واحداً:

– أبو علاء؟ بيتك!

ثلثا والدي على أخواله (أبو خوير) المزارعين في قرية السهلة. على هديهم حوّل حديقة بيتنا الجديد إلى بستان. يحفر الأرض الرملية عميقاً حول البيت ويستبدل الرمل بطين جُلب من ضفاف الفرات، ثم سيج الحديقة بأشجار الحمضيات غير متأكد من صمودها أمام الزوابع الترابية والحرّ الذي يميت الحمير. في صورته الأقرب إلى ذهني أراه منحنياً يشذب أغصان الحديقة التي كسرت ظهره، وأسمع صوته يدندن مقام الرست، بينما يغسل بالماء أوراق شجرات البرتقال والليمون. كرهت الحديقة لكثرة ما تركنا والدي متفرغاً لها. لكن حين صارت لي حديقة

مكتبة الفكر الجديد

في لندن استعدت من دون أن أدري أو أتعلم عادات والدي الفلاح. جهاز الكومبيوتر يقع قبالة الحديقة. يبدأ الكاتب الكتابة مغالباً منظر الشجيرات والبراعم وهي تتفتح تواً وقطرات الماء على الورق. يفارق الحياة الحقيقية ليدخل عالم الكتابة المتخيل. حين تستعصي الفكرة أو الكلمات يقفز والدي الفلاح من داخلي فأخرج إلى الحديقة لأقلب التراب وأنتزع بيدي النباتات الضارة وأقلّم أطراف أغصان الورد وأرش الحديقة سائلاً مع الماء من الوريقات. أفعل ذلك غير عارف بأوقات الحرث أو التقليم أو استنبات البصيلات، إنما رغبة في مغالبة جهد الأفكار بالجهد اليدوي. وحين أتعب وأقيم ظهري ناظراً إلى ثمرة الجهد أتذكر والدي في وقفته وأقلد صوته مدندناً مقام الرست.

مع الحديقة تكاثرت حيوانات والدي وتنوعت أصنافها، دابة سابحة وطائرة. من السمك في الحوض وطيور حب وبلابل ودجاج في الأقفاص، أرانب وصخلة وغزال. صرنا نعرف وصوله من هياج الحيوانات كلها مرة واحدة. الحيوانات تعرف قدومه من صوت المفتاح في الباب في الموعد المحدد فيصفق الدجاج في أقفاصه، وتهيج الطيور مغردة ومزقزقة ومقاقئة، وتثغو المعزى شادة حبالها وهي تهم إليه. بدأب عجيب يعطي كل حيوان طعامه قبل أن يجلس إلى مائدة الطعام. الغيرة الدفينة كانت وراء كراهية أمي لكل الحيوانات، متشكية من أوساخها وبراغيثها ومن رائحة الذروق في ثياب والدي، على عكسها كنت أشم رائحة العشب حين يمر والدي وتخفق الريح دشداشته.

تكاثرت الحيوانات وحاصرتنا وسدت علينا منافذ البيت بأقفاصها، وحين هددت أمي بخنقها واحدة واحدة، نقل والدي حيواناته إلى حي الحنانة وفكر بأن يحوّل هوايته إلى عمل، وصار يقضي معظم وقته هناك حتى اجتاح الإسهال دجاجاته وأفراخهن مرة واحدة وتحول حقل الدواجن إلى مقبرة حيوانات تجاور مقبرة النجف. بعد هذه المجزرة

مكتبة الفكر الجديد

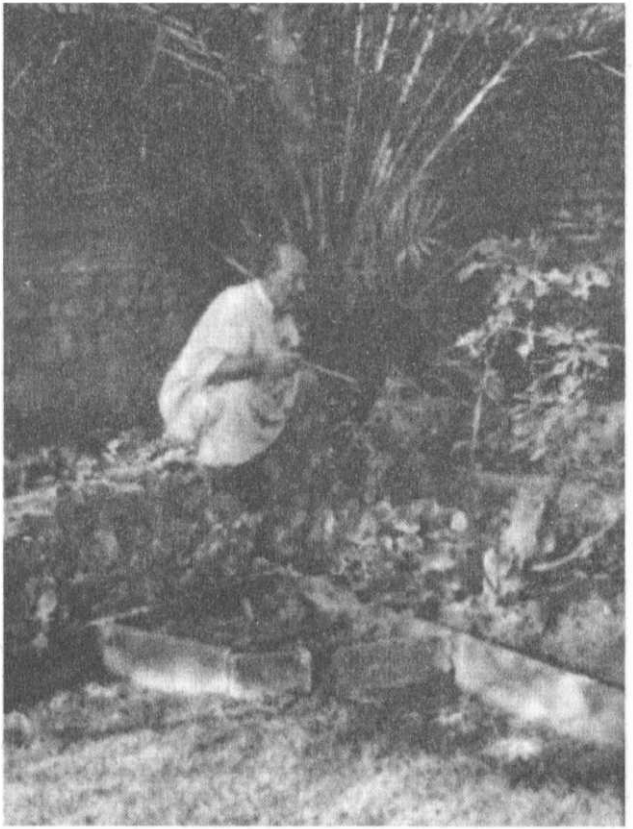

والدي في حديقته.

ترك والدي حيواناته وتفرغ للجماهير وللعمل السياسي في الحزب الوطني الديمقراطي قبل أن يجمد الحزب نفسه.

في الليل نجتمع أمام التلفزيون مع جيراننا بيت المظفر. بين والدي وبين الشيخ محمد علي المظفر اتفاق غير مكتوب. يجلسان على طرفي الأريكة من دون أن يتلامسا أو ينظر أحدهما بوجه الآخر. يستدير والدي بجذعه نحو اليمين ليرتشف كأسه بعيداً عن نظر الشيخ ثم يمسح فمه بالمنشفة ويكمل حديثه الممتع مع الشيخ:

مكتبة الفكر الجديد

– بلى مولانا. القضية بما فيها...

ومع معرفته ورغم الرائحة الفاضحة يحرص الشيخ وهو يتحدث مع والدي على ألا يلتفت إليه حتى لا يحمل نفسه خطيئة الجلوس مع شارب المنكر. وهكذا يرضي الشيخ ربه ويرضي والدي الشيخ من دون أن يعتدي أحدهما على حرية الآخر.

في حي السعد تغيّر كل طاقم أصدقائي. لم يعد أي منهم يمت لي بصلة قرابة كما في محلة العمارة، ولا أتذكر بينهم من كان من نفس محلتنا. أغلبهم أبناء موظفي دولة. وقد بدت الصداقات هنا حذرة، فيها الكثير من التباهي بالسيارات أو الدراجات وطبعاً الملابس. في الحي الجديد مساحات كثيرة فارغة لأن كثيراً من التردد يسبق انتقال الناس من المدينة لهذه السبخة. واحدة من هذه المساحات تحولت إلى ساحة كرة قدم لفريقنا (أشبال النور) تيمناً بفريق المدينة (النور). لم يكن للفريق لا ملابس رياضية موحدة ولا أحذية كرة قدم. كنا نلعب بملابسنا العادية وبأحذية عادية أو حفاة. تغير موقعي في الفريق بحسب الحاجة، بين الدفاع والهجوم وحماية الهدف. انغمرنا في كرة القدم لدرجة أن الأمر تطلب نداءات متكررة وتهديدات من الوالد لكي نغادر الساحة ونذهب لوجبة الطعام.

هنا عشت ازدواجية أخرى بين ميلي للرياضة التي تعتمد على عضلات الجسد وانغماري في هوايات تتطلب عضلات الذهن والمخيلة. كرة القدم تعتمد اللياقة البدنية التي تتناقض مع نحافتي في حين تتطلب الهوايات الأخرى إهمال الجسد وتنمية حاسة التأمل. اتجهت للرسم والنحت في استوديو بلا أبواب في غرفة بالطابق العلوي.. رسمت عمالاً يغادرون معملهم مع أني لم أشاهد معملاً في حياتي، ورسمت مظاهرة وقتلى بالرصاص، ورسمت متآمرين في سرداب ... أجواء ممزوجة وحركات الحشود اقتحمت مخيلتي فبدأت أكتب رواية لم

مكتبة الفكر الجديد

أكملها على غرار (الأم) لمكسيم غوركي. لكن الهواية الأكثر جدوى هي تخصصي بكتابة رسائل الحب لشبان محلتنا. مثل الملة فطم أجلس مع العاشق لبضع دقائق لأساله عن المعشوقة.. اسمها، عينيها، شعرها، طول قامتها، ابتسامتها، كيف التقاها؟ ثم أغرق في الحديث عن لواعج الحب وهيام المحب وسهد الليالي. وقد علمتني هذه الرسائل الصبر في الاستماع لقصص الحب. أنتجت رسائلي سلسلة من علاقات لا بد أن بعضها توج بالزواج على سنة الله ورسوله. الكل شهد لي بتأثير رسائلي في قلب المحبوبة ما عدا واحد. فقد جاءني أحد جيراننا، وكانت معشوقته من محبات المراسلة في مجلة الموعد، جاءني يرتجف خوفاً من غضب والده، فقبل أن يضع الرسالة في البريد عثر عليها والده الشيخ المتجهم. أمامي، أنا كاتب رسالته، أراد ان ينكر وجود الرسالة أصلاً:

– لا أعرف من الذي وضع اسمي على الرسالة ودسها في غرفتي؟!

مع علي الرفيعي كنا نتابع بنتين تسيران بغنج على الجانب الثاني من الشارع وأمامنا بخطوتين. نسمعهما كلمات الغزل باللهجة المصرية لأن اللهجة العراقية لا تناسب الغزل بسبب حرف الجيم (أحبج). في واحدة من جولات المتابعة التقينا اثنين من نفس المحلة يتابعان نفس الفتاتين. سألانا إن كنا قد حققنا تقدماً في علاقتنا حتى لا يتعبا نفسيهما بلا فائدة. كذبنا وقلنا (نعم!) في حين أن البنتين لم تبادلا كل غزلنا بكلمة استلطاف واحدة. بصمتهما وممنعهما كانتا تستمرئان التنافس بين المجموعتين لتعززا غرورهما.

مكتبة الفكر الجديد

تمــــــــــوز يدق الناقــــــــــوس

كنت أتابع مسلسل روبن هود في تلفزيون مقهى قريب من بيت أخوالي في شارع النواب بالكاظمية، حين كان الضباط الأحرار يناقشون بهمس كالفحيح اللمسات الأخيرة للحدث الذي سيغير غداً تاريخ العراق الحديث. أطلق روبن هود سهماً مشدوداً بخيط ليتسلق القلعة إلى مخدع حبيبته، في نفس الوقت وضع الضباط مسدساتهم على طاولة يتوسطها القرآن ليقسموا على تنفيذ وعد تموز.

الملك نفسه وخاله والعائلة كانوا في واحدة من شرفات القصر يتابعون ساحراً هندياً يخرج أرنباً من قبعته وما كانوا يعرفون بتحركات العسكر حول بغداد.

وأنا نائم على سرير حديدي في حديقة البيت حلمت بأنني أحلب بقرة وأن الحلب يجهدني بمقدار ما يجهدها وهي تتهيأ لتنطحني. قطع حلمي صراخ خالي سعيد وهو ينزل من الطابق الأعلى ليثير انتباهنا إلى قطع البث التقليدي لإذاعة بغداد. المذيع أعلن بأن نبأ هاماً سيذاع من محطة دار الإذاعة العراقية من بغداد. صمت صاخب خيّم على الأزقة والشوارع، والآذان تلتقط النبرات الشاردة من أجهزة المذياع. دقائق ثقيلة من الترقب ثم أعلن صوت متعثر بحماسته البيان الأول للثورة:

«وعليه فإن الحكومة الوطنية تسمى منذ الآن الجمهورية العراقية. وتلبية لرغبة الشعب فقد عهدنا رئاستها بصورة وقتية إلى مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ريثما يتم استفتاء الشعب لانتخاب

مكتبة الفكر الجديد

الرئيس. فالله نسأل أن يوفقنا في أعمالنا لخدمة وطننا العزيز إنه سميع مجيب».

لم يتأخر خالي سعيد طويلاً أمام مغالبتنا بين النوم والتنبه للحدث حتى صرخ بين الهلع والفرح:

– جمهـــــــــــورية!

لم أستطع وقتها تخيّل جمهورية من دون ملك. فالملكية قدر العراق الوراثي.. هكذا علمتنا أناشيد المدرسة «فيصل شبل غازي وحفيد فيصل بن الحسين». حقاً أن مصر سبقتنا بالتحول من الملكية إلى الجمهورية. لكن الملك وتاجه ترسّخا في وعينا (مصون غير مسؤول). لم نعرف دوره في الحياة السياسية، لذلك نحيل الجرائم وكل السيئات لخاله الوصي عبد الإله ولملك العراق الحقيقي نوري السعيد.

تذكرت إطلاق الرصاص على طلبة ثانوية الخورنق وقميص أحمد الدجيلي الملطخ بالدم، تذكرت خالي ورفاقه بالكاد يوصلون لنا كلماتهم من وراء الأسلاك الشائكة... سخطنا آنذاك تركز على نوري السعيد وصالح جبر ولم نذكر الملك في هتافاتنا. تذكرت مظاهراتنا وقلت إننا شاركنا في هذا الحدث حين كسرنا رحلات الصف وانتزعنا صور الملك من الجدران عام ١٩٥٦، وحين هتفنا أمام بنادق القوة السيارة «الخبز لا الرصاص!»

في شارع النواب رأيت شباناً احترفوا الكتابة على الحيطان يخطون بالأحمر على جدار أبيض كلمة واحدة:

الجمهـــــورية العراقـــــية!

وأمامها علامة تعجب. لم أعرف آنذاك إن كانوا يستغربون التغيّر أم أرادوا تثبيته كبديهة. خوالي غادروا البيت على عجل للتجمع

مكتبة الفكر الجديد

أمام وزارة الدفاع ليساندوا مع متظاهرين آخرين قيام الجمهورية. خالي سعيد رفض بإصرار أن أذهب معهم، فالأمر لا يخلو من خطر. قبل الظهر بقليل رأيت متظاهرين يركضون على الزفت الحار وعلى وجوههم مزيج من الإثارة والهلع يحملون على عمود من الخشب كف الوصي عبد الإله وقد دقت بمسمار. لا أدري لم تركت رصيف المتفرج ونزلت أركض مع المتظاهرين لأحدق عن قرب باليد المصلوبة. ما الذي جذبني نحو هذا القرف وأنا أعرف أنني سأندم على ما رأيت. الفضول كان دائماً أسرع عواطفي وآخرها الندم. عقاباً لنفسي تقربت فرأيت الكف مزرقة وقد تخثر عليها دم مزج بالتراب. الأصابع تقلصت كأنها تريد أن تقبض ثانية على حبل الحياة التي انتزعت. أهي نفس اليد الدقيقة الأصابع التي كانت تحيينا من داخل السيارة ونحن بملابس الكشافة لاستقبال الوصي عند زيارته النجف؟ أهي نفس اليد التي أردت أن ألمسها فسقطت، هذه اليد المصلوبة الآن على العمود، وهل المتفرج هو ذاته في الحالتين؟ تملكني هوس المتظاهرين وأنا أركض على الإسفلت الحار وألتفت بين أونة وأخرى إلى الخلف، إلى اليد المصلوبة على الخشبة، أندفع وأهتف مع الهاتفين:

– الخاين شعبه نكص إيده!

أركض وأصرخ للتخلص من هلعي وقرفي ولأحسم موقفاً مع نفسي بأنني أنتمي إلى هذا الجمهور الراكض أمام متفرجين وقفوا على الرصيف انقسموا بين التأييد والاستنكار والتردد.

لم يخرج خالي سعيد للمشاركة وحتى لم يقف مع المتفرجين. كان مشغولاً بالمخاطر أكثر من (المنجزات) الدموية في الشارع المجاور. بقي قلقاً طوال الليل يتابع تحركات الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط مهيأ للتدخل في العراق وحالة التأهب القصوى التي وضعت فيها القوات البريطانية في الخليج والأردن:

مكتبة الفكر الجديد

– ما دام نوري السعيد طليقاً، فالخطر ما زال يتهددنا، سيعود مع قوات بريطانية وأمريكية.

لم أره مهموماً ومنغمراً في السياسة كما هو الآن. أذنه على الراديو حتى ساعة متأخرة من الليل، ويلتفت إلينا دون أن ينظر في وجوهنا مباشرة ليطلق تعليقاً وقد اتسعت عيناه كأن مصير البلد معلق بفكرته.

في يوم الثورة الثاني أعلن خبر مقتل نوري السعيد وهو يرتدي عباءة نسائية بان من تحتها بنطلون الرجل. عضّ خالي سعيد شفته ورفع قبضة يده:

– إذن نجحت الثورة!

لقد اقترنت الدسائس والتكتلات والمحاور الخلفية باسمه، وبه اقترنت الأحكام العرفية وما رافقها من سجون للسياسيين وتعذيب وتعليق جثث المعدومين. جيرترود بل وصفته «رجلنا في العراق» كونه المنفذ الأساسي للسياسة البريطانية وداعية وجودها وأحلافها العسكرية. بتربيته العسكرية استخف بالبرلمان والحياة الدستورية حتى انطبق عليهما وصف الرصافي:

علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

في الظهيرة الحارة التي تسلق بيضة في الشارع اخترق شارع النواب متظاهرون يجرون على الزفت الحار جثة نوري السعيد وقد اسودت من الحرارة. مصير عجيب ومفزع لرجل كان طاووس الحكم في العراق. خياله وهو غائب عن الوزارة يخيم على من يحل محله، فهو الآمر الناهي وصانع الملوك والوزارات المتباهي دوماً بأن (دار السيد مأمونه). رائحة الموت كتمت أنفاسنا نحن الواقفون على الرصيف. رائحة ثقيلة ومدوخة فاقت المشهد، ومن وراء الرائحة رأيت المتظاهرين يركضون ويلتفتون إلى الخلف غير مصدقين ما يجرونه خلفهم. من

مكتبة الفكر الجديد

جانبي على الرصيف قفز شاب، اخترق الكابوس وداس الجثة الزاحفة بسخط كأن لديه معها ثأراً شخصياً. المتظاهرون أخذوا الجثة وأحرقوها في بستان عبد الهادي الجلبي وأعادوا سحلها عبر نفس الشارع. رغم قرفي لم أستطع انتزاع عيني من المشهد الذي احتواني كما الكابوس. لم أر في التمثيل بالجثة تعبيراً عن إرادة شعب كبتت إرادته طوال عقود، ولا انتصاراً على طاغية ولا مظهراً للشجاعة في معركة، فالميت مات وفقدت المواجهة عنصر التكافؤ.

تربيتي النجفية علمتني قدسية الميت، فقد رأيت الأقارب والمعارف يتزاحمون على حمل جنازة ميتهم وقد غطيت بإزار من القطيفة مطرز بآيات القرآن، ورأيت الزوار في ضريح الإمام علي ينزاحون جانباً لكي يفسحوا الطريق للجنازة كي تدور حول الشباك، وتابعت بعينين فضوليتين بأية عناية ودقة تغسل جثة الميت بالسدر وتنظف كما النحت ثناياها وثقوبها قبل الدفن. سمعت شهقات الآباء والإخوة ونحيب الأمهات حين يهال التراب على الجثة... حفظت عن ظهر قلب كل كلمات الرحمة التي تقال في توديع الميت وقد تطهر من ذنوبه الأرضية بانتظار حساب ربه.

كنت وما زلت موهوماً بأن عقاب الضمير يكافئ الجريمة مهما كبرت كما في قصيدة بلند الحيدري توبة يهوذا:

يا صغاري

أنا أدري

أن عاري

قصة تنساب في التاريخ

من دار لدار

مكتبة الفكر الجديد

أنا أدري

كلما التفّ شتاء حول ناري

ذكروا اسمي وإثمي

خنجر يوغل في قلب صغاري

فانكروني ....

توهمت بإصرار بأن عقاب الضمير كاف للردع، رغم أن التجارب علمتني أن دهاء الإنسان أعطاه حلاً لعذاب ضميره بالتمادي في الجريمة حد الإدمان وستعطيه العقيدة غطاء للتبرير.

في الليل بقي المشهد عالقاً في مخيلتي وكبرت الجثة حتى تجاوزت حجم المتظاهرين. سألت خالي سعيد بمزيج من الاستفهام والاستنكار:

– لماذا؟

– هو الذي صنع هذه الكراهية.

...–

– الذين أحرقوه أرادوا التأكد من عدم عودته.

لم أقتنع بكلامه وفي داخلي شعور غامض بأن العنف سيجر العنف عند شعب لم يعرف التسامح بعد.

عشت أحداث الثورة في بغداد ثم عشت مضاعفاتها في النجف وأنا في الخامسة عشرة من عمري. وقد سحرتني هذه الحيوية السياسية التي عمت المدينة وغطت على طابعها الديني العشائري. أول مشاركة لي في حشد جماهيري بعد الثورة كانت في تأبين خطيب المنبر الشجاع الشيخ محمد الشبيبي. توفي بعد أيام من تحقق حلمه بزوال العهد الملكي الذي علق جثة ابنه حسين (حازم) جنب جثتي رفيقيه يوسف سلمان يوسف (فهد) وزكي بسيم (صارم). فوجئت بجمهور الشيوعيين

مكتبة الفكر الجديد

الذي سار خلف الجنازة. العدد؟ نعم! كان الحشد هائلاً ومهيباً يسير بخطوات بطيئة كما في طقس عاشوراء عشاء الغريب. بداية الموكب ما تزال تلتف حول الصحن ومقدمته تجاوزت السوق الكبير. الأهم من العدد هو نوعية الجمهور. على عكس التصور الذي ارتسم في ذهني لم يكن الجمهور من ذوي الملابس الرثة من العمال والفلاحين. كبار رجال الدين وشيوخ العشائر وقادة الأحزاب شاركوا جنباً إلى جنب في هذا الموكب المهيب.

وقفت إلى الجانب متردداً وأنا أرى أهم رجالات المدينة يشاركون الشيوعيين مصابهم. في الصف الأخير الطلاب .. دسست نفسي وأنا أردد معهم:

– فقد المنبر صوتاً هادراً كان يوماً علماً للعالمين.

الشيوعيون، وأغلبهم قد جاء من صلب العوائل الدينية كانوا واعين مهمتهم الصعبة في هذه المدينة المقدسة.. أن يفندوا الفتاوى التي تقول (الشيوعية كفر وإلحاد)، فجمعوا بين ثقافتهم الماركسية وثقافتهم الدينية وبرعوا في إيجاد توافق بين الاثنين، مستشهدين بآيات من القرآن وبزهد الصحابة، والإمام علي وأبو ذر الغفاري. ولهم مواكبهم الخاصة في الزيارات وعاشوراء، فيمزجون في رداتهم بين السياسة ومأساة الحسين.

ساحة الميدان وما حولها صارت مركزاً للحيوية السياسية بما فيها من خلافات .. مقهى عبد ننه صار المقرّ شبه الرسمي للشيوعيين. على مسافة أمتار منه مقهى أبو البسامير ملتقى القوميين. في محيط الميدان مكتبة (اتحاد الشعب) قرب خان الهنود اختصت بتوزيع المطبوعات الشيوعية. الرجل البدين الذي يدير المكتبة (حامد عجينه) مشغول بالحديث مع زبائنه الدائمين أكثر مما هو مشغول بالبيع. يوشوش في

مكتبة الفكر الجديد

آذانهم فيلتفتون باتجاه مكتبة القوميين، صاحبها أموري مديد يستخدم مكبر الصوت للتنديد ضمناً بخصومه الشيوعيين.

الساحة، وهي أقدم وأوسع مكان مفتوح في النجف صارت مركزاً للتجمعات الجماهيرية التي تسرق من رجال الدين ومن قراء المنبر جمهورهم، بل وحتى أولادهم.. فيها ألقى عبد السلام عارف خطاباً أعلن فيه «من الآن فصاعداً لن يكون هناك إقطاع، ولا أغنياء وفقراء، ولا فوارق ولا طبقات، كلكم مخلوقات الله». قامته وهو يخطب في الحشد تميل إلى الأمام على طريقة عبد الناصر، لكن صوته كان حاداً من حماسة زائدة، يتدفق من الرئة فيجرح الحنجرة. أقواله تسبق أفكاره فتتدفق دون فترات صمت ودون فواصل، وعلى وتيرة واحدة من الحماس. وله تعبير جسدي واحد هو التلويح بسبابة يده اليمنى بينما اليسرى مشدودة القبضة إلى جنبه كما في مسيرة عسكرية. أراد بكلمات المساواة الفجة أن يأخذ من الشيوعيين شيوعيتهم، مع ذلك تابع شيوعيو النجف خطابه بريبة وتحفظ على حماسته واستباقه الأمور، ولكي يسبق الشيعة في شيعيتهم أقسم مراراً بالإمام علي وابنه الحسين، مع ذلك قابل الشيعة دعوته إلى الوحدة الفورية بتحفّظ. القوميون كانوا يهتفون بلا انقطاع:

– وحده وحده

باجر باجر

– ويه الأسمر

عبد الناصر

بحماسة يهزون قبضاتهم بكل الاتجاهات.

الشيوعيون حشدوا فيما بعد جمهوراً غطى الساحة ومداخلها لتأييد الثورة. بينما كان الخطيب يتحدث عن مؤامرات الإمبريالية

مكتبة الفكر الجديد

والرجعية، ارتفع الهتاف المخيف:

– ماكو مؤامرة تصير

والحبال موجودة

ومن وسط الساحة، قرب سياج حديدي يحيط ببضع شجيرات، طارت في الهواء حزمة من حبال. الهاتفون وجدوا هدفاً لهم هو القومي (مهدي بحر) الذي وقف قرب المنصة كأنه يستفزهم بانتظار مقتله. اندفع جمهور الحبال صياحاً وقد استحوذت عليه غريزة الذئاب دافعاً بعضه متعطشاً للدم. وكأنه يعرف ما سيحدث قفز القيادي الشيوعي حسن عوينة ووقف بجسمه النحيل حاجزاً بين الجمهور المتعطش للقتل وبين الضحية المحتملة. لمرتين أوشك أن يسقط أمام ضغط الجمهور، ثم وقف بإسناد حزمة من رفاقه وأمسك مكبر الصوت طالباً من الشيوعيين في الحشد أن يمنعوا الجريمة:

– ... باسم الحزب!

بحمايته وبتدخل الشيوعيين أفلت مهدي بحر من الجمهور الهائج ومن حزمة الحبال التي أوشكت أن تطبق عليه.

والدي الوطني الديمقراطي، رغم خلافه مع الشيوعيين، يصف حسن عوينة بأنه حمامة سلام بين القلة العاقلة في مواجهة الهياج الجماهيري.

في متوسطة الخورنق، حيث الغلبة الساحقة للشيوعيين طلاباً ومعلمين، كان الطالب الشيوعي زهير شكر يمر على الصفوف مقاطعاً المدرس بابتسامة مؤدبة داعياً الطلاب باسم اتحاد الطلبة لحضور اجتماع في القاعة الكبيرة. يتكرر ذلك مرة في الأسبوع على الأقل. وكان زهير شكر مولعاً بمنصة الخطابة الخشبية. يتكئ عليها بيديه ويدفع وجهه عبرها إلى الحشد مثل لينين. يبدأ الحفل الخطابي وينتهي به متحدثاً دون

مكتبة الفكر الجديد

ورقة ولا موضوع محدد. ودون أن يوجهنا أحد كنا نصفق كلما ذكر واحداً من ثلاثة: ثورة ١٤ تموز، الجمهورية العراقية، وبحماس أكثر اسم (الزعيم الأوحد) عبد الكريم قاسم.

جوالة متوسطة الخورنق يحملون صورة الزعيم.

الحكومة الجمهورية الأولى.

مكتبة الفكر الجديد

تشييع الشيبي.

التشديد على كلمة (الأوحد) يزداد كلما زاد التحذير من المؤامرات الخارجية والداخلية وبالتحديد من الجمهورية العربية المتحدة. لم تثرني آنذاك كلمة الأوحد و لم أطرح، حتى ولو على نفسي، السؤال: لم هو أوحد؟ المستبد لم تكن صفة للحاكم في وعينا التموزي، السؤال هل هو عادل أم لا؟ وكان الإعلام ينقل لنا صوراً عن زهد (الرجل الذي

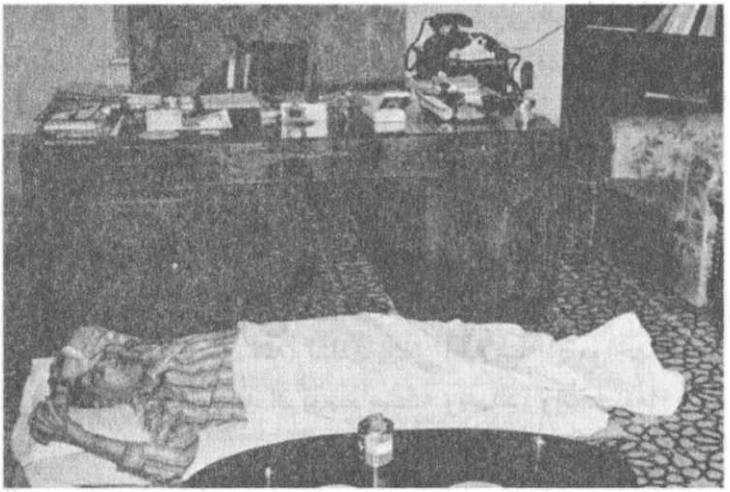

الرجل الذي لا ينام

مكتبة الفكر الجديد

لا ينام)[١٧]، وقد عرفنا أنه اعتاد أن يزور خبازاً في الكاظمية في الفجر الباكر بانتظار أول رغيف حار لفطوره. ونعرف من الإعلام أنه ينام على فراش زاهد في غرفة بوزارة الدفاع وأن أخته تجلب له طعامه بالسفرطاس إلى الوزارة فيتقاسمه مع مرافقيه.

سحرنا هذا الزهد وتولهنا بالرجل الأسطورة حتى صرنا نمد أيدينا بحماسة لكاتب عرائض، جنب بريد النجف، وجد مهنة أكثر ربحاً، هي أن يطبع صورة الزعيم على سواعدنا. أحببنا زهد الزعيم ونسينا تقلباته. حين تصاعد الخلاف بينه وبين عبد الناصر، بدأ زهير شكر يخاطب عبد الناصر من منصة الخورنق (ياسيادة الرئيس) معاتباً عبد الناصر بلهجة تهكمية وبأسئلة أكثر جزماً من الأجوبة:

– ما الذي يغيظك يا سيادة الرئيس؟ إنها جمهوريتنا وهو زعيمنا الأوحد!؟

بجانبي طالب قال وهو يهز يده استخفافاً:

– حتى الاتحاد الفدرالي بعد ما نريده.

لم تمر أسابيع على ثورة تموز حتى ظهرت إلى السطح الخلافات بين الشيوعيين والقوميين في مدينة مجبولة على الخلاف. اخترقت هذه الخلافات الحياة العشائرية فانحاز شبان البو عامر إلى الشيوعية أسوة بشيخهم مهدي العبد، الناشط في حركة أنصار السلام، بينما انحاز شبان ألبو كلل مع بطلهم الرياضي مثقال إلى القوميين. الشمرتيون انضووا مع عمهم أحمد للشيوعيين. لم يكن هناك صندوق اقتراع يحسم الخيارين: اتحاد فدرالي أم وحدة اندماجية؟ و لم يرد الزعيم أن يحسم الخلاف بموقف منه. لذلك انتقل الخلاف إلى مواجهات في الشارع. كل طرف يريد أن يوسع سلطته ويتمدد، وإن لم يفعل ذلك

(١٧) عنوان برنامج إذاعي عن عبد الكريم قاسم كان يذاع يومياً من إذاعة الجمهورية العراقية.

مكتبة الفكر الجديد

عبد السلام عارف في النجف.

سيضمر ويهزم أمام الآخر. الجمهور المتردد في الوسط سيحسم موقفه مع الأقوى، أي مع من يملك السلطة. الطرفان يسعيان لكسب نفس الشرائح الاجتماعية (الفلاحين، العمال، الطلبة، النساء... ولديهما نفس المنظمات المحيطة بالحزب ويقدمون لها نفس الوعود. ظهر الصراع على شعارات غير قابلة الآن للتطبيق (الوحدة، الاتحاد). الشيوعيون الأكثر تماسكاً نظرياً استخدموا تفوقهم العددي وجمهورهم المنفعل وانقادوا لهذا الجمهور وصاروا يركضون خلفه متتبعين خط الدم، بينما استخدم القوميون الأقل عدداً والأضعف تماسكاً عنصر المباغتة والعنف الأدواتي والاغتيال.

كل طرف يشحن جمهوره بأكثر ما يمكن من الحماس القتالي، أي بأقصى شحنة من الكراهية تحت اتهامات حادة (متآمرون، منحرفون، انفصاليون). صفات قصيرة ، لكنها صالحة للمساندة اللفظية للحراك الجسدي في الهجوم والدفاع. في هذا الصراع الدموي كل طرف يريد أن يهزم الآخر الآن، الآن، لأن الأمور في بدايات الثورات المضطربة لا

مكتبة الفكر الجديد

تحتمل التأجيل. لذلك استخدم كلّ مخزونه مرة واحدة الآن لأن الهزيمة في فضاء الخوف المتبادل تعني الفناء. الخلافات والعنف اخترقا الطقوس الحسينية، فقد وجدت الأحزاب في الحشود الآتية من المحافظات فرصة للترويج لشعاراتها حول الوحدة أوالاتحاد الفيدرالي. لم تعد تشكيلات المواكب تقتصر على المدن والمحلات والمهن والعشائر، إنما دخلت الأحزاب على الخط ممثلة بمنظمات الشبيبة والطلبة والعمال، وتغيرت الردّات حسب شعارات الأحزاب، فالشيوعيون يرددون:

الشعب واحد فدرالي رايد

التفرقة ما تراد بين العرب والأكراد

فدرالي رايد...

بينما يردد القوميون:

الباري أيد وحدتنه خل تتوحد كلمتنه

هاي الغاية نوحد الراية

حي جمال المغوار

لا ضرورة لأن يميز الجمهور المنفعل جوهر الخلاف بين الشعارات، يكفيه أن الآخر خصم. الخوف من عنف الآخر يعطي العصمة للأول، فتلقى كل الشرور الداخلية على شماعة الخصم. الهتافات المضادة غطت على الأمور المشتركة وغذّت الخلافات حتى انفجر العنف المخزون فاستخدم الطرفان ما لديهما من أسلحة. والأسلحة متوافرة بكرم في مدينة النجف بسبب التهريب وعاشوراء. وما إن يستقر السلاح في اليد حتى يستدعي طاقة العنف. المخيلة توفر السبب وتعطي لليد القابضة على السلاح إيعاز الفعل. الجماعة تعطي للفعل المشروعية. كل طرف يجمع أشرس مهاجميه لينقضّ على الآخر في غفلته، يسترد الطرف الآخر أنفاسه ويجمع قواه ليرد الصاع صاعين. في حرب الثارات هذه

مكتبة الفكر الجديد

(الزعيم) على موعد..؟

أضفى العنف إلى الشعارات المتعارضة دراما مضافة إلى دراما المناسبة وانفعالاً سياسياً مضافاً إلى الانفعال الديني. كنت أرى الجماعات تتقارب تحت أنظار الشرطة. كل طرف يراقب الآخر بعيون مفتوحة من الكراهية والأيدي تخبئ الأسلحة الجارحة خلف الظهر. تكفي صرخة واحدة: متآمر! لتلتحم الأجساد وتتقاطع السكاكين. الانفعال يطغى

مكتبة الفكر الجديد

على الألم فيكتشف المتخاصمان جراحهما لاحقاً حين يهدأ القتال الجسدي. السلطة، التي تكره أية تجمعات خارج إرادتها، وجدت في الصراع بين الطرفين ذريعة لوقف المواكب ومنع التجمعات في المدينة.

شاركتُ في الحيوية السياسية بعد الثورة على حساب ولعي بكرة القدم. في بيتنا تجتمع هيئة طلابية يقودها ضياء العبايجي. المؤامرة وضرورات الحذر منها كانتا الموضوع الأساسي في النقاش. يرسم مسؤولنا بصوت خافت صورة المؤامرة بحيث يربط بين الأسطول السادس في لبنان وبين تحركات سرية في مكتب محامٍ قومي. ودائما ينتهي الاجتماع بكلمتين لهما معنى واحد:

– اليقظة والحذر!

وهي تحمل لنا صينية الشاي إلى غرفة الاجتماع وترى شحوب وجهي تسألني أمي بصوت جارح:

– هل ساءت الأمور؟

...–

نخرج من الاجتماع متوترين من إحساس بالخطر، المنبث في كل أزقة المدينة، كأن المؤامرة تستهدفنا بالذات. الشكوك والخوف من غدر الآخر يتكفلان تحويل كل هواجسنا إلى واقع محبوك يحدث الآن.

في الليل نكون مجموعة من (حرس الجمهورية) ونقوم بدورية حول بيت عمي القيادي القومي الشيخ أحمد الجزائري. يتمادى واحد منا فيدق الباب بقبضته بقوة ويصرخ:

– مؤامـــــــــــرة!

رأيت ذلك و لم أعترض وفي خيالي الأحاديث الهامسة بين القوميين في سرداب بيته، و لم يخطر ببالي أبداً الهلع الذي يمتلك أهل البيت وهم

مكتبة الفكر الجديد

يتصورون مصير ابنهم المدلل الوحيد أحمد، ولا مخاوف والده الشيخ القابع في صومعته.

البعثيون لعبوا على وتر الخلافات بين قاسم ورجال الدين حول قانون الأحوال الشخصية الذي يقسم الإرث بالتساوي بين المرأة والرجل عند انتفاء الوصية. كما حركوا رجال الدين ضد نشاط الشيوعيات والرابطيات المشاركات في المظاهرات. وفي النهاية جاءت فتوى رجال الدين، ومنهم الشيخ عبد الكريم الجزائري، بتحريم الشيوعية باعتبارها كفراً وإلحاداً، الصك الذي طالما حلموا بالحصول عليه.

سجون قاسم غصت بالمعتقلين من الطرفين. وبين جناح القوميين وجناح الشيوعيين في معتقل (خلف السدة) مسافة أمتار. ومع ذلك لم تكن الحرية هاجس الطرفين. كل طرف يتتبع تحركات الآخر بترصد وتحفز، أيهما سينهض قبل الآخر ويكون الدكتاتور القادم أو شريك الدكتاتور الحالي. في طريقنا لمواجهة خالي سعيد في سجن خلف السدة نسير مع عوائل قوميين أو بعثيين في نفس السجن. أنا وأمي نقطع طريقا طينياً بين الصرائف المتباعدة خائفين من أسراب الجاموس التي تنظر إلينا بعيون رصاصية ونحن نتجاوزها بحذر شديد، ممسكيْن خلف ظهرينا صرر الطعام، وخائفين من عائلة أخرى ذاهبة في نفس الطريق احتمت بالجدار المقابل، خوفاً منا ومن الجاموس. تتبادل أمي معهن الألغاز لتعرف ما إذا كان أولادهن شيوعيين أو قوميين لتتبادلن الصداقة أو الكراهية. من بين حشد المعتقلين، أدباء، أطباء، مهندسون، صحفيون... بالكاد نتعرف على خالي سعيد. يقترب حذراً من الأسلاك الشائكة. نسأله عن سبب التشدد في المواجهات ولماذا ضوعفت الأسلاك الشائكة؟ يخبرنا بهمس بعيد، بأن إدارة السجن اكتشفت أن أمهات البعثيين حاولن تهريب مسدسات داخل رؤوس الخس:

– إنهم يبيتون شيئاً، هل رأيتم مظاهراتهم في طريقكم؟

مكتبة الفكر الجديد

دهشنا من سعة معارفه عن الطرف الآخر، وهم في سجونهم. منه عرفنا أن نزلاء سجون قاسم، من الطرفين، مشغولون بأخبار بعضهم: من سيقفز على السلطة قبل الآخر؟

القوميون والبعثيون صاروا يتحركون بسرعة أكثر لأن هدفهم أقرب وأسهل من الشيوعيين: السلطة الآن! الشيوعيون كبلتهم الحتميات التاريخية (مرحلة التحرر الوطني) ومدارات مزاج الجماهير والتفافها حول قاسم ومدارات وحسابات الطبقات الحليفة وحرصهم على الجمهورية الوليدة وتفكيرهم بالأبعاد والتوازنات الدولية للتحرك. بهذه الحسابات عطلوا شهية تنظيمهم العسكري الذي كان يرى السلطة قريبة المنال لا تحتاج أكثر من لمسة كتف، وكان يلح على القيادة: نستطيع أن نفعلها (غداً فجراً!).

القوميون والبعثيون ينظرون للعالم والتاريخ باعتباره كومة من الصدف معزولة عن أسبابها. لماذا إذن لا يصنعون صدفتهم بسلسلة من المفاجئات والخدع وشحنات متسارعة من العنف. سيعطلون فعالية القوة الجوية باغتيال قائدها جلال الأوقاتي وهو ما يزال بالبيجاما في منزله. ويخدعون الجماهير الزاحفة لحماية قاسم عبر التظاهر بأنهم من أنصاره ويحملون فوق دباباتهم صوره، ويقطعون طريق خصومهم بإذاعة برقيات تأييد كاذبة. سيسيطرون على الإذاعة أولاً لأن الناس القابعين في بيوتهم يوم الجمعة سيصدقون من كسلهم كل ما يقوله الراديو، وفي النهاية سيرضخون للقوة... باختصار إرادتهم طليقة غير مقيدة بالتزامات أخلاقية داخلية ولا حتى دولية. كل شيء مباح إزاء الحصول على تفاحة السلطة.

تعبنا من الحذر واليقظة، من تكاثر المؤامرات على الجمهورية الفتية، وأتعبتنا تقلبات الزعيم وهو يغذي الصراع، معلناً نفسه فوق الأحزاب والاتجاهات. وحين أغمضنا عيوننا من الجهد صحونا على كابوس.

مكتبة الفكر الجديد

أبيـــــدوهم!

لم نتأخر كثيراً في تقدير ما حدث، فحالما سمعنا نشيد (الله أكبر!) في ذلك اليوم المشؤوم ٨ شباط ١٩٦٣، حتى تأكدنا أن المحذور قد وقع. في مدينة بعيدة عن موقع الحدث كان الراديو مصدر المعلومة الأول، ومن يسيطر عليه يسيطر على السلطة. والمعلومة مع البيانات هي أوامر للتنفيذ من سلطة لم تتوضح معالمها بعد... هاجسنا الداخلي قال لنا بأن جملة (انتهى عهد قاسم) التي وردت في بيان الانقلابيين الأول تعني ما تعنيه. كنا نسمع أوامر السلطة الخفية الجديدة: منع التجوال،

سيارة الزعيم في شارع الرشيد.

مكتبة الفكر الجديد

إغلاق المطارات، تسليم الأسلحة، تسليم نفسه، طاعة بيانات مجلس قيادة الثورة ... نسمع ونقول لأنفسنا بأن من يصدر مثل هذه الأوامر وبهذا الحزم لا بد وأن يملك القوة التي تسندها.

جيراننا الرفيعيون جاءونا بما ينفي الراديو، فقد سمعوا من التلفزيون المشوش بياناً ينفي مقتل الزعيم، كأن مصير البلد معلق بهذا الرمز المتحصن في وزارته. البيان ينفي أيضاً سيطرة الانقلابيين. نحن القابعون في بيوتنا معلقون بين روايتين متناقضتين للحدث. البيوت الثلاثة المتجاورة، بيتنا، بيت المظفر وبيت الرفيعي رحنا نتبادل الأخبار بأصوات مبحوحة ومرتجفة، ممنين أنفسنا في البداية بأن الأمور ليست كما يقول الراديو:

– كذبوا، فالزعيم ما زال حياً يقاوم من داخل وزارة الدفاع، وسيحرك قواته في معسكر الرشيد.

– الجماهير تطوق الوزارة لتمنع وصول الانقلابيين.

– فقراء مدينة الثورة زحفوا باتجاه الإذاعة.

– الكاظمية برمتها خرجت للمقاومة.

– كذلك حي الأكراد في بغداد.

مع إذاعة البيان الأول خرجت مظاهرة الشيوعيين في النجف يتصدرها محمد موسى التتنجي تندد بالانقلاب. كما في كل المظاهرات كان محمد موسى بهوساته يبث الحماسة، لكنه هذه المرة كان يبث الحماسة والفزع. غادرت البيت رغم تحذيرات أمي للمشاركة في المظاهرة، لكن حين وصلت الميدان رأيت مظاهرتين بدلاً من الواحدة، تتجهان كل نحو الأخرى بشكل سيفين من عنف وخوف. أذرع تلوح بالهتاف وأذرع أخرى تهيئ الأسلحة الجارحة. قبل أن أنزل من الرصيف قال لي خوفي: تريث!

مكتبة الفكر الجديد

حين رأيت السكاكين والخناجر ترتفع فوق الرؤوس وتتحول الهتافات إلى محض صراخ، أدرت وجهي مفضلاً حياتي التي تجمعت بين خصيتي...

قبيل المساء تدفقت على مستشفى النجف وعلى المقبرة جثث رجال مثقوبة بالرصاص. الدفانون بخبرتهم في الجثث أخبروا المدينة:

– هؤلاء مدنيون أعدموا عن قرب، وذاك الصف الطويل لعسكريين قتلوا في معارك.

الدفانون فوجئوا بجثث قتلى بلا أسماء ولا نعوش ولا مشيعين يرميها مدنيون مستعجلون يحملون رشاشاتهم، ومعها قتلى بنعوش ولكن بمشيعين بعدد أصابع اليد، يكتمون بكاءهم بأسنانهم، يدفنون القتيل وينسحبون بصمت وغضب...مع الجثث بدأت تأتي الأخبار السيئة:

– الزعيم محاصر في وزارة الدفاع وقد نفدت ذخيرته.

– خيانة من داخل الجيش.

– ... تظاهروا بأنهم جاءوا لنجدة الزعيم وحملوا على الدبابات صوره.

– طائرات تقصف الدفاع ومعسكر الرشيد.

– كتيبة الدبابات الرابعة سيطرت على بغداد.

– فرق الإنذار البعثية قطعت الجسور وراحت تعدم الضباط في نقاط التفتيش.

– سلاح الشيوعيين القديم خذلهم.

نمنا مع كوابيسنا ونحن نتنصت إلى كل حركة في الشارع: جاؤوا! والدي نام محتضناً الراديو وبقيت أسمع وشوشة الموجات الغامضة

مكتبة الفكر الجديد

وفي مخيلتي تتقاطع الصور بحدة.. الطائرات المغيرة وهي تنقض وتخترق رأسي كما السكين، رجال ملثمون كأولئك الذين أوقفوا الباص في الأعظمية يقطعون طريقي إلى الكاظمية، الزعيم وحده والدبابات تحاصره وتكسر الجدران للوصول إليه، خالي سعيد يوقفه عند السيطرة ملثمون... خيالي يتحرك كرقاص يثبت الصور ثم يمسحها.

في النهار حين فتح والدي الراديو سمعنا صوتاً نسائياً جارحاً يقرأ البيان ١٣:

- أبيـــــــــدوهم!

التفتت أمي بفزع:

- خـــــوالك!

الحرس القومي بدأ يسير دوريات ليلية ذكرتني بدورياتنا في لجان الدفاع عن الجمهورية مع فارق هام، هم مسلحون برشاشات، بينما تسلحنا نحن بالحذر واليقظة. كنا نراقب ونحذر، بينما كانوا يقومون بأفعال اقتحامية قبل أن يتأكدوا. مثل اللصوص، كانوا يتسللون عبر سطوح البيوت المجاورة برشاشاتهم، ثم يقفزون فجأة داخل بيوت زاروها مراراً ويعرفون مداخلها وغرفها الخفية، لا تهمهم مناشدات الأمهات اللواتي يعرفنهم بالاسم ولا تهمهم الجيرة أو القرابة.

في الليل رأينا باب البيت المقابل لبيتنا يفتح ويغلق بسرعة، وفي لمحة برق نزل من سيارة رجل يرتدي عقالاً وعباءة ويغطي عينيه بنظارة سوداء. أغلق الباب خلفه على عجل وبقوة. على الفور عرفنا أن الشيوعي القيادي محمد حسن مبارك (أبو هشام) اختفى في بيت الأعسم.

بعد أن قضى يوماً طويلاً وهو يحرق أوراقه وصلنا في نفس الليلة من بغداد خالي سعيد. ابتسم خجلاً من حراجة موقفه، ابتسامة المهزوم

مكتبة الفكر الجديد

وهو يغطي ذل هزيمته، وقال بأنه سيختفي عندنا بضعة أيام وسأل عن سرير ليتسلل إليه وينام.

قبل أن يضع رأسه على الوسادة ناديناه ليرى ما نراه ويقول لنا رأيه. فقد كشف لنا التلفزيون ما كنا لا نريد أن نتخيله. الكاميرا تتحرك ببطء وتجرنا معها إلى عمق المشهد. رجل بملابس عسكرية، مقتول وممدد على كرسي. ممتد يد جندي لتمسك شعره وتدير وجهه نحونا. اقتربنا من الشاشة لنرى ما لا نريد أن نراه: الزعيم بدون سدارته ونجماته. تقترب الكاميرا لترينا عيني الزعيم مدهوشتين كأنه فوجئ بأن الذين أطلقوا عليه الرصاص هم أنفسهم من عفا عنهم بعد محاولتهم اغتياله. الجندي الممسك بشعر الزعيم بصق في وجهه بملء الفم، حقداً عليه أم مملقاً للمنتصرين؟ نادينا والدي فرفض أن يغادر الحديقة ليرى المشهد المفجع.

– شبعنا من رؤية الجثث.

الزعيم قتيلاً في استوديو الموسيقى.

مكتبة الفكر الجديد

الكاميرا تجولت طويلاً حول الجثث لكي نتأكد حتى الغصة، بأنهم هم بلا شك: رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، الزعيم الركن طه الشيخ أحمد (مدير التخطيط العسكري) والعقيد الركن فاضل عباس المهداوي (رئيس محكمة الشعب).

خيّم علينا ونحن نرى المشهد الفاجع صمتٌ مختنق. خالي كان يدمدم:

– نعم هو الزعيم، بجانبه ...

ثم غص بصوته وهرع إلى الغرفة.

قبل هذا المشهد كان الأمر لا أكثر من تغيير نحو السوء، مجرد كابوس آني قد نشفى منه قريباً. لكن المشهد أعطانا إنذاراً بالمدى الذي سيبلغه العنف. في نفس الليلة جاءت الناشطة سلمى الصراف لتختفي عندنا. بهمة هيأت لها أمي غرفة نوم في الطابق العلوي وصارت تقضي وقتاً طويلاً معها ثم تنزل وهي تتحاشى النظر في عيوننا خشية أن تفضح الأسرار المزدحمة في وجهها.

والدي أبدى نوعاً من الضيق من وجود شيوعيين في بيتنا:

– ألا توجد بيوت أخرى؟ لدينا أولاد وبنات لا يمكننا ضمان سكوتهم.

ابتعد كلياً عن سماع الأخبار من الراديو وتجنب الجرائد وصار يغرق قلقه بالشرب والنوم كأنه يريد أن يلغي الزمن الراهن من سياق حياته.

انقطعنا نحن عن زيارة جيراننا حتى لا يبادلنا الجيران الزيارة ويكتشفوا بالصدفة أن في بيتنا رجلاً وامرأة. خوفاً من كبسات الحرس القومي رتبت أمي مخبأ تحت السلم له مدخل واحد من تحت سرير في غرفة النوم. أدهشني وأنا أراقب التجربة الأولى؛ الحجم الصغير الذي يمكن أن يطوى فيه جسد الإنسان ليدخل من فتحة بالكاد تتسع لجسد

مكتبة الفكر الجديد

طفل. صار خالي سعيد يجري تمريناً يومياً للدخول في الفتحة خلال لمحة عين.

بإلحاح متواصل يحذرني خالي من الحديث لشبان المحلة:

– لا تثق بأقرب الناس إليك، وخاصة الطيبين منهم، فالطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة.

مع ذلك همست في أذن صديقي فاروق، وهو جارنا من الخلف:

– حاذر من أن يعبروا من بيتكم إلى بيتنا فلدينا مطلوبون!

لم يسألني فاروق عن هوية المطلوبين، إنما بادلني الهمس:

–نحن حذرون بما يكفي لأن لدينا، بيني وبينك، واحد مثل الذين عندكم.

تلقائياً كنا نتحاشى ذكر الشيوعيين حتى ولو بالهمس. لكن بالهمس اكتشفنا أن عشرة شيوعيين على الأقل، بينهم عسكري كبير، مختفون في منطقتنا. بسببهم انقطعت زيارات الجيران لبعضهم البعض وخيّم صمت مكبوت وعصبي، وصارت الوجوه أكثر جهامة وشحوباً بسبب الخوف وقلة النوم.

لم يتعود خالي سعيد البقاء الطويل في البيت لذلك كان يدور ذهاباً وإياباً بين جدران البيت وهو لا يكف عن طرح أسئلة ويجيب عنها بنفسه:

– لماذا لم تطبق خطة طوارئ بغداد التي عممها الحزب؟

– لماذا لم يحرك الحزب عسكرييه حين رفض الزعيم توزيع السلاح على الجماهير؟

– لماذا فضل الزعيم تسليم نفسه بدلاً من توزيع السلاح على الجماهير التي جاءت لتحميه؟

– لماذا لم يسمع تحذيرات الشيوعيين؟

مكتبة الفكر الجديد

...أسئلة، أسئلة، أسئلة وهو يروح ويجيء بين الجدران، ناظراً لمواقع خطواته، متسمعا لأصوات الشارع، ينحني تلقائياً ويغمض عينيه كلما مر أمام فتحة في ستارة النافذة، يروح ويرجع ويعيد الأسئلة:

– ولماذا لم يتحرك العسكريون بأنفسهم دون قرار من الحزب؟

يروح ويرجع، كما ذئب فقد براريه وحبس في قفص، مدوخاً أعصابنا بأسئلته اللجوجة وبهذه الحركة التي لا تتوقف، ذهاباً وإياباً...

الريف المحيط بالنجف، وبالتحديد ريف العباسيات بقي عصياً على البعثيين. لا يكشف هذا الريف الممتد بمحاذاة الفرات لهم جماله حين يدخلونه ببنادقهم الرشاشة ومدرعاتهم. لن يشموا رائحة الطين ولن يسمعوا نقيق الضفادع على ضفتي النهر ولا هديل الحمام ولن يروا رقصة السعف الرقيقة... يبدو لهم الريف غامضاً في سكونه وعمقه اللانهائي. مئات الشيوعيين هربوا من المدن واختبأوا في غابات نخيله بحماية الفلاحين. في واحدة من «زركات» البعثيين على هذا الريف الكمين أطلق الفلاحون الرصاص على (محمد رضا الشيخ راضي) الملقب (واوي)، وهو واحد من أشرس البعثيين وأكثرهم إيغالاً في التعذيب. رفاقه حملوه وهو في آخر أنفاسه إلى المدينة، و لم يجدوا جراحاً لينقذه أجدر من الدكتور رضا عجينة المعتقل عندهم تحت التعذيب. حين نهض الدكتور للمهمة أمسكه المساجين معه:

– ندري أنك أدّيت القسم الطبي، لكن هذا الذي أنت ذاهب لمعاينته سيأتي إذا أنقذته ليعذبنا جميعاً، وأنت أولنا!

حين فحصه الدكتور رضا تأكد من أن الطلقة التي أصابته طلقة فلاح غاضب عرف هدفه بدقة وأصابه في المقتل.

بعد ذلك صار البعثيون يترددون قبل أن ينزلوا من مدرعاتهم على الطريق المسوى. فكل نخل في هذا الريف الكمين تترصدهم وتهمس للكمائن الموزعة فيه.

مكتبة الفكر الجديد

حين مل خالي سعيد الدوران بين جدران البيت وضاق بكثرة أسئلته قرر أن يغادرنا إلى واحد من بساتين جدي في ريف الكوفة. بدا لنا غريباً حين ارتدى العقال والعباءة وأمسك بيده مسبحة. قبل أن يغادر تجول طويلاً داخل البيت وهو يذكر نفسه بإلحاح «إنس سعيد المهندس وتذكر إنك حاج حسن من ألبو حسن! حـــــــاج حســـــن!» بعد تمرين طويل وقف يقلب نفسه أمام المرآة ويقول لها بصوت مسموع:

– الله يجويك حاج حسن!

هناك شيء ناشز في هيئته، ثغرة لا نعرفها، ربما هي نحافة جسمه أو انحناء ظهره ورقّة شاربيه، ربما كان وجهه الناعم لا يعكس أبداً هيئة فلاح أو ملاك متوسط، بل مثقفاً شيوعياً لم ير الشمس منذ فترة. طريقته في تحريك خرزات المسبحة تدل على قلق كامن بدلاً من استرخاء فلاح سلم نفسه للقدر. تردد مرتين وهو يقترب من باب البيت غير واثق من الفضاء المفتوح خارج الوكر. في النهاية لمّ عباءته بيديه وغادر البيت كأنما إلى هاوية.

لم يدم الأمر أكثر من ساعة حتى عاد خائباً مع ابتسامة حرج، فقبل أن يصعد السيارة إلى الكوفة التقاه واحد من أقاربنا (حماده) وسلم عليه بصوت عالٍ سائلا إياه إن كان ملاحقاً فإن بإمكانه الاختفاء عنده. حاول خالي سعيد التملّص منه، لكن الآخر بقي يلاحقه مصراً على أن بيته مفتوح له. وحين يئس من محاولاته أوقف خالي سعيد في منتصف الكراج وقال له ساخراً:

– ما هكذا يشد العقال...

وأخذ يعدل له عقاله أمام حشد من الناس ثم صرفه.

في هذه الفترة صرنا نغلق مصاريع الأبواب بإحكام في الساعة الخامسة من عصر كل يوم، ونغلق الشبابيك جيداً ونقرب آذاننا من الراديو لنسمع من وراء الشواش والخشخشة وتقاطع الموجات (صوت

مكتبة الفكر الجديد

الشعب العراقي) الذي يبث من براغ. نسمع أصوات تضامن مع الشيوعيين وإدانات للانقلابيين وجرائمهم، وأخباراً عن الخلافات بين البعثيين والقوميين والعسكر. صوت نسائي متقطع وبعيد يعدنا في نهاية البث اليومي بنصر قريب لا نعرف شكله. ذات يوم بث الراديو قصيدة بصوت الجواهري:

أمين لا تغضب فيوم الطغام
آتٍ وأنف شامخ في الرغام
أمين لا تغضب وإن هتكت
ستر وديست حرمات الذمام
وإن غدا العيد وأفراحه
مأتماً في كل بيت تقام
أمين خلي الدم ينزف دماً
ودع ضراماً ينبثق عن ضرام
فالسيف يعلو من شبا حده
عند التلاقي كثرة الانثلام[١٨]

كنت، كما كلفني المختفيان ألصق أذني بالراديو. ألتقط الكلمات وهي تغيب وراء التشويش ثم تعود مبتورة وخافتة. مع ذلك أعاود الاستماع في اليوم التالي، ذاهباً بجسدي إلى مصدر الصوت البعيد لأكمل كتابة القصيدة.

بغياب مدرسينا الشيوعيين صرنا عراة أمام المعلم القومي علي محيي

(١٨) القصيدة لم تنشر في دواوين الجواهري، مراعاة لحساسية البعثين العراقي والسوري اللذين وصفا ٨ شباط ١٩٦٣ بـ (عروس الثورات).

مكتبة الفكر الجديد

الدين. بأدب جم وصوت مشدود يترك موضوع الدرس ويتحدث عن إلحاد الشيوعيين وعدائهم للقومية وجرائمهم في الموصل وكركوك. وكنت ألاحظ أنه يوجه الحديث إليّ بالتحديد. ذات يوم اقترب مني ووجّه للصف سؤالاً غريباً:

– هل تعرفون أين يكتب الجواهري قصائده؟

–...؟

وقف أمامي مبتسماً بسخرية وتحد، مادّاً قامته فوق رأسي، أنا المواظب على نقل قصيدة الجواهري من وراء التشويش.

– هاه، هل تعرفون أين يكتبها؟

–...

لما يئس من صمتي أعلنها بصوت عالٍ وهو يدور حول نفسه بظفر:

– في المرحاض... يكتبها في المرحاض، شاعر المراحيض هذا!

لا بد أنه سمع القصيدة مثلي وأثارت هذا الحقد فيه.

امتلأت سجون النجف فاستخدمت دوائر الدولة، المكتبات العامة، الملاعب الرياضية وحتى المدارس المعطلة كسجون. ومع ذلك ما زال البعثيون يبحثون عن شيوعيين محتملين لتنفيذ البيان رقم ١٣: أبيدوهم! زادت الاعتقالات بعد مقتل محمد رضا الشيخ راضي في بساتين العباسيات وتضاعفت بعد حركة حسن سريع[١٩]. مع ذلك لم يشبعوا،

(١٩) في الثالث من تموز ١٩٦٣، تمكن ضابط الصف الشيوعي حسن سريع وجماعته من جنود وضباط صف المدرسة المهنية العسكرية، من السيطرة على أجزاء كبيرة من معسكر الرشيد، وكان هدفهم إطلاق سراح المعتقلين في سجن رقم واحد في معسكر الرشيد، والمقدر عددهم بأكثر من ١٣٠٠ ضابط من مختلف الرتب والأصناف، ومجموعة كبيرة من الطيارين والأطباء. الخطوة الثانية هي السيطرة على المعسكر، بدباباته وطائراته، ومن ثم القيام بانقلاب مضاد. قامت المجموعة باعتقال عدد من قادة انقلاب شباط ١٩٦٣، بعد استدراجهم للمعسكر، ومنهم

مكتبة الفكر الجديد

ففي الأسبوع مرتين على الأقل يقف زميلنا عزيز نصار في مقدمة الصف مقاطعاً المدرس ويشير بإصبعه كما في لعبة محيبس:

– أنت لا، أنت لا، أنت لا. تعال أنت! أنت لا، أنت لا، أنـ.... مع ذلك تعال!

ترك الطلاب المعتقلون مقاعدهم خالية. لكن هذا الغياب كان أكثف من الحضور. ننظر خلسة إلى هذه الفراغات ونتبادل المعلومات عنهم بالنظرات والإشارات والهمس.

في عطلة نصف السنة جيء ببعض زملائنا، وهم في القيد ليؤدوا الامتحان ثم يعودوا لسجونهم. في غفلة عن حراسهم الذين وقفوا في مقدمة القاعة برشاشاتهم كنا نختلس النظر إلى وجوههم الشاحبة، ونبتسم سراً بنوع من المساندة المعنوية.

تقلص مدرسونا بعد اعتقال جواد الرفيعي وداوود سلمان وموسى العادلي وعبد اللطيف أطيمش. الطلاب البعثيون صاروا يعذبون معلميهم الشيوعيين ويهمسون في آذانهم:

– أستاذ، سأخفف الضرب حالما يغادر المسؤول!

فجع والدي، الذي كان مديراً لمدرسة الغري، حين عاد لمدرسته

وزير الخارجية طالب شبيب ووزير شؤون رئاسة الجمهورية حازم جواد والقائد العام للحرس القومي منفر الونداوي وعدد من الضباط الموالين للانقلاب. ولكن سرعان ما تدفقت دبابات النظام، واقتحمت المكان، وطوق معسكر الرشيد بكامله، ثم هرع بعد مضي أكثر من ساعة قادة الانقلاب برمتهم نحو المعسكر، بما فيهم احمد حسن البكر والمشير عبد السلام عارف، ودوى الرصاص، سقط على أثره عدد كبير من الجنود والضباط، وتم إلقاء القبض على الثوار ومطاردة الفارين منهم، ثم تلا هذه الإجراءات تشكيل محكمة عسكرية صورية خاصة برئاسة ناظم كزار وعمار علوش وخالد طبره، أصدرت أحكاماً بالموت في غضون يومين على أكثر من ثلاثمئة شخص وتم الحكم عليهم بالإعدام في سجن رقم واحد. واجه حسن سريع المحكمة والحكم ببطولة نادرة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد العطلة: خطاطيف تعليق في مكان المراوح السقفية في الصفوف، لطخات دم متخثر على رحلات الدرس، قمصان دامية وممزقة في الزوايا وجمل لم تكتمل حفرها المعتقلون على الحيطان قبل تصفيتهم، على السبورة أسماء أعضاء التنظيم الشيوعي كما اعترف بها المعذبون وقد شطبت علامة صح على المقبوض عليهم، آثار رصاص على جدران ساحة كرة السلة... داخ والدي حتى أوشك على الإغماء من هول ما رأى.

آخر الحراس، وكان واحداً من طلابه، اعتذر منه:

– اعذرنا أستاذ، لقد حاصرنا الوقت فلم نستطع تنظيف المدرسة.

لأيام بقي والدي مهموماً يعيد القصة ليشفى منها:

– في غرفتي أكاد أختنق من رائحة جسد إنساني متعفن. نفتح الشبابيك والأبواب علّ... لكن الرائحة متغلغلة في الحيطان.

المعلمون الباقون في مدرسته يشمون نفس الرائحة، ولكن لا يتحدثون عنها.

طوال الأشهر الثمانية التي دام فيها الانقلاب الأسود كانت الأخبار السيئة تُتلى دون انقطاع، وفي كل يوم يبث التلفزيون المزيد من اعترافات قادة شيوعيين انهاروا تحت وطأة التعذيب، وراحوا يتحدثون عن أخطاء الحزب، واختياره سلاح المقاومة بدلاً من التحالف مع القوميين، وتمجيد دكتاتورية قاسم وتغليب الأممي على القومي... وأنا أسمع هذه الاعترافات صرت أسال نفسي كيف يمكن التمسك بالفكرة المجردة حين يكون الجسد المحسوس على خشبة التعذيب، وكيف يمكن للفكرة أن تقاوم الألم.

بينما الشيوعيون في السجون أو الأوكار السرية حملت أمهاتهم الأمانة. نسين كل تحذيراتهن للأبناء، وحتى لو لم يؤمن بواقعية أهدافهم، احترمن القضية التي من أجلها تحمّل الأولاد كل هذا العذاب. تماماً

مكتبة الفكر الجديد

كالأم في رواية غوركي، تسلحن بالمسكنة وبمئات الحيل للإفلات من سيطرات الحرس القومي وهن يحملن بريد الحزب ومنشوراته دون أن يقرأنها. أم سلمى الصراف وأمي كانتا تتحركان في جو الخطر المشحون بالعيون المترصدة والرشاشات لإعادة بعض الاعتبار للأبناء. أمي كانت تعود من جولاتها وتتنفس بصعوبة لتتحرر من جولة الخوف والتوتر ثم تتحدث عن خلافات بينهم وبين العسكر، وخاصة عبد السلام، حول الحرس القومي وعن خلافات بين القوميين والبعثيين.

أخبار محمد موسى التنجي شغلت الشيوعيين في أوكارهم. في المراسلات بين سلمى الصراف وخطيبها داوود سلمان المختفي في وكر آخر غير بعيد عن بيتنا تبدأ بالسؤال عنه، هو الذي يجيد الاختفاء والتحرك من هناك. هو الذي سيعيد بناء الحزب ويعيد منشوراته. في هذه الأيام العصيبة وزعت في المدينة منشورات مطبوعة بشكل سيئ وبلغة بسيطة. في واحد من هذه المنشورات مقاطع من قصيدة الجواهري:

أمين لا تغضب فيوم الطغام
آت وأنف شامخ في الرغام

رأيت نفسي خلف هذه الكلمات وكأنني أنا الذي أعد الناس، ببساطة ويقين بأن يوم الطغاة آت.

لم تدم سلطة البعث الدامية سوى ٨ أشهر، ثم انقلب عليهم العسكر بقيادة عبد السلام عارف. أتذكر تماماً يومهم الأخير حين تدفقوا أفراداً وجماعات ليسلموا أسلحتهم لمخافر الشرطة. قادتهم يتتابعون على مبنى السراي مكبلين ورؤوسهم منكسة من خزي ما فعلوه. في طريقهم إلى السجون التي ما زال الشيوعيون يئنّون فيها من جراحهم. أمهات الشيوعيين الثاكلات وقفن صفّين ليستقبلنهم بالشماتة والزغاريد وما درين أنهم سيعودون للسلطة وسيصبح الضحايا حلفاء لهم ثم ثانية ضحايا لهم.

مكتبة الفكر الجديد

جيـــــــلي

الستينيون في النجف، من اليمين: عبد الإله الصايغ، عبد الأمير معله، حميد المطبعي، حميد سعيد، زهير الجزائري، عبد الرضا الصخني وفي الصف الأمامي موسى كريدي وجاسم الحجاج.

بين حشد الجنازين في مقهى (مال الله) ووسط حركتهم النشطة لاستقبال الموتى التقيت بزميلي في الابتدائية عبد الأمير الحصيري، وقد عاد تواً من بغداد بعد غيبة طويلة لزيارة الأهل في النجف. خلال هجرته المبكرة لبغداد صار يلتقي بالشلة الوجودية ومنها حسين مردان ونزار عباس ورشدي العامل. مفلساً، مشرداً ومنبوذاً عاش الحصيري

مكتبة الفكر الجديد

في بغداد حياة بوهيمية بلا استقرار، يستنزف حياته دون راحة.. يتجول على طول بارات أبي نواس حتى آخر الليل وينام حيث ما وجد مهجعاً، لا يهم في زاوية من اتحاد الأدباء، بيت معجب لا يعرفه، في مقهى وأحيانا في الشارع بعد أن طرد من الفنادق الرخيصة. في النهار يتجول بين مقاهي البلدية، حسن العجمي، الزهاوي باحثاً عمن يسلفه مبلغاً لمواصلة حياته. خلال هذا التجوال المتعب وصف الحصيري عن حق حياته في بغداد (أنا سندبادك والدروب زوارقي...) وكانت معلقة بغداد الطويلة تنضج في ذهنه...فتح الحصيري باب التمرد في جيلنا دون أن يشاركنا في مغامرتنا الثقافية. هذه الحياة العبثية المتمردة مست ابن العائلة النجفية المحافظة أسيرة التقاليد والأصول فقلبته (على البطانة).

في المدرسة عرفته نظيفاً كما لو كان قد خرج تواً من دروس الحوزة نازعاً عمامته للوضوء. وكان يزرر ياقته وأكمام قميصه يريد أن يخفي كل ما في الجسد من رغبات بنوع من الزهد الديني. على العكس طال شعره الآن وتسرح إلى الخلف براقاً من تراكم الدهون، تهدل كرشه فانفتح زران من قميصه، وفي شفتيه حمرة رطبة تعكس نهماً إلى الجنس والخمرة. كثير الشبه كان بالشاعر حسين مردان الذي (رأى أمه عارية في الحمام فود لو يراها ثانية)[٢٠]. أول ما لفت انتباهي في الحصيري الآخر العائد إلى مدينته هو صوته العالي وهيئته الجديدة، إعلان عن تمرد ودعوة لأن يصلب عقاباً على موبقاته.

نزعة التعالي التي ميزت الشعراء العموديين المتمردين (من المتنبي إلى الجواهري) شملت الحصيري، الذي أعتقد أنه بز الجواهري بمطولاته (معلقة بغداد) و(يا أم هارون). الثلاثة (المتنبي، الجواهري والحصيري)

(٢٠) من ديوان قصائد عارية للشاعر حسين مردان.

مكتبة الفكر الجديد

على اختلاف الأزمنة جاءوا من نفس البيئة الصحراوية (الكوفة والنجف)، وعانوا من شعور متضخم بالغبن وعداوة الآخرين. لم يكتف الحصيري السكير المشرد المنبوذ بألقاب (إمارة الشعر) أو (شاعر العرب الأكبر)، إنما جعل الشعر (وقفاً عليه فقط) حسب موسى كريدي[٢١]. حوله في المقهى حشد الجنازين في الانتظار وأمامه يمر طابور الموتى وعلى اليمين امتداد المقبرة اللانهائي حين استعاد بيتاً له:

إذا ذهبت نفس (الحصيري) أغلقت عرى الشعر واسترخى عنان القصائد.

صورة متخيلة للحصيري في المقهى.

كما معاصره الجواهري تشرب الحصيري بالقديم خلال قراءاته أبرز

(٢١) موسى كريدي: أزمة الشعر في النجف - مجلة العدل النجفية ٩-١٢-١٩٦٥.

مكتبة الفكر الجديد

الشعراء العموديين، المتنبي والطرماح خاصة هيمنوا عليه، لكنه تأثر أيضاً بالنزعة الرومانسية والتعالي النيتشوي عند الشعراء المهجريين. رغم علاقته بالشعراء المحدثين في بغداد لم يغادر الحصيري العمود كما فعل شعراء من جيله، فالشعر كما علمه المنبر إلقاء وليس همساً داخلياً. لا أتخيله أبداً جالساً يكتب القصيده، إنما يسمعها من شاعر عباسي ويلقيها من على منبر. العمود نفسه والنبرة الخطابية منذ أكثر من ١٤ قرناً، لكن الحصيري الشاب الستيني غيّر موضوع قصيدته، من الحسينيات التي بدأ بها في النجف إلى الخمريات والجنس متأثراً بشعر الياس أبو شبكة وديوانه (أفاعي الفردوس).

في هذا المقهى ودون أن يتلفت حذراً أخذ يقرأ بصوت جهوري قصيدة أبو شبكة:

مغناكِ ملتهب وكأسكِ مترعة

فاسقي أباك الخمر واضطجعي معه

لم تبق في شفتيك لذات الهوى

ما تذكرين به حليب المرضعة.

يقرأها بصوت عالٍ في تحد لمن يعترض من جلاس المقهى. كنت آنذاك أعد نفسي لأكون رساماً، لكن طريقته في الألقاء وهو منتش مغمض العينين سحرتني لكي أجرب الشعر.

كنا أنا وأبناء جيلي من الأدباء نلتقي نهاراً في (مقهى عيدان) في منتصف شارع زين العابدين، وفيها شكلنا مجموعة النجف من جيل الستينات.

عراقياً يتكون أبناء هذا الجيل من مجموعات مدينية نزحت لاحقاً إلى بغداد. إضافة لجماعة بغداد كانت جماعة كركوك وجماعة الناصرية وجماعة النجف التي أطلقنا عليها اسم (جماعة الكهف الأخضر).

مكتبة الفكر الجديد

ضمت المجموعة التي كنت منها حميد المطبعي، موسى كريدي، موفق خضر، عبد الأمير معله، عبد الإله الصايغ وجاسم الحجاج، ومن كربلاء انضم إلينا علي ضياء الدين. ومعنا، ولكن على حذر، العامليان المعممان هاني فحص ومحمد حسن الأمين اللذان كانا يدرسان الفقه في النجف ويسكنان في آخر بيت في أبي خالد، وبعد بيتهم تمتد الصحراء.

بعيداً عن بيئتهم الجبلية الخضراء وعلى حافة الصحراء بدا لي أن العامليين يعيشان حالة من العرفانية الداخلية تجعلهما يختلفان كلياً عن سادتنا وموامنتنا في النجف. في تدينهما نوع من الإشراق الداخلي كأنهما يريان نور الإيمان في داخلهما. ينعكس هذا الإشراق الداخلي في رقة صوتيهما حين يتحدثان. العامليان حولا ذائقتي الموسيقية من أم كلثوم إلى فيروز وفتحا عيني على شعر سعيد عقل والياس أبو شبكة ومعهما تشاركنا في قراءة أدونيس مرات ومرات.

كما هو شأن مجايلينا في بقية المدن تخرج أفراد هذا الجيل من فشلين، فشل الشيوعيين في الوصول إلى الحكم من خلال مؤازرة الجنرال عبد الكريم قاسم، هذا الفشل الذي أوصلهم إلى أقبية التعذيب في سجون البعثيين الرهيبة. يقابله فشل البعثيين الذين وصلوا للسلطة عام ١٩٦٣ بانقلاب دموي ولم تدم فترة حكمهم أكثر من ٨ أشهر، ثم انقلب عليهم العسكر وأودعوهم نفس السجون التي اعتقلوا فيها الشيوعيين.

الشيوعيون الذين اعتقلوا وعذبوا في تلك الأقبية الرهيبة بقوا يفزون من نومتهم وهم يصرخون بصوت الذبيحة ويحتاجون بعد يقظتهم إلى وقت ليتأكدوا من أن الأمر كان كابوساً وأنهم هنا في هذا العالم بين أمهات وآباء وإخوة. الذين اعترفوا أو وقّعوا البراءات تحت وطأة التعذيب بقوا يحملون إحساساً بالانكسار أمام رفاقهم السابقين، أمام زوجاتهم وأولادهم والناس، وقبل ذلك أمام أنفسهم. بعضهم انكفأ عن السياسة والحياة عموماً، وبعضهم راح يعذب نفسه بتعليق البراءة

مكتبة الفكر الجديد

المنشورة في الصحف على جدار ذاكرته أو عاش في هروب دائم من هذه التجربة المؤلمة خائفاً من أن يستعيدها حين يكتب عنها وبقيت مترسبة في داخله.

لم أدخل السجن و لم أعرف التعذيب لكني شغلت بالمواجهة غير المتكافئة بين الألم المحسوس والفكرة المجردة وعكستها في قصتي الطويلة (السوط والرجال)[٢٢].

في واحد من بارات (أبو نواس) كنت أستحث صديقاً خرج من التجربة ليكتب عنها كي يشفى من الرغوة المرة التي ترسبت فيه[٢٣]. سألني:

– هل عرفت الألم حقاً في حياتك؟

– ...؟

خجلت من مقترحي وأنا أرى الدموع تترقرق من عينيه.

– انظر إلى هذا جيداً!

قال لي بتحد وهو يسحق جمرة السيكارة بقفا كفه على مهل ودفع يدي حين حاولت منعه:

– أستطيع تحمل الألم كما ترى أمام عينيك.

لم أفهم ما أراد إثباته وأنا أشم رائحة اللحم المحترق، وربما فات عليه الدليل فأجهش بالبكاء:

---

(٢٢) نشرت في مجلة (الطريق) اللبنانية أواسط السبعينات.

(٢٣) انعكس السجن وأقبية التعذيب وما تبعه من انكسار روحي في حشد من الروايات العراقية منها المسافة ليوسف الصايغ، الوشم لعبد الرحمن مجيد الربيعي، المناضل لعزيز السيد جاسم، القلعة الخامسة لفاضل العزاوي، الرجع البعيد لفؤاد التكرلي، السراب الأحمر لعلي الشوك، الانقلاب لإبراهيم الحريري، وفي رواية عبد الله صخي خلف السدة وحافة القيامة والخائف والمخيف لزهير الجزائري.

مكتبة الفكر الجديد

– لماذا لم أتحمله هناك؟

كان يعذب نفسه لأنه اعترف على رفاقه.

الشيوعيون لم يكونوا أبداً رحماء بضحاياهم من الرفاق الذين انهاروا تحت وطأة التعذيب. وتعكس قصيدة مظفر النواب (أم وابن وبراءة) هذه القسوة:

يا بني ابني الجلب يرضع من حليبي

ولا ابن يشمرلي كسره من البراءة

من الجانب الثاني خرج البعثيون من تجربتهم مجللين بوطأة الهزيمة وعار جرائمهم. فقد وجدوا أنفسهم منبوذين من كل القوى، بما في ذلك القوميون الذين شاركوهم الانقلاب. الحزب عاش سلسلة انشقاقات هروباً نحو اليسار، لكن الأهم هو الانشقاق الروحي الذي عاناه مثقفوهم. ففي مقهى رسول ناجي في حي السعد سمعت البعثيين الثلاثة سامي مهدي وحميد سعيد وعبد الأمير معله يسخرون من رفيقهم السابق شاذل طاقة، لأنه كان يجمع التبرعات للحزب في مدخل اتحاد الكتاب، في حين اعتبر الثلاثة بأن الحزب صار وصمة عار.. وسمعت عبد الأمير معله يلوم والدي لأنه تفاوض مع البعثي عبد الحسين الرفيعي حول قائمة موحدة لانتخابات نقابة المعلمين:

– لم تلطخ يدك مع هؤلاء؟

الخيبات السياسية التي عشناها عصباً ودماً دفعتنا لأن نعيد النظر في تاريخ المدينة وثقافتها. الحراك السياسي ترافق مع ركود ثقافي. أردنا، نحن الشلة المعزولة والمنبوذة أن نهز البداهات الثقافية، علّ الثقافة تخفف الأحقاد السياسية.

من الفشلين تخرج جيلنا من السجون وفصلتنا خيباتنا عن الأحزاب. تميزنا عن مجايلينا في المدن الأخرى بانفصالنا عن المؤسسات

مكتبة الفكر الجديد

الدينية، إضافة لانفصالنا عن الأحزاب، كما انفصلنا عن الثقافة الأدبية السائدة في النجف.

في بداية الستينات كانت المرجعية الدينية قد انحسرت في النجف وانتقلت إلى قم ولم يبق من المراجع في النجف إلا ثلاثة هم العربي السيد محسن الحكيم والإيرانيان شاهرودي والخوئي[٢٤]، وانحسرت

(٢٤) أضاف الصديق والكاتب هاني فحص الذي قام مشكوراً بمراجعة الكتاب ملاحظة مهمة حول المرجعية بين والنجف قم أوردها كما هي لأهميتها:

كانت المرجعية في قم تنهيب منافسة المرجعية في النجف، انطلاقاً من عراقة الحوزة النجفية، على الرغم من التقطعات التي حصلت في تاريخها بسبب الأمراض الوبائية أو الاجتياحات العسكرية أو الحصار الحكومي أو الإفقار، الذي كان ذا أثر سلبي بالغ، لأنّ الأكثرية الساحقة من طلاب العلم في النجف ومن العلماء، على اختلاف جنسياتهم هم من أبناء الكادحين والأسر الفقيرة... إلى ذلك فإنه من الصعب على الحوزة في قم، وعلى الرغم من بعض العصبيات والحساسيات بالنسبة إلى النجف، يصعب عليها أن تتخلص بسرعة ونهائياً من ذاكرتها النجفية، فقد كانت قم حتى عشرينات القرن العشرين، حوزة صغيرة بالكاد تستطيع أن تصمد أو تنافس الحوزات المنتشرة في الحواضر الايرانية (مشهد وأصفهان خصوصاً)، إلى أن أعاد تأسيسها أو تجديدها أو تنشيطها عدد من المجتهدين من خريجي النجف (الشيخ موسى الصدر، ووالده السيد صدر الدين الصدر وغيرهم) وعلى إيقاع تعدّد وجهات النظر في ثورة العشرين وثورة النجف في وجه الإنجليز، وقبلها الثورة (الدستورية) في إيران أواخر العهد القاجاري (١٩٠٦م) والتي كانت قياداتها العليا من خريجي النجف، وكان مجتهدو النجف وقتها على صلة توجيهية وثيقة بها.

وبقيت قم طوال عمرها، وإلى الآن بنسبة ما، تشعر بحاجة، في الاعتراف بالاجتهاد لدى علمائها، بالقيمة العلمية لأي كان من العلماء، إلى شهادة منشأ من النجف، حتى أن كثيراً من علماء قم الكبار وحتى المراجع، وجدوا أنهم لا يمكن أن يدعموا مكانتهم العلمية إلا بالمكوث ولو لسنوات معدودة في النجف والاختلاط العلمي بها، لما تميّزت به من كونها بسبب، عروبتها، حاضنة الفقه، بينما كانت قم بسبب علاقتها بالفكر الفلسفي والعرفاني، حاضنة علم أصول الفقه، ومن أواخر أو أواسط بل أوائل الخمسينات، وبعد

مكتبة الفكر الجديد

وفاة السيد أبو الحسن الأصفهاني (١٩٥١) أو (١٩٤٩)، يجب التدقيق، استمر ازدهار ووجاهة المرجعية النجفية ممثّلة بالسيد محمود الشاهرودي والسيد محسن الحكيم والسيد محمد حسين الحمامي والشيخ حسين الحلي وصولاً إلى السيد ابو القاسم الخوئي، ليبرز السيد محمد باقر الصدر مرجعا من الطبقة الأولى في أواسط الستينات، وكان هناك مراجع مرموقون عدّوا في الطبقة الثانية، لا لأسباب علمية بل لأسباب مالية وإدارية تتصل بقلة الخبرة العربية في هذا المجال في مقابل الخبرة الإيرانية ومن هؤلاء الشيخ محمد رضا آل راضي، والشيخ مرتضى آل يس، والشيخ محمد ابراهيم الكرباسي، والشيخ حسين مشكور وغيرهم.. وحتى انقلاب البعث في الستينات (٦٨) كانت مساحة صلوات الجماعة في الصحن العلوي، خلف المراجع (السيد محسن الحكيم، السيد أبو القاسم الخوئي) وعدد من كبار العلماء (السيد محمد علي الحمامي، السيد محمد جمال الهاشمي والشيخ نوري مشكور وغيرهم) كانت - صلاة الجماعة - على توسع مطرد، وبلغت ذروتها في فترة التحدي، في حكم عبد السلام عارف، وظلت تتوسّع ولكن بهدوء في حكم عبد الرحمن عارف.

وبعد محاولة الانقلاب التي قادها (نظام الدين عارف والشيخ طه جابر العلواني وعبد الغني الراوي وجابر حسن الحداد واتهم السيد محمد مهدي الحكيم بالمشاركة فيها)، قرّرت سلطات البعث أن تشرع في تفكيك الحوزة بداية من كسر هيبتها بالهجوم على منزل السيد محسن الحكيم في بغداد ثم النجف، ومن خلال اعتقال عدد من العلماء وسجنهم وملاحقة آخرين.. وعندما توفي السيد محسن الحكيم بعد سنة وأشهر من هذه الواقعة، وسّعت الحكومة البعثية من نشاطها، في طرد العلماء الإيرانيين الذين يشكلون فريق عمل المرجعية، وخاصة مرجعية السيد أبو القاسم الخوئي... وفي حين لوحق بعض اللبنانيين والهنود والباكستانيين.. فر عدد من الطلبة والعلماء من هذه الجنسيات.. وأصبحت الحوزة في قبضة السلطة، إلى حد مصادرة كلية الفقه تماماً وإلحاقها بوزارة التعليم العالي وتحويلها إلى ملجأ لذوي المعدلات المتدنية من خريجي الثانويات في كل أنحاء العراق، وخاصة كردستان... فتهاوت قيمة شهادتها، وصمد السيد الخوئي، خاصة بعد مقتل السيد باقر الصدر، مع بعض كبار تلاميذه وتلاميذهم (السيد عبد الأعلى السيزداري، والشيخ محمد تقي، الإيرواني والسيد محمد تقي محمد حسين ومحمد علي ومحمد

مكتبة الفكر الجديد

صلاة الجماعة أمام تدفق المظاهرات التي تقودها الأحزاب السياسية. المداخيل التقليدية لرجال الدين من شيعة العالم تقلصت وكذلك الرواتب الضئيلة لدارسي العلوم الدينية في الحوزة. تأثير الحوزة في الناس انحسر أمام هيمنة الأحزاب السياسية. حتى أبناء المراجع فضلوا

سعيد الحكيم والسيد نصرالله المستنبط والشيخ إسحاق الفياض، والشيخ بشير النجفي) وغيرهم.

ولم تلبث قم أن تقدمت في واجهة الثورة المنتصرة عام ١٩٧٩ والدولة التي أصبحت في أيدي رجال الدين وعلماء إيران وعلى رأسها المرجعية، فانفتحت أبواب النفوذ والمال مع إدارة متقدمة جعلت قم تتقدم كثيراً على النجف المحاصرة والمضطهدة على مدى عقود.

وأخذت المرجعية الإيرانية في قم تتقدم هذه المرة وبجدية غير مسبوقة في حضورها وتأثيرها، على مرجعية النجف، إلى أن حصل التغيير عام (٢٠٠٣م) لتعود النجف المغيّبة، ومن أبواب عدة أهمها باب منهجية مراجع النجف جميعاً وخصوصاً السيد علي السيستاني الفقهية التي لا تقول بولاية الفقيه وتلحّ على التمييز بين الديني والسياسي من دون أن يكون ذلك سبباً لعدم تحمّل المرجع مسؤولية الاعتراض على أي سلك سياسي خطر لجهة علاقته ببناء الدولة ووظيفتها ووحدة الاجتماع الوطني. ومع ذلك فإن المرجعية تشكو من ضعف ومن خوف التصدي القوي لحماية الشأن العام من الفساد والاستبداد..

بسبب بروز الأحزاب الشيعية في المجال السياسي وطريقة الحكومة ذات الأصول الحزبية المذهبية في الإدارة والجمع الملتبس والمتعمّد بين المجال العام والمجال الخاص أي بين الانتماء الديني أو المذهبي أو المرجعي وبين إدارة الدولة في أطرها التنفيذية والقضائية خاصة... وهنا انفتح الباب أمام قم ومرجعيتها الدينية الرسمية (الحكومية) لتخترق الحوزة النجفية بالمال والنفوذ والسياسة من خلال استتباع طهران لحزب الدعوة الحاكم من ضمن عملية التحشيد المذهبي العام في المنطقة... وعلى قوة مرجعية النجف، فإنّها تشكو ولو سراً من حصار شديد واختراق خطير، لا يحتاج المرء الخبير إلى بذل جهد كبير لاكتشافه، موثرة الاعتراض عليه، ولكن أهله في إيران وامتداداتهم في العراق يشعرون بقوة ذاتية وقوة إضافية تأتيهم من جهة التعبئة المذهبية، ولا يبالون بأي اعتراض.

مكتبة الفكر الجديد

التقرّب من السياسة على حساب الدين.

وكان هناك إلى جانب الحوزة مؤسستان ثقافيتان متصارعتان ولهما ثقل وتاريخ في النجف، هما جمعية الرابطة الأدبية التي يعود تأسيسها إلى الأربعينات، وقد فتحت مجالاً محدوداً للاتصال بأدباء عرب، وفيها خصم أدبي قوي لنا هو السيد مصطفى جمال الدين الذي وصفنا في قصيدة له بأننا لا نميز بين منقار البلبل ومنقار الغراب.

الشاعر السيد مصطفى جمال الدين.

المؤسسة الثانية هي جمعية منتدى النشر التي أخذت على عاتقها تطوير الدراسات الدينية خارج الأطر القديمة التي تبدأ بالمقدمات. تقيم هاتان المؤسستان مهرجانات شعرية يقرأ فيها شعراء عموديون يمثلون في الغالب الاتجاه التقليدي ويستبعد منها الشباب. ومع المؤسستين تصدر مجلات ثقافية دورية مثل (الإيمان، النجف، الأضواء والمعارف) لم يكن

مكتبة الفكر الجديد

لنا حضور فيها، و لم نرد هذا الحضور لأننا وجدنا مجالاً في الصفحات الأدبية التي يسيطر عليها مجايلونا في بغداد.

كنا نرى هذه المؤسسات قديمة وبالية لذلك فضلنا اللقاء في المقاهي حيث يغيب المنبر ويتساوى الجالسون في الموقع والجدل. في المقهى توسّعت حلقتنا بين مؤيدين ومعترضين ومترددين، فقد توسعت الدائرة بدخول الشاعر عبد الإله الصايغ وغازي زاهد ورزاق أبو الطين وكاظم القابجي والفيترجي مكي زبيبه. وفي مكان وسط بيننا وبين العموديين الدكتور محمود عباس البستاني الذي يخلط العطور وييعها في زاوية ضيقة من السوق الكبير. كان أقل العموديين حماساً للعمود، يفضل همس القصيدة لحلقة ضيقة من المستمعين على قراتها من المنبر، لذلك خلت قصيدته من النبرة العالية وفضل الموضوع الذاتي على قصيدة المناسبة. معنا قرأ السياب وحاوي ونازك وبعض الشعر المترجم، لكن روحه المحافظة دفعته لتغليف أحاسيسه الداخلية برموز صوفية مبهمة. نلتقي في دكانه الضيق في السوق الكبير، وبينما يبيع العطور المباركة للزوار يجادلنا معانداً القصيدة الحرة ومقترباً منها في نفس الوقت.

رحنا نبحث عن منبر أكثر حداثة فأصدرنا مجلة (الكلمة) واخترنا شعارها (تهتم بالأدب الحديث ولا تلتزم به تعبيراً بالضرورة). صدر العدد الأول من المجلة عام ١٩٦٧، وتوقفت عام ١٩٧٤ حين بدأ البعث هيمنته على الحياة الثقافية بعد المؤتمر القطري السابع. بأعدادها التي تجاوزت الثلاثين صارت المجلة منبرا للجيل الستيني في العراق عموماً، وكانت أول من تبنى قصيدة النثر في عدد خاص. حميد المطبعي الذي يدير مع إخوته مطبعة الغري في النجف كان لولب المجلة. حماسته للمجلة وطموحه بلا حدود. مرة طلب مني أن أكتب رسالة إلى (كولن).

– أي كولن؟ سألته.

مكتبة الفكر الجديد

– كولن، كولن (قالها ببداهة كأنه يتحدث عن بائع دهين في السوق الكبير) أقصد كولن ولسون.

لا يكل حميد من مراسلة الأدباء مهما كبر شأنهم، وهو الذي يجمع المواد ويصف حروفها ويحمل لنا العدد الجديد إلى المقهى كما المعجزة. خلال دراستي في كلية اللغات كنت أجمع مساهمات مجايلينا في بغداد للمجلة الشهرية التي صارت سجلاً لأدب هذا الجيل.

كانت قيسرية الكتب في مدخل الحويش على مسافة خطوات منا، لكننا تجاهلنا كتبها ذات الأغلفة الجلدية السوداء واتجهنا نحو مكتبة محمد الحلو في مدخل السوق الكبير من جهة الميدان، حيث تصل باطراد المجلات والكتب الجديدة القادمة من بغداد وبيروت والقاهرة. كتب سارتر وكامو وكولن ولسون وأدونيس والماغوط والسياب.

لم نكن حائرين بين العلمانية والتدين كما هو الأمر مع جيل محمود أحمد السيد والزهاوي الذي عبّر بـ (ثورته في الجحيم)عن هذه الحيرة:

ثم آمنت ثم ألحدت حتى
قيل هذا مذبذب ممرور
ثم إني في الوقت هذا لخوفي
لست أدري ماذا اعتقادي الأخير[٢٥]

لم نعانِ هذه الحيرة فقد حسمنا مع أنفسنا دون أن ندري متى تم ذلك «إننا علمانيون!» وقد سهل لنا هذا الحسم جيل سبقنا من المثقفين، أغلبهم جاء من صلب العوائل الدينية مثل الخليلي والجواهري والدجيلي وفرج الله والصافي. لم تكن علمانيتنا عقائدية، ولا تستند إلى مشروع علماني، إنما تحمل طابع رد فعل على المختلف الديني الذي صار شبه متفرغ لنا لأننا مفوضو الحداثة الذين يريدون تبديد الموروث.

(٢٥) ديوان الزهاوي ص ٧١٩.

مكتبة الفكر الجديد

العامليان هاني وحسن، اللذان شاركا شعراً ونثراً في أول أعداد المجلة، فتحا موضوع الإيمان مرة أو مرتين في أحاديثنا الليلية على حافة الصحراء، ثم اكتشف السيدان بأننا مصابون بمرض لا شفاء منه، هو نسيان الوجود.. هذا الانسجام شبه المستحيل الذي يحكم حركة الكون ومافيه من معجزات كبيرة مثل حركة الفلك ودوران الكواكب والتناغم بين الأرض والبحار نزولاً إلى المعجزات الصغيرة عالم الحشرات تحت الأرض.. في تعارض، في تكامل وتعارض. من الذي يوجه كل هذا الكون بصغائره وكبائره؟ طرح السؤال الكبير مرة، وربما مرتين، ثم كف السيدان عن فتح الموضوع حتى ولو من باب واجبات المؤمن. بقيا يتحدثان عن إيمانهما كمبعث سعادة وإلهام يخصهما وحدهما، والأمر متروك لنا أن نجرب عذوبة هذه الخمرة. أعطيا الأولوية للتواصل الإبداعي والنقدي وإدارة الأسئلة من دون تورط في الأجوبة النهائية، وإدارة الاختلاف المعرفي بجدية تسهم في تعزيز الشراكة في إنتاج المعرفة.

رجال الدين الأدنى ثقافة استبدلوا بالسخط هذا الأسف الحزين علينا لأن شيطاناً معدياً يتقلب بين صفحات كتبنا وينشر رجسه حولنا. كانوا يعتبروننا لقطاء فقدنا جذورنا بعد أن مسنا مرض الغرب الكافر، وأخطر ما فينا ان مرضنا هذا معد لشبان بعمرنا.

في المساء كنا نجتمع في مقهى رسول ناجي في حي السعد نناقش ما قرأناه البارحة ونسمع في نفس الوقت خطيب الجامع القريب وهو يحذر الناس منا:

– بعد أن تخلصنا من الشيوعيين والبعثيين الكفرة، جاءنا هذه الأيام الوجوديون الزنادقة الذين يحللون اللواط وتعاطي المخدرات ويشككون في الخالق والدين.

مكتبة الفكر الجديد

لم يكتف المحافظون بمحاربتنا من خلال منابر الجوامع، إنما صاروا يحرضون علينا العامة الذي يوشوشون في آذان أصحاب المقاهي:

– اطردوهم حفاظا على سمعة مقاهيكم.

كانت علمانيتنا تلقائية. لم نكن نزدري الدين، كما فعل البعض لأن ثقافتنا الدينية كانت موجودة في داخلنا ولا تتطلب مرجعاً استشارياً، ولأننا احترمنا آباءنا وأجدادنا الذين أفنوا حياتهم في خدمته حتى وإن أخفقوا في إقناعنا بأن نتبع سبيلهم. كنا نحتقر المتاجرين بالدين الذين يغرقون الناس بالشعوذات الدينية حتى لو كانوا آباءنا وإخوتنا.

لكوننا علمانيين في مدينة دينية ومثقفين في بيئة يسودها جهل العامة وطليعيين في مدينة محافظة، كان النقد، وغالباً بعدائية، يشكل جزءاً من وجداننا وموقفنا الأخلاقي من المجتمع ومن نظام الفضائل والرذائل المفروض على المجتمع. إحساسنا كان مزدوجاً: تفوق معرفي واختلاف أخلاقي عن المجتمع، وفي نفس الوقت عجز عن التغيير لأننا أساساً مهزومون. هذا الشعور بالعجز يزيد من غربتنا المزمنة عن المدينة والعالم المحيط.

ونحن جالسون في المقهى المطلّ على الميدان ودورة الصحن يمر أمامنا في الشارع (أهل الصيحة) من راكبي الدراجات الذين ينتظرون الجنائز الآتية من شمال المدينة، يمر الزوار الآتون من كل بقاع الأرض للتبرك بضريح الإمام علي، عيونهم تتعدانا لأنها شاخصة نحو المنائر الذهبية التي أخذت كل حواسهم، تتنقل عيوننا بين خادم العتبة الذي يقود الخروف من قرنيه وبين الفلاح الهزيل الذي نذر الخروف للإمام إذا شفي من أمراضه المستديمة، يتحاشانا معممون شباب يدرسون في المدارس الدينية على أمل أن يصبحوا مجتهدين في كهولتهم، يتحاشون الجدل معنا ليحافظوا على نقاوة إيمانهم ... كنا غرباء عن كل ذلك

مكتبة الفكر الجديد

و لم يكن ما نراه موضوعنا. لم نكن نأبه بالعامة وحكاياتهم، كما جيل القصاصين الذين سبقونا، و لم نرد بقصائدنا أن نوصل رسالة إصلاحية كما هو شأن الجواهري والخليلي ومرتضى فرج الله واليعقوبي. على العكس زرعت الهزائم السياسية فينا إحساساً بأن الجمهور لنا مجرد كتلة صماء بعيدة عنا. نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا قارئ المنبر يقول لمئات الجالسين تحت منبره بأن العباس قتل عشرين ألفاً من جيش يزيد وهو مقطوع اليد. لا ينهض من بين الجمهور واحد يشبه ماريو في رواية توماس مان (ماريو والساحر) ليقول للقارئ «هذا مستحيل!» حتى لو اعترض سيجيبه القارئ «جبريل كان معه»، لذلك لم نجد جدوى في مخاطبة هذا الجمهور. و لم نتوقف يوماً عند السؤال الحسابي: كم عدد الذين يقرأونا؟ وكم منهم يفهمون ما نكتب؟

في قصصنا يبدو الجمهور كتلة عدائية تحاصر ذات الفرد وعزلته، وكانت ذاتنا هي الموضوع والمخاطب. كنا غرباء في مدينتنا، غرباء في أحاديثنا عن جدوى الوجود وعن ماهية الغثيان الذي عاناه بطل سارتر أنطوان روكنتان، ونناقش السبب الذي دفع غريب كامو لان يقتل جزائرياً، ونتساءل كيف يدفع الضجر شخصاً لأن يقتل آخر؟ شغلتنا أسئلة إيفان كامازوف للمسيح عن الله «هل هو وجود أم حاجة؟» بفضول وحماسة نتابع غرائب ما أنتجته الحركة السريالية. وقد وجدنا في تناقضات المدينة وعجائبها الكثير من مظاهر السريالية، ونسبنا إلى السرياليين الشاعر الشعبي حسين قسام النجفي وديوانه قيطان الكلام، وقد تصدرت طبعته الرثة صورة الشاعر حاملاً ابنه:

شوفني كاعد على الكرسي وقر
بحضني إبني كاعد وينظم شعر
إبني للدنيه إجه كبلي بسنه

مكتبة الفكر الجديد

لا تشوفه زغير من تعاينه ...

يسحر الطابوك ويطلعه صفر

ويسحر البزون ويسويه نمر ...

ورغم أننا كنا نفاخر بأننا جيل نغل ليس لنا آباء إلا إننا لم نكن منقطعين عن جيل المتمردين الذين سبقونا، فقد كان أدباء النجف المتفتحون ينصحون الشباب بقراءة نثر الأدباء المصريين وشعر المهجر (قراءة متصلة ومستديمة) على حد تعبير جعفر الخليلي. ففتحوا للشعر مجالاً خارج مناسبات الأعراس والوفيات والولادات التي تخصص فيها (نظامون) يتصيدون هذه المناسبات للحصول على مكافآت مالية أو مجرد نوع من الوجاهة.

بيننا وبين النظامين من شعراء المناسبات رعيل وسط أراد أن يتقدم نحو الحداثة موضوعاً ولكن بنفس الأداة القديمة، وهي العمود، خاصة بعد أن عرف الشاعر النجفي المنبر ودوره في التأثير في الجمهور. لم نفتقر لمساندة بعض شعراء الجيل الأول، مثل الشيوعي مرتضى فرج الله[٢٦] الذي كان يشجعنا بحماسة لتحريك الجو الراكد، ولكنه يعترض على غموض كتاباتنا وبُعدها عن الجماهير.

في ندوة الأدب المعاصر التي كنا نقيمها بين فترة وأخرى لتحريك الجو الثقافي شن موسى كريدي هجوماً شديداً على الشعر النجفي التقليدي» بما فيه من تشطير وتخميس ومديح ورثاء ومساجلة ومحسنات بديعية وزخارف، واتهم الشاعر النجفي بالخواء والإفلاس الروحي. هذه الاتهامات مست جيلاً من الشعراء المنبريين ومريديهم

(٢٦) مرتضى فرج الله شاعر نجفي من مواليد ١٩١٢، ارتبط بالحزب الشيوعي وهو شاب يافع وشارك في مؤتمر الحزب سنة ١٩٤٥، واعتقل مع السياب في سجن أبو غريب وشارك في النقاشات الأدبية في المقاهي وفي الرابطة الأدبية.

مكتبة الفكر الجديد

الذين يرافقونهم حيثما ذهبوا ليستعيدوهم «أحسنت مولانا، أعد!» من جانبي اتهمت الشعراء النجفيين بالانقطاع عن الزمن وموجات الحداثة العالمية وعن أحداث العالم الكبرى وقلت بأننا لا نختلف في قضية الوزن والتفعيلة فقط إنما في فهمنا لعلاقة الأدب بالوجود.

من كل شعراء المدينة وكتّابها الذين سبقونا كنا نعترف بقلة، منهم: الشرقي والحبوبي، والشبيبي، ولكن الجواهري كان أقربهم إلى الحداثة بتركيزه على الصورة ووصف الطبيعة واستخدامها كرمز. مع ذلك وجدنا أن العمود الشعري بتاريخه الذي يمتد إلى أكثر من ١٤٠٠ عام، شكّل عائقاً جدياً أمام تطور الشعر.

مثل الذين سبقونا حرنا في تعريف الشعر والشاعر. سخرنا من تعريف نظامي المناسبات للشعر كونه الكلام الموزون والمقفى، ورحنا نقلب تعاريف المجددين الذين سبقونا للشاعر بأنه ذو شعور مرهف يتحسس الحياة أكثر من غيره أو الذي يجيد فهم الحياة ويحسن التعبير عن خوالج النفس. وبينهم عباس شبر:

أفضل الشعر ما تحدر عفواً

وهو ريان من نمير الشعور

لقد وجدنا العالم أكثر غموضاً وأعسر على الفهم، كذلك اللغة التي تعبّر عنه وعن الأحاسيس الداخلية للشاعر، ولذلك لم نجد ضيراً في اتهام الشاعر هاشم الطالقاني لنا بأننا نكتب ما لا نفهمه نحن أنفسنا. بيننا وبين جيل النظامين، وحتى المجددين في الشعر العمودي، مجموعة حائرة بين الاثنين، تستمع لنا بانتباه وتبدي رغبة مرتبكة في تنشيط وتجديد الجو الثقافي في المدينة، لكنها تخاف الانفصال عن هيمنة العمود وعن الآباء الثقافيين، خائفة من تطرفنا وحدتنا في النقاش.

قصصياً اختفت البيئة المحلية وشخوصها الفعليون من قصصنا، وما

مكتبة الفكر الجديد

عدنا حريصين كما فعل جعفر الخليلي على توثيق ناس المدينة وعتباتها المقدسة. صار المكان افتراضياً أو مغرباً، هو أية مدينة وأي شارع، وصار الزمان مطلقاً خارج التاريخ المحدد، وكذلك الشخص الذي يتحرك فيهما ويحدث نفسه. صرنا نتوغل أكثر في ذواتنا الأكثر التباساً وغموضاً. كنت أرى الركام البشري في خان الهنود وفكرت أن أقوم بمغامرة شبيهة بمغامرة جعفر الخليلي في السجن، أن أنام فيه بضعة أيام لأكتب على غرار غوركي (مخلوقات كانت رجالاً) رواية عن عدمية الحياة تحت خط الفقر الأخير.

بعيداً عن الأحزاب والسياسة تابعنا في النصف الثاني من الستينات تطورات ثورة الشباب في فرنسا وحركات الكفاح المسلح في فيتنام وأمريكا اللاتينية وتصدرت صورة غيفارا بكاسكيتته ونجمته الخماسية غلاف العدد السادس من مجلة الكلمة وتحت صورته عبارة (حي في كل رصاصة).

بين سيول زوار عتبتها صارت النجف محجاً لأدباء الستينات وصار بيتنا مضافتهم. سركون بولص، فاضل العزاوي، عمران القيسي، صالح كاظم، سامي مهدي، حميد سعيد ... وكنا نحرص على أن نأخذهم لثلاثة معالم من مدينتنا: حضرة الأمام علي، المقهى الذي نجتمع فيه مساء، ومقبرة وادي السلام لنريهم كم أن الموت أليف وقريب منا... بعد رؤية المقبرة يحل عليهم ذهول وصمت لأنهم لم يتصوروا الموت بهذه الواقعية والاتساع بعد أن كان في ذهنهم تجريداً. ولكي نزيل منظر المقبرة الكئيب نأخذهم عصراً إلى ملتقى الفرات ببساتين الكوفة. يبدون إعجابهم بهذا اللقاء بين الماء والخضرة، ولكن بدمدمة وكلمات رتيبة، لأن مشهد المقبرة بامتداد قبورها تحت الشمس والغبار بقي عالقاً في مخيلتهم.. الموت حقيقي وليس مجرد تجريد شعري!

مكتبة الفكر الجديد

المدينة الأخرى

عدتُ لمدينتي النجف بعد أكثر من ثلاثين عاماً، وجلاً من ثلاثة مخاوف بانتظاري: النسيان واللوم والموت. لن يعرفني الناس في المدينة بعد هذا الغياب، فقد هجر المدينة أبناؤها القدامى إلى بغداد، مغادرين مدينة الكلام إلى مدينة النقود، وسيلومني الباقون لأنني تركتهم في أيام الفجيعة وأعود متأخراً حين لم يبق غير الرماد والجنائز.

أمطّ عنقي وقد تجاوزت الكوفة مثل (زاير) ملهوف لرؤية لمعة القباب الذهبية فيمسح وجهه متبركاً بمرآها، لكن بيني وبين المنائر والقباب سلسلة من الأنصاب والجداريات للقادة الجدد المعممين. تفتت الأنصاب الجديدة لهفتي وفضولي إلى المركز المقدس. سلطة المقدس الروحية اختفت وراء سلطات الأحزاب التي توزعت في أرجاء المدينة.

تقاربت بيوت النجف مع بيوت الكوفة إيذانا بقرب القيامة كما تقول الأسطورة، ومع ذلك يسير الناس غير مبالين، فالقيامة وسط سيل الموتى ممر الآن وفي كل يوم، جنازة كل دقيقتين. قتلى لا أسماء لهم. إنهم مجهولو الحروب والمقابر الجماعية.

لم أجد المدينة التي أعرفها، و لم أجد، كما أردت، أهلاً في استقبالي، لذلك اتخذت من فندق الغرباء نزلاً، و لم يلمني أحد على أني فعلت ذلك، حتى ابن عمي الذي تعرفت عليه صدفة، لم يلمني على السكن في فندق، فالمدينة صارت بكاملها نزلاً للغرباء بعد أن غادرها أهلها.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أسرح بنظري إلى المدينة تائهاً بين رغبتين:

الرغبة في أن أرى المدينة كواقع لأفنّد أوهامي وتخيلاتي عنها.

ورغبة معاكسة لأن أبدد الحاضر وأرى من المدينة ما يعزز ذكرياتي عنها.

وبين الرغبتين أتيه بين الحاضر والماضي والواقعي والمتخيل. أتجول في ذاكرتي وأنا أتجول في المدينة، وأصفها زقاقا بعد زقاق وبيتا بعد بيت، ثم أدخل المدينة لأرى أن كانت موجودة أم لا. لنفسي أخطط .تفاصيلها ووجوه ناسها مباشرة، وليس من ذكرياتي أو ذكريات ذكرياتي، لكن لا تأتي الأشياء كما أريد، فالمدينة تنسحب لنفسها عني إلى شكلها وزمانها الحاضر وناسها الجدد. ولن نجد، أنا والمدينة، في هذه العجالة، ذاكرة مشتركة، وإذا وجدناها فستكون منفصلة عنّا نحن الاثنين. أنا غارق في وهم زماني والمدينة تشاكسني بشكلها وزمانها الحاضرين وناسها الجدد.

بحثت بين البزازين عن وجوه أعرفها، من باعة الأقمشة ومن البيوت النجفية الشهيرة، مثل بيت عجينه أو بيت المظفر، وسألت دكاناً عنهم فهزّ البائع رأسه نافياً وأشاح عني للزبون. بحثت عن مكتبة الحلو التي كنت في طفولتي أحرص على الوصول إليها في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح كل خميس، موعد وصول مجلة سمير. ثم حين كبرت صرت زبونها الدائم لمجلة الهلال وسلسلة كتابي... لا أجد – وأنا أعيد تكوين المدينة الحاضرة وفق ذاكرتي جسراً يربط المدينتين؛ فلم أكن هنا طوال ثلاثين عاماً لأتابع التغير حجراً حجراً، ولذلك بدت القطيعة مثل فجوة رمادية غامضة. كنت أسير كما المنقب يرى آثار الماضي تحت المدن الحاضرة. درت حول الصحن نصف دورة باحثاً عن محلتي القديمة (العمارة). أضبط خطواتي لأني سأمر بين أناس

مكتبة الفكر الجديد

كانوا يروونني كل يوم آتٍ من بيتنا، ذاهباً إليه. وأنا أدخل السوق وأسير في زحمته معاكساً اتجاه الناس. أنظر إلى الوجوه، كل وجه يحيلني إلى شخص رأيته في صباي البعيد.

رأيت هذا الوجه أين، أمن الممكن أن يكون...؟

وجوه تأتيني من زمان بعيد. تتوقف لحظات:

– أنت زهير أعرفك من التلفزيون. إحزر من أنا؟

– ....؟

– جواد الجد، زميلك في الصف الرابع الابتدائي.

أعيد الوجه المجلل بشعر شائب إلى طفولته، وأعود معه إلى الصف الثالث من رحلات الصف وألبسه بدلة الكشافة ليكون أمامي بخطوة في الطابور.

وجوه أخرى تتوقف أمامي في السوق، تريد مني التعرف بها، كأن التعرف يخرجها من قبور النسيان إلى ضوء الذاكرة:

– ....

– أنا جاركُم فلاح. شقيقي سالم كان صديقك.

– .....

– أنا ابن عمك أيمن!

أسير وأشعر بأن العيون تأخذني إلى ذاكرة تداخلت فيها الوجوه والأزمنة. أركز على ما هو ثابت في المدينة مثل منائرها الذهبية لأنني خائف من زحمة الوجوه وهي تمتص ذاكرتي وتمتصني بعيونها. كل واحد يخرج من زمن بعيد، شبيهاً بواحد فقدته، إنني أيضاً بالنسبة لهم أشبه واحداً قديماً سقط كلياً من ذاكرتهم وربما من الحياة، لذلك يقلص القصّاب عينيه ويهم بالنهوض وهو يحدق بي:

مكتبة الفكر الجديد

– أليس هذا زهير ابن علي الجزائري، أم أنه واحد من موتاهم؟ أعرف هذا الدم!

سيحدقون ملياً بهذا العابر التائه، الرمادي الشعر، ويحركون ذاكرتهم عبر أكثر من عقدين «وجهه أليف .. يا رب أعن ذاكرتي! أليس هذا زهير؟! لكم يشبه رأس والده!!».

في فندق بمجمع زمزم أطلب الإقامة في غرفة خلفية تطل على محلتي القديمة، وقد احتل الفندق نفسه مدخلها القديم. أضع حقيبتي بعد أن أغلقت باب الغرفة لأنفرد مع أوهامي. أضع كرسياً مقابل النافذة ثم أنفي الحاضر لأرى بعين ذاكرتي. أنتظر أن تتشكل المحلة أمام عيني كما عرفتها تماماً. تتداخل المدن وتختلط الأسماء فأزيحها تباعاً وأترسم خارطة قديمة تحت الركام تبدأ من مدخل سوق العمارة ومقهى على يساره... لا أرى شيوخ البو كلل بشواربهم الكثة، ولا قاسم الحلاق، الشيوعي الستاليني ولا لفتة البغدادي، النظيف، النحيل الطويل. مع طيران علوان عن حياتنا الحاضرة طارت المحلة كلها من الوجود كأن كل حياتي في تلك الأزقة، التي أستطيع أن أقطعها مغمضاً عينيّ وأحفظ البيوت وناسها بيتاً بيتاً وفرداً فرداً، لم تكن إلا وهماً..

المسافة بين باب الصحن وأول دكاكين سوق العمارة مفتوحة وخالية حتى بحر الملح. لقد أزالها النظام كلها بالجرافات بعد انتفاضة ١٩٩١. عجبت وأنا أرى مساحة المحلة كيف يمكن لعيني أن تحتويا أطرافها بهذه السهولة وقد بدت لي حينها عالماً كاملاً. معقول أن تكون المحلة بكل أزقتها ودهاليزها وبيوتها وشخصياتها العجيبة بهذا الضيق! من وراء المساحة الضيقة هذه تنخفض الأرض فجأة إلى هاوية ثم يصعد من بعيد غبار بنفسجي كأنه الشواش الذي يسبق الخليقة. هذه هي النهاية. لم تعد هناك محلتك ولا الزقاق الذي ذرعته حافياً ولا البيت المائل الذي يقطع امتداده.

مكتبة الفكر الجديد

بعد ثلاثين عاماً ذهبت مع أخي صبيح من باب الطوسي لأرى بيت جدي. طلبت من صبيح أن يتركني لأحدد طريقي بنفسي اعتماداً على ذاكرة تحفر الحاضر لتوصل إلى خرائب الماضي. حددت اتجاه البيت اعتماداً على الخربة القديمة التي تحولت فندقاً، وقطعت نفس الزقاق الذي تحف به من الجانبين القباب الزرق ومقابر آل الجواهري وبحر العلوم وكاشف الغطاء، المزينة بالقاشاني الأزرق. قطعته متتبعاً خطوات الصبي الآتي من بيتهم في العمارة إلى بيت جده في المشراق. نخرج من شارع الطوسي ونستدير باتجاه القباب الزرق ونتوهم الزقاق الضيق الذي أزاحته البلدوزرات بعد أن اشترى رجال السلطة الجديدة بيوته بالجملة ليحولوها إلى فنادق للغرباء. من دون ناسها تحولت البيوت إلى أنصاب لذاكرة لم يعد هناك ما يسند وجودها القديم. الجرافات قطعت الأزقة فانكشفت دواخل البيوت وعوراتها. ما عادت الأعمدة تحمل السقوف فوقفت حائرة مثل علامات التعجب، والسلالم مبتورة لا تفضي إلى شيء، يكمل الفراغ درجاتها الوهمية، والأبواب لا تقودنا إلى الغرف الآمنة، إنما إلى هاويات... تاهت البيوت وأذلت دون أهلها الساترين عليها، وتاه أهلها بعد أن تركوها.

توقعت أن أرى خصومي واقفين عند انعطافة الزقاق أو على عتبات بيوتهم بنفس الطريقة المستعدة للعراك وتلمست على ظهري عيونهم تتابع خطواتي بتحد. لكن الأزقة كانت خالية تماماً والطريق سالكة. درنا حول مساحة صبت حديثا بالكونكريت ووقفنا معاً لنسترجع اتجاهنا الأول:

وقفت في ظل جدار قديم لأستريح من ثقل ذاكرتي، بينما استدار صبيح دورة كاملة تحت الشمس كمن يبحث عن ظله.

– هذا إذن جامع الجواهري (نصف دورة ثم مد يديه أمامه) من هنا يفترض أن يكون بيت جدي...؟

مكتبة الفكر الجديد

بانتظار أن يلتقط خارطة الماضي دخت من تداخل الاتجاهات وتشابك الأزمنة، دخت من تداخل وجودي الحاضر وذاك المتوهم وأوشكت أن أقول «لنرجعا» ثم سمعت صوت صبيح المتردد:

– أظن أن هذا الفندق هو براني البيت....

لم يكن هو نفس البيت الذي تسكنه عانسان. حين وصلنا البيت تأكدنا من الباب الحائل اللون، من الخشب المعتق، ومن مطرقة أخذت شكل عنزة. رفعت المطرقة على مهل وأنا أتساءل: أي الأزمنة سيتحرك وأي من أشباح الماضي سيجيب:

– منووو؟

– أنا زهير.

– زهير! إي زهير؟

كان الأصوات تأتيني من بئر عميقة، وأنا ألعب فوازير الكلام مع أشباح الماضي.

اقتربت الأصوات ثم غارت ثانية إلى حفرة الماضي:

– ولج هذا زهير ابن أميرة!

كلام الجن المسحور فعل فعله فانفتحت مزاليج الماضي عن أربع عيون وسط الضوء الرمادي للدهليز. دخلت البيت والعيون الأربع تتابعني بفزع وتساؤل: «ما الذي جاء به بعد كل هذه السنوات؟ هل جاء ليسترد ملكاً أم ليطالب بحصة في البيت؟».

شعرت بالارتباك أمام هذه العيون التي تقيسني طولاً وعرضاً. جلست على تخت في باحة البيت فتكشفت العباءات قليلاً عن وجوه العوانس القاسية المشعرة. أردت أن أكسر الفزع بالود فحاولت أن أحزر أياً منهما كانت أقرب إلي:

مكتبة الفكر الجديد

– من منكما كانت تفليني غصباً عني وتهدئني بقصة السعلاة التي خرجت للخاتون من البئر؟

تفحصت باحة البيت ورحت أحزر هندسة الغرف التحتانية والفوقانية وكان الماضي موضوع حديثي، لكن الأختين قفزتا إلى الحاضر فشكت كبراهما أن الذي اشترى البيت الكبير أخذ، وهو يعيد تعميره، جزءاً من البراني الذي تسكنانه، وأخذتني الثانية لتريني ما فعله القتال الأخير بين الأمريكان وجيش المهدي بإحدى غرف البيت، فقد ثقبت واحدة من القذائف السقف وشقت الجدران واستقرت بزعانفها وسط الغرفة.

– لم نحصل على التعويض الذي وعدتنا به الحكومة.

سألتها عن أخوها عادل وأين هو من المشكلة فقالت بأنه لم يمر بهما منذ فترة طويلة.

لا أحد يدافع إذن عن العانسين ولا أحد يكسر الرتابة القاتلة لحياتهما في هذا البيت الذي يشبه البئر. لقد خلقت لهما زيارتنا هذه قصة ستتحدثان عنها سنوات.

شعرت تماماً بعدمية الحياة وأنا أغادر البيت دون أن ألتفت خلفي، وحين أغلق الباب ورائي قلت: لن يفتح هذا الباب لسنوات طويلة قادمة لزائر آخر، ولن يتذكرهما أحد وهما تجفان هنا من الوحدة والرتابة.

فكرت «كم حلمت كل واحدة منهما بالحب والزوج والأطفال، وكم انتظرت كل واحدة من يخرجها من بئر الوحدة؟» ولكنهما بقيتا تنتظران، وهما تطرزان حواف العباءات السود، نفذه نفذه، حتى جفتا وجف زمنهما.

***

مكتبة الفكر الجديد

من الصحن اتجهنا نحو المقبرة وقد لفحتنا ريح حارة متربة.

سألت مدير مكتب التسجيل في مدخل المقبرة عن معدل تدفق الجنائز فرفع رأسه عن دفتر الموت ونظر إلى ساعته:

– الساعة الآن هي الواحدة، وعادة يخف التدفق في عز الحر، مع ذلك وصلتنا حتى الآن مئة واثنان وتسعون جنازة ونتوقع أن يصل العدد إلى أربعمئة في نهاية اليوم.

– هل هذا المعدل طبيعي؟

– في الأيام العادية يقل المعدل عن ستين جنازة يومياً. لكن المقابر الجماعية فتحت ووجد الناس جثث المفقودين في الحروب ... لم يمت هؤلاء ميتة ربهم من طول عمر، أو مرض، إنما قتلوا جميعاً في ساحات الحروب أو ساحات الإعدام أو تحت التعذيب. بعد انقلاب المعادلة بدأ طلاب الثأر يقتلون قتلة أبنائهم في دورة القاتل والقتيل.

كما يعرف الحاكمون مدنهم وأهلها، يحفظ الدفان تفاصيل مملكته.. يحفظ عن ظهر قلب مواقع القبور وأسماء أهلها وتاريخ وفاتهم وكيف ماتوا. أسأل نفسي وأنا أسير خلفه «بماذا يحلم الدفان حين ينام؟ بالموتى، بهم أحياء؟ أم يطرد أموات النهار من أحلام الليل؟» حين سألته عن قبور أهلي صفن قليلاً والتفت يميناً وسألني:

– لديهم ابن قتل في معارك ديزفول؟

– هؤلاء أهلي.

– تعـــــــال خلفي!

أسير خلف دليلي الدفان (جواد أبو صبيع) بخطوات، دانخاً من وشوشات الموتى وحر الظهيرة والشمس الحادة وغبرة الطرق. أرى الدفان أمامي يستحثني للسير خلفه في الطريق الترابي الضيق بين أفقين من القبور. في الدوار سمعت همسات الموتى ووشوشاتهم الخافتة

مكتبة الفكر الجديد

محمولة على ريح حارة ومتربة، سمعتها بالحدس والمنطق معاً. الهواء حولي مشحون بأصواتهم وأتحسس لمساتهم على قميصي وقد ردته الريح لصق جسدي المرتجف من هول المشهد. الموتى تحتي تماماً، تحت هذه القشرة الهشة من الأرض التي أدوسها، لذلك اتبعت نصيحة المعري، وقبله خوفي، فخففت الوطء عليهم، لكن المتنصتين تحتي يعرفوني من وقع خطواتي ومن أحاديثنا المرتجفة.

يستحثني الدفان لأسرع قليلاً فلديه يوم حافل:

– ثماني جنائز في طريقها إلى المقبرة.

مائلاً بكتفه قليلاً نحوي ويده ممدودة بارتخاء نحو القبور الجديدة إلى يمينه:

– هذه مقبرة المجهولين.

قالها عابراً ولما لاحظ استغرابي استدار نحوي:

–... وجدت جثامينهم في ساحات الحروب أو في المقابر الجماعية و لم يتعرف عليهم أحد...

ابتسم وهو يلاحظ ذهولي فخوراً باتساع مملكته:

– تزاحم الموتى وغلت كثيراً مساحات الأرض التي تتسع لميت واحد.

أنحني قليلاً وأجلس القرفصاء وقد لفتت انتباهي صورة شاب أعرفه. أعرف هاتين العينين الحادتين والشارب الدقيق والشعر الأجعد الكثيف. مسح الاسم من الشاهدة وبقيت عبارة (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). الدفان صحح فكرتي:

– ليس هذا من تظنه، إنه فلاح من سواعد العمارة راح في حرب العام ٨٦. كثير من السواعد وصلوا للوادي في هذا العام...

حرتُ وأنا أتابع مفرداته: أين يستعمل (راحوا) ومتى يستبدلها

مكتبة الفكر الجديد

بـ(وصلوا)؟ نادراً ما استخدم كلمات العزاء (رحمه الله) أو (أسكنه فسيح جناته).

قبل أن أصل إلى قبور أهلي رأيت قبور أناس أعرفهم .. أقارب وجيران كنت ألعب معهم في طفولتي، أراهم من وراء الغبار الذي تثيره السيارة يركضون حفاة في الزقاق.. زملاء في المدرسة أحفظ موقع رحلاتهم في الصف وأذكر نبرة صوتهم وهم يقرأون المحفوظات، رجال كنت أراهم كل يوم في السوق بين تلال الخضار الطازجة. ينادونني الان بالاسم: زهيييير زهيييير من دون أن يأتوا إليّ لأنهم واثقون من أنني سأجتاز غبار المقبرة وأصل إليهم.

هنا بدأت أصدق اعتقاد الفراعنة بعودة الأموات كما الشمس والقمر والفصول والرياح والنباتات. أخترق ظلالهم الحارسة (ألبا) كما يسميها الفراعنة، أخترقها وأحسّ تحت قميصي بلمستها الباردة وأنا أسير في هذه المقبرة الجرداء تحت شمس حارة.

مررنا بنساء ينتحبن بصوت عالٍ، متمسكات بالقبور، يخاطبن الأبناء الذي ماتوا قبل الآباء في الحروب.

واحدة منهن رأت الكاميرا معي فقالت وهي تمسح دموعها:

– صوروه! (مشيرة إلى قبر ابنها) كان، بطل حيلي عليه، يحب الصور. يقف مثل الزعيم أمام الكاميرا!

مزقت قلبي طفلة. ما سمعت في حياتي كلمة (بـــابـــا) تتردد بهذا الحب المشبع بالدموع.

الدفان مال قليلاً نحوي وقال لي دون أن يلتفت إلى الطفلة:

– كانت مهجّرة إلى إيران وهي تبكي والدها الذي لم تره أبداً.

يسمع الموتى تحت نحيب النائحين عليهم ويستغربون من غباء

مكتبة الفكر الجديد

الأحياء «لمَ كل هذا النحيب والضجيج؟ لمَ ينوحون على ما هو أكثر حقيقة منَ الحياة؟ ما الفاجع في الموت إذا كانت الحياة، كما ترينا هذه المقبرة، مجرد صدفة!»

في النهاية وصلت مقبرة أهلي: غرفة بنيت على عجل لتضم الأربعة. خلعت أبواب المقبرة الحديدية، كأن الأربعة ضاقوا بالجو الخانق تحت وخرجوا للحياة. خرج والدي ليزبر أغصان حديقته التي أكلها الإهمال في غيابه، وعادت أمي لماكنة الخياطة وهي ترفع رأسها بين آونة وأخرى لتكشف أسرارنا، وذهبت إكرام إلى السوق تتصفح البضائع بحسب رغبات بناتها، وحمل ثائر كتبه ليتفقد زملاء الجامعة بعد أن تركهم إلى الخنادق، ومنهم المرأة التي أحبها.

وقفت أتفحص الشواهد الأربعة التي تدل عليهم. اصطف الأربعة حسب تواريخ الرحيل. حين أعيدهم إلى موقعهم في صورة العائلة يقع ثائر وإكرام في الركن القصي الأسفل من الصورة، مع الأصغر سناً، أمي وأبي وقفا في الوسط من الصف الثاني. الجميع يبتسمون من سعادتهم الراهنة كونهم جميعاً هنا في الصورة لا يعرفون الذي حدث بعد ذلك خارج الإطار. عما قليل سيدخل الأربعة من الباب الحديدي وسيشهقون من الدهشة: زهيييير. عدت؟!

***

خارج خارطتي المتخيلة كنت أرى مدينة أخرى تماماً.

مكانياً أزيحت بيوت المدينة القديمة عن مركزها الصحن وترك التوسع بين الاثنين مساحات فارغة متروكة لمستثمرين لا تهمهم هوية المدينة، ومن الجهة الأخرى فقد طوقت المدينة التي أعرفها بأحياء جديدة أعطاها البعث أسماء من قاموسه (حي البعث، القدس، القائد، أم المعارك ...).

مكتبة الفكر الجديد

بشرياً غادر المدينة سكانها الأصليون واخترقت بشرائح هامشية مهاجرة شكلت قاعدة للسلطة الجديدة وأحزابها. وفي الواجهات صور القادة الجدد وقد وضعوا صورة المرقد ديكوراً خلفياً. بتراكمها وتواترها تريد هذه الصور أن تلغي التاريخ من ذاكرتي لتفرض حضوراً جديداً «نحن هنا، وأنت طارئ»!

رغم الشوارع الجديدة التي قطعت أوصال المدينة، بقيت المدينة تحتفظ برموزها الأساسية، وهي ضريح الإمام علي والمقبرة.

محلة الحويش كانت وما زالت غريبة عنّي. أعرف منها مدخلها من (الطمة)[٢٧] حيث كان باقر، الذي ندلعه باسم (بقوري)، يبيع الباقلاء و(مذهبها: أي الخل والبطنج)، ومعهما طبعاً الذباب المسلوق الذي كان يتكسر بين أسناننا.

تتجاور البيوت هنا كأنها تحمي بعضها من قسوة الطبيعة وخطورة الغرباء. هناك توافق في المعمار كأن كل بيت يكمل الآخر في هذه الوحدة المعمارية التي تشمل المدينة. كيف تم ذلك ومن هو المهندس الذي وضع خطة المدينة وكل وحدة فيها؟

قبيل صلاة المغرب عدنا إلى الصحن يسبقنا حشد من المعممين وحراسهم المسلحون تدليلاً على سلطة فعلية بعد أن كانت سلطتهم روحية. لا أدري لماذا تذكرت رواية أهلي عن السيد أبو الحسن الذي ذبح ابنه وهو إلى جواره في الصلاة، مع ذلك استمر راكعاً على سجادة لطخها الدم. لم يكن لديه من يحميه غير الرب الذي تتجه إليه الصلاة. سرنا متجهين نحو القباب الذهبية، وكما في طفولتي كنا نبتعد ثم نعود إليها.

---

(٢٧) التراب المتراكم من الإعمار الذي يشكل مرتفعاً بسيطاً من الأرض.

مكتبة الفكر الجديد

في ساعة محددة يعرفها الجميع بغريزتهم، خرج الرجال من أبواب بيوتهم تاركين النساء في حماية البيوت، خرجوا متجهين إلى الصحن إقراراً بالبديهة التاريخية بأنه المركز الرمزي الذي تدور حوله بيوت المدينة وتتجه إليه. لا يكتفي الصحن وقبابه الذهبية بربط أرجاء المدينة الجديدة والقديمة، إنما يربط بثباته الماضي بالحاضر، تماماً كما النهر بفارق كونه من ضوء وذهب. خطوات الناس وهي تتجه من البيوت إلى الصحن تسير بألفة. الأزقة بدورها تحمل ناسها بثبات عارفة وقع خطواتهم واتجاهات سيرهم. ثمة حوار صامت بين الناس المارين وبين البيوت على جانبيهم لقد تشاركوا في صناعة تقاليدهم. عادات الناس هندست شكل مدينتهم واحتوت المدينة هذه العادات وحمتها وتكيفت لها.

في المدينة جزءان، جزء خالد وجزء زائل. الخالد يحاكيني بنوع من الاستنجاد، محاصراً بين بنايات الإسمنت. هنا سبعة أعمدة لها تيجان من أوراق الزيتون تحمل غرفاً متداعية تهدلت شرفتها المسيجة بقضبان على شكل حلازين وطغراءات. نوافذ تعلوها أقواس من أغصان متقابلة. هل عرف البنّاء وهو يزخرف الواجهات الرموز أم أنه أطاع المالك وهو يملي عليه الحكمة التي أراد أن يقولها للعابرين عبر العصور؟ لمن أراد أن يقول حكمته (الملك لله وحده)، لنفسه أم للعابرين كي لا يحسدوا؟ في أعلى إطار الباب رأس وعل ما يزال يحدق في العابرين بذاك الحذر الغريزي وقد علق في رقبته كيس. أعرف تماماً بأن فيه حبات حرمل وعفص تحوطاً من حسد الحاسدين. والناس هنا يحيلون كوارث الطبيعة والناس إلى الحسد، هذه الغريزة الشيطانية التي تناقض القناعة وتتمنى للآخرين الكوارث.

الزائل يحاصر الخالد بإسمنت لا زخارف ولا حكمة فيه. جدران ملساء ممسح من الناظر أية تصورات مسبقة. ستستفز العين باستنكار حين تصدمها بناية نغلة نبتت بلا أصل في هذا النسيج. ألوانها فاقعة

مكتبة الفكر الجديد

وكذلك معمارها الأملس الذي لا هوية له. عمارة لا ترى غير نفسها ولا تتشارك مع جيرانها، إنما تدفعهم بقسوة لتتشكل خارج النسيج العام وضده. في وجودها الوقح نوع من تأكيد سلطة غربية فاسدة في مواجهة التقاليد القديمة.

قبل الصحن أدخل قيسرية الكتب.. هنا كنت أرى كتباً للزمخشري والطبري والرازي، كتباً مخطوطة بالزعفران الذي استحال إلى لون بني محمر، بينما خطت الحواشي والهوامش بالدارْسين الذي أخذ لون الذهب. كل صفحة قطعة من جمال خطها وزخرفها تلاميذ مجدون انكبوا ليالَ بطولها ليزيدوا بالخط الجميل الحق وضوحاً. وأنا أتجول في هذه القيسرية حائراً بين رفوف الدكاكين وبين الكتب المفروشة على الأرض، بحثت عن كتاب بخط اليد.

سألني صاحب المكتبة:

– هل في بالك كتاب ما.. أمالي القالي مثلاً، أم أغاني أبي الفرج؟

– ليس في بالي كتاب محدد..أريد أي كتاب مزجت كلماته بالزعفران والدارسين.

أردت أن أستعيد تلك التعاويذ التي سحرتني في صباي وأنا أحشر نفسي داخل الدكان بين أكداس الكتب، لكن البائع وقف جانباً في حوار متهامس مع ابنه:

– لدي كتاب قديم لواحد من أبناء المدينة...!

قالها بابتسامة ساخرة وأخرج كتابي عن الفاشية من بين الرفوف.

نظرت للكتاب بطبعته المزورة «إنه كتابي». نظر البائع إلى وجهي:

– احتفظت بهذه النسخة أكثر من عشر سنوات ثم، حين رأيتك في التلفزيون، قلت لنفسي لا بد أن يزور مدينته .. هذه ستكون هديته.

مكتبة الفكر الجديد

سبقنا المصلين وصعدنا إلى سطح يطل عليهم. بقينا على السطح نتابع حركة الضوء على القباب الذهبية .. النور يغيّر ذاته من البياض الحار المغبر إلى الحليبي المشرب بصفرة الذهب، ثم تغيب الشمس ككيان بذاته لتنعكس فوق القباب، بعدها تتحدد كتلة النار بلون بنفسجي.. خلال تغيره يلغي النور موضوعه ويصبح موضوع نفسه، ومعه يتحوّل زوار الصحن إلى كائنات من نور ونار وذهب. من السطح كنا نراهم ولا يرونا، نراهم ولا نسمع أصواتهم، فقد غمرهم صوت المؤذن الذي يترجع بين الصحن والقباب دون أن يكون له مصدر، كأنه ينبثق من

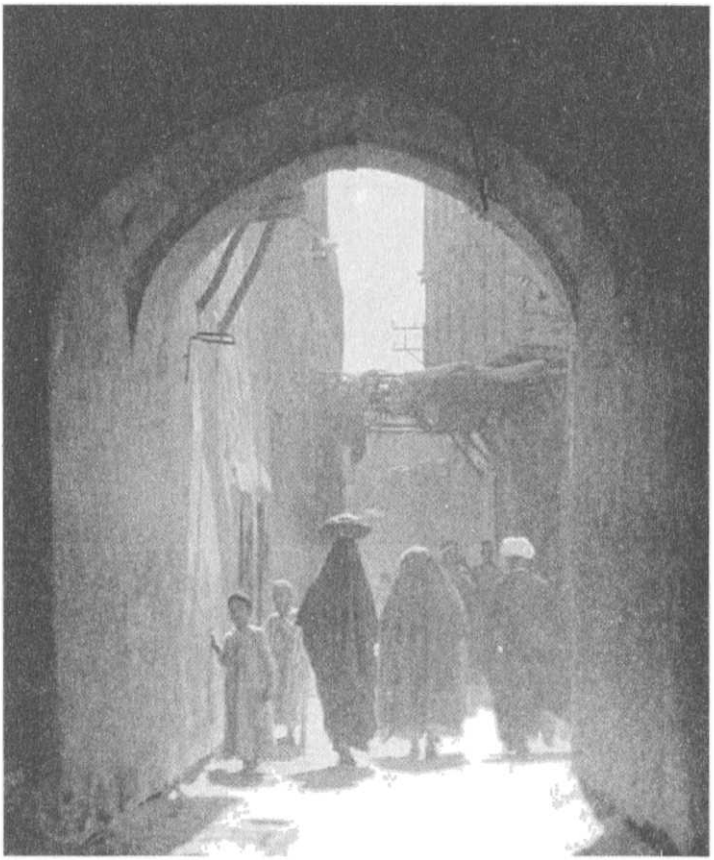

مكتبة الفكر الجديد

مجمل المشهد ومن حركة النور. ومع آخر خيط من الشمس ممّني شيء من خشوع خفي يمتّ لأهلي الذين ارتبطوا بهذا المكان.

أترك الصحن ومنائره خلفي وأنا أغادر المدينة وأعيد سؤال البداية: ماذا تبقّى منها فيّ، وماذا تبقّى منّي فيها؟

لن ألتفت إلى المدينة الأخرى إنما سأضع المركز كنقطة تثبيت، وقبل أن أعبر الفرات ألمّ دروب المدينة وناسها حوله لأعيد تشكيل المدينة وذاتي فيها. كل المشاهد والأصوات تتزاحم ثم تصطف وتشكل المدينة التي عرفتها، وربما التي افترضتها، وهي أنا. ففي هذه المدينة – المتاهة تجاورت أكثر المحرمات صرامة وأكثر الأفكار انفتاحاً، الدين في أكثر حالاته تزمتاً، يقابله الإلحاد وقد تحول ديناً. مدينة حائرة بين حاجتها للخروج من أسوارها، لكنها تهدم سوراً لتبني سوراً جديداً.

في داخلي بالتأكيد شيء من تناقض طبيعتها الجغرافية كونها أول ميناء حضري على الصحراء الممتدة غرباً إلى نجد والحجاز حتى الربع الخالي. مدينة ملحية عطشى، وهي على مسافة أقل من سبعة أميال من ماء الفرات وبساتينه. فقاعة من الرمل فوق خزان من الماء، عطشى وقد قطعت متاهة الرمل والملح وصارت على مرمى حجر من نهر الفرات، ومع ذلك لا تشرب الماء لأنها تريد أن توصل بالشعر العناء بالقصد وتوصل بالدين الرغبة في الامتناع.

لندن ٢٣-١٠-٢٠١٣

مكتبة الفكر الجديد

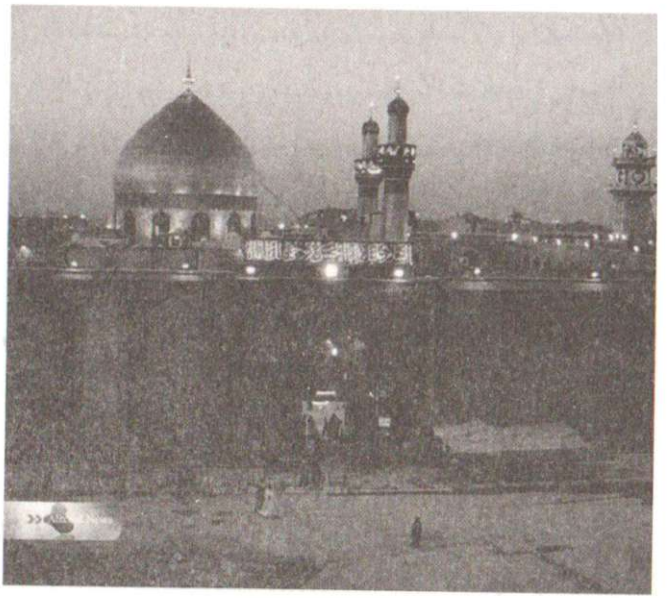

مكتبة
الفكر
الجديد

الفهرس

الأسلاف والآباء ٩
الصحن والمحلات الأربع ١٧
محلّة العمارة ٢٣
عكد السلام ٣١
الشيخان ٤١
الجزائريون ٥٥
بيتنا ٦٧
وادي السلام ٨٩
عاشوراء ٩٧
الكتب والمخيلة ١١٥
المعمَّمون والأفندية ١٢٥
المتمرّدون ١٤٣
المرأة (أجلّكم الله) ١٤٧
المُلّة ١٥١
مدرسة السلام ١٥٥
الكوفة: المسجد والنهر ١٥٩

مكتبة الفكر الجديد

شـــرفة على الفـرات ١٦٩
رحلـــة الخـريف ١٧١
معـــاول التـــجديد ١٧٥
الجوامـــع والمقاهـــي ١٨١
الســـــعلاة ١٩٥
السياسة والدين ١٩٧
ملك بين سيفين ٢٠٣
حي الســـعد ٢١٧
تمـــوز يدق الناقـــوس ٢٢٩
أبيـــدوهم! ٢٤٧
جيـــلي ٢٦١
المـــدينة الأخرى ٢٨١

مكتبة
الفكر
الجديد

بعد أربعة عقود أترك مدنَ المنفى ورائي و أزيحها من ذاكرتي، و أعود للمدينة الأولى، قابضاً بأعصابي على مقعد السيارة، وبذاكرتي على تلك المدينة، لأراها بعين الحاضر.

أدخل وجلاً من ثلاثة مخاوف انتظاري: النسيان، اللوم والموت.

لن يعرفني الناس في المدينة بعد هذا الغياب، فقد هجر المدينة أبناؤها القدامى إلى بغداد، مغادرين مدينة الكلام إلى مدينة النقود، وسيلومني الباقون لأنني تركتهم في أيام الفجيعة وأعود متأخراً، حين لم يبق غير الرماد والجنائز.

أعبرُ الفرات وبساتينه دون أن أرى شيئاً لأن عيني تترقبانِ مثل كل زائر لمعة القباب الذهبية. قبل أن أراها أطرح السؤال العصي: لمَ هناك وليس هنا؟

ISBN 284306234-9
9 782843 062346